المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك خالد
عمادة الدراسات العليا
كلية الشريعة وأصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر

من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

بحث مقدم استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص العقيدة والمذاهب المعاصرة

إعداد الطالبة:

سُمَيّـة بنت مسعود بن حسين سحنون

الرقم الجامعي: (٤٣٤٨٢٠٣٩٦).

إشراف الأستاذ الدكتور:

صالح بن سعيد نعمان

الأستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

العام الجامعي

١٤٤٠ هـ – ٢٠١٨ م

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة الملك خالد بأبها

عمادة الدراسات العليا

كلية الشريعة وأصول الدين

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر و القضاء و القدر
من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

بحث مقدم استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في جامعة الملك خالد

تخصص العقيدة والمذاهب المعاصرة

اسم الطالبة: سمية بنت مسعود حسين سحنون **434820397**

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ **23/ 1440/06**هـ و تمت إجازتها

الاسم	الرتبة العلمية	صفة المشاركة	التوقيع
أ.د.صالح نعمان	أستاذ	مشرفا و مقررا	
أ.د.مسعود حايفي	أستاذ	عضوا مناقشا	
أ.د.علي حسين موسى	أستاذ	عضوا مناقشا	

1439 –1440هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

Student in English Informatio:	معلومات الطالبة بالعربية
Name Sumaiah Masaud H. Sahnoon	الاسم: سمّية بنت مسعود حسين سحنون.
University ID: 434820396	الرقم الجامعي: ٤٣٤٨٢٠٣٩٦
Collage: Islamic Law and Fundamental Beliefs in Islam	الكلية: الشريعة وأصول الدين
Specialization: Doctrine and Contemporary Ideologies	التخصص: العقيدة والمذاهب معاصرة
Date of joining the program: 2013-2014 AM	تاريخ الالتحاق بالجامعة: ١٤٣٤ - ١٤٣٥هـ
The number of hours that have been Passed:28	عدد الساعات التي تم اجتيازها:٢٨
Degree Master	الدرجة العلمية الماجستير
Cumulaive average:4:93	المعدل التراكمي: ٤:٩٣

عنوان الرسالة باللغة العربية:

"المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور".

Title of Master's Thesis in English

The Ideological destinations of Faith on the Day of Judgment and Destiny through the Interpretation of Liberation and Enlightenment (Al- Tahrir Wa Al- Tanwir) of Sheikh Al- Tahir Ibn Ashur

إهـــــــداء

إلى فجر آمالي، ومبسم أيامي، وجنة قلبي النَّضرة،

والداي الحبيبان: مسعود بن حسين سحنون، وفاطمة بنت مشبب المطوّع

أنتما عينيّ التي أُبصر بهما الدرب فحفظكما الله لي، وبلّغكما فيّ ما تحبّان.

إلى شريك الحياة، وأمير الرحلة الشاقّة، وزاد الطريق

زوجي العزيز: عبد العزيز بن عبد الرحمن آل عطيف

إلى من أحييت الأمومة بداخلي، زينة دنياي وبهجتها، فرحتي الأولى، وطفلتي البكر:

"ابنتي أسيل".

إلى القلوب النقية، والنفوس الزكية، إخوتي "ذكورًا وإناثاً"

أهديكم هذا البحث، وقد بلغت بكم الجهد فقرّوا عينًا.

الباحثة

الشكر والتقدير

الحمدُ لمن هو للحمد أهلٌ، والصلاة والسلام على خير البشرية وأفضل الرسل. أما بعد:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] . فالشكر الخالص لله وحده، على تهيئته لي أسباب العلم وتحصيله، فلولاه ما أنا أكتب السطر الأخير فيه، فله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن.

وأُثني بالشكر الجزيل لفضيلة الأستاذ الدكتور: صالح بن سعيد نعمان؛ الذي انتشلني من حيرة الموضوعات في مرحلة تسجيل الموضوع، ثم تابعني من خلال الإشراف على بحثي، فله الشكرُ على ما منحني من وقته، وخلاصة علمه، وتوجيهاته السديدة، وتبصيره لي في كل ما يتعلق بمسائل البحث، ومنحي نُسخًا من بعض الرسائل في المقاصد، فالله أسأل أن يُجزيه خير ما يجزي به معلم عن تلميذه.

ثم أشكر كل مَن ساهم في صناعة النجاح، وتذليل الدَّرب، وتهوين الصعب أمامي، وغمروني بواسع اللطف، وفي مقدمتهم: والداي الكريمان، اللذّان ترعرعت في كنفهما، وأثقلهما همي، واللذان ما فتئا يمدّاني بجسر من الحبّ ويغدقاني بالدعاء. ثم لمن جمعني الله به في منتصف طريق الطلب، فشدّ بيده على يدي، فانفككت من رعاية والداي إلى رعايته وحسن كنفه، فبارك الله فيه وفي من أنجبه.

ثم أخص بالشكر: إخوتي ذكورًا وإناثًا، الذين ما انفكت ألسنتهم تلهج بالدعاء لي، ولعلي أخصّ منهم "تركي، وشيماء، ونسيبة" فكم تحملوا مشقة نقلي إلى الكلية ذهابًا وإيابًا سنة كاملة.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر للمناقشين اللذين تفضلا بمناقشة هذا البحث، وإثرائه بما ينفعني أولًا وينفع الأمة الإسلامية به بإذن الله.

وأعرج بالشكر لمعلماتي منذ الابتدائية وحتى اليوم، وأخص منهم: أ. سرّاء العمري، معلمة القرآن والقراءة والكتابة الصفّ الأول في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم الأولى بخميس مشيط عام ١٤١٧هـ، فلولاها بعد الله ما تعلمت القراءة والكتابة، ولا حفظت قصار السور، وأُثني بالأستاذة: مريم مشبب القحطاني، التي علمتني قواعد اللغة العربية، ودرستني النحو في الصف الأول الثانوي، فها أنا ذي أقطف ثمار ذلك التعليم في هذه المرحلة. فجزاهما الله عني خيرًا. والشكر لمشايخي الذين علموني القراءات في المرحلة الثانوية،

ثم للمشايخ الذين درسوني في هذه المرحلة.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة الملك خالد، هذا الصرح العلمي الشامخ، ممثلة في كلية الشريعة وأصول الدين، وعمادة الدراسات العليا، وأخص منها: قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة؛ الذي احتواني في مقاعده، على إتاحة الفرصة لي للدراسة، والنهل من العلم الشرعي الصحيح.

هذا؛ وأسأل الله الواحد الأحد أن يَعم النفع بهذا البحث، ويكون لي ذخرًا إلى أن ألقاه، والحمد لله أولًا وآخرًا، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، صلاةً وسلامًا تبلغه منا إلى يوم الدين.

ملخص الرسالة باللغة العربية

الجامعة: جامعة الملك خالد.

الكلية المانحة: كلية الشريعة وأصول الدين.

القسم العلمي: قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.

التخصص: العقيدة والمذاهب المعاصرة.

الدرجة العلمية: الماجستير.

عنوان الرسالة: المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

اسم الباحثة: سمية بنت مسعود حسين سحنون.

الرقم الجامعي: ٤٣٤٨٢٠٣٩٦.

اسم المشرف: أ.د. صالح بن سعيد نعمان.

تاريخ المناقشة: ١٤٤٠/٦/٢٣ هـ

الملخص:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فهذه رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، وتتكون الرسالة من: مقدمة، وفصل تمهيدي، وفصلين أساسيين، وخاتمة.

أما المقدمة ففيها ذكرت الباحثة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج الدراسة، انتهاء بخطة البحث.

وفي الفصل التمهيدي: جعلت الباحثة الحديث عن ابن عاشور في ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول تطرقت للتعريف بابن عاشور، وبينت عصره، وبيئته التي نشأ فيها، وحياته ومذهبه الفكري، ومكانته العلمية. وفي المبحث الثاني: عرفت بتفسير التحرير والتنوير محل الدراسة، وتحدثت عن طبيعة هذا التفسير، ومكانته ومحاوره، ومنهج ابن عاشور في تفسيره. وأما المبحث الثالث: فتناولت مقاصد العقيدة الإسلامية بالتعريف، وأقسامها العامة والخاصة والجزئية، وأهميتها والعلاقة بينها وبين مقاصد الشريعة.

ومنهج ابن عاشور في الكشف عن هذه المقاصد وإثباتها.

وفي الفصل الأول: تناولت الباحثة مقاصد الإيمان باليوم الآخر العامة والخاصة في تفسير التحرير والتنوير، وذلك في سبعة مباحث: تحدثت في المبحث الأول عن مقتضيات الإيمان باليوم الآخر. وفي المبحث الثاني عن المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر. ثم فصلت الحديث في باقي المباحث عن المقاصد الجزئية للإيمان باليوم الآخر: فتحدثت عن المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ، وعن المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة. والمقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به. والمقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء. و المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما.

وفي الفصل الثاني والأخير: تناولت الباحثة مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر العامة والخاصة في تفسير التحرير والتنوير، وذلك في خمسة مباحث: تحدثت في المبحث الأول عن مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر، وفي المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر. ثم فَصلت الحديث في باقي المباحث عن المقاصد الجزئية للإيمان بالقضاء والقدر: فتحدثت عن مقصد معرفة الله وتوحيده. وعن مقصد التوكل على الله. وأخيرًا تناولت مقصد الصبر.

وتضمنت **الخاتمة** بذكر النتائج والتوصيات، والفهارس الفنية، وأخيرًا ثبت بالمصادر والمراجع.

وقد انتهت الدراسة – بفضل من الله تعالى– إلى عدد من النتائج والتوصيات، منها:

١. استنباط المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر من خلال تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور.

٢. استنباط المقاصد العقدية للإيمان بالقضاء والقدر من خلال تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

٣. بيان العلاقة بين مقاصد الشريعة وبين مقاصد العقيدة من خلال بيان البعد العملي لمقاصد العقيدة، كما تتضح تلك العلاقة من خلال بيان أهمية المقاصد العقدية:

أ. معرفة المقاصد تسهم في ترسيخ العقيدة.

ب. أن معرفة المقاصد تسهم في تحقيق العبودية.

ج. أن معرفة المقاصد تسهم في الوقوف ضد الغزو الفكري والعقدي. فهذا دليل على أن العلاقة بين العقيدة والشريعة وبين مقاصدهما علاقة وطيدة لا يمكن الفصل بينهما، فالعقيدة هي الروح والشريعة هي الجسد.

٤. أن مقاصد العقيدة لا تنفك عن مقاصد الشريعة أبدًا، بل قد يشتركان في مقصد واحد، كمقصد صلاح الفرد والمجتمع، فما أمرنا بالتزام الاعتقاد الحق، واتباع الشريعة السمحة؛ إلا لتحقيق صلاح

الفرد في نفسه فيصلح مجتمعه.

٥. الوصول إلى تعريف للمقاصد العقدية "بأنها هي الحكم والغايات والأسرار من جملة الأوامر والنواهي، التي تبين مراد الله من خلقه؛ فيما يتعلق بالإيمان، من تقرير عبودية الله وحده؛ بما فيه من تحقيق صلاح العباد والبلاد". وهذا بعد اطّلاعي على تعريفات الأئمة السابقين في هذا الباب، رغبة المساهمة في خدمة هذا العلم، ولئلا يكون دوري النقل والجمع فقط.

٦. المكانة التي وضعها ابن عاشور لنفسه من خلال استقامته، ومؤلفاته التي بلغت العالم، مع أنه عاش في عصر كالعصر الذي نحن فيه، فلا يحتجّ أحدٌ بأن الظروف لا توائمه ويظل مكتوف الأيدي لم يصلح نفسه ولا مجتعه.

٧. أن العلاقة بين أركان الإيمان هي علاقة تكاملية، فالإيمان بركن منها لا يغني عن الإيمان ببقية الأركان.

Thesis Abstract in English Language

University : King Khalid University
The Degree Awarding College : Shari’a and Fundamentals of Religion College
Scientific Section : Creed and Contemporary Doctrines Department
Major : Creed and Contemporary Doctrines Department
Scientific Degree : MA (Master of Arts)
Thesis Title : Doctrine Intents of faith in Judgment Day as well as fate and destiny through Interpretation of Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur,
Researcher’s Name : Somaia Masoud Hussein Sahnoon
University No. : 043820396
Supervisor’s Name : Prof. Dr. Saleh Saeed Noaman
Dissertation Discussion Date : 23/06/1440 H.
Abstract Content
Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the prophets, :
This is a scientific thesis submitted to obtain a Master's Degree in the Creed and Contemporary Doctrines given that the consists of :
Introduction, introductory chapter, two basic chapters, and a conclusion.
As for the introduction, the researcher mentioned the importance of the subject, the reasons for its selection, the problem of research, and its objectives, and previous studies, and the methodology of the study, and finally the research plan.
In the introductory chapter: the researcher made the talk about Ibn Ashour in three investigative approaches . In the first Investigative approach, the researcher gave introductory brief of Ibn Ashour, and elucidated his era, and the environment in which he grew up, his life and intellectual doctrine, and his scientific caliber . At the second investigative approach, I gave briefing notes Interpretation of Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur, and I talked about nature
Of this interpretation, its position and its pivots , and the approach of Ibn Ashour in interpretation.
As for the investigative approach, I addressed the purposes and intents of Islamic doctrine by definition, and its public, private and partial sections, and its importance and the relationship between it and Sharia intents as well as the approach of Ibn Ashour in unveiling these purposes and intents and how they are proven .
In the first chapter, the researcher dealt with the purposes of faith in the Judgment Day, public and private, in the interpretation of Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur,, in seven investigative approaches : I investigated in the first section the requirements of faith in the Judgment day.

In the second section focus was on the general doctrinal purposes of faith in Judgment day. Then I detailed unilaterally elaboration on investigative approaches on partial purposes of the faith of the Judgment day. I talked about the doctrinal in faith with death and purgatory and the purposes of the faith and purposes of ideological faith in the resurrection and whatever is related and to penalty and Judgment in faith in heaven and hell and whatever is related thereof .

In the second and last chapter, the researcher dealt with the private and public purposes of faith in fate and destiny in Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur, in five investigative approaches . I spoke in the first investigative approach on the requirements of faith in fate and destiny .

And in the the second investigative approach on the goals of the general belief of the faith in destiny and fate and then separated the talk in the rest of the partial intentions of faith in destiny and fate: I spoke about the purpose of knowledge of Allah and monotheism and the intent of trust in Allah and finally addressed the purpose of patience.

The conclusion included mentioning the results, recommendations and technical indexes, and finally proven sources and references.

The study, thanks to Allah, ended with a number of conclusions and recommendations, including:

1- - devising the purposes of belief to faith in the Judgment Day through the interpretation of the Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur,
2- Eliciting the doctrinal purposes of faith in destiny and fate through the interpretation Tafsir al-Tahrir wa'l-Tanwir which a work of Qur'anic exegesis by Muhammad al-Tahir ibn Ashur,
3- Unveiling the relationship between the purposes of the shari'a and the purposes of the faith by stating the practical dimension of the purposes of Doctrine, as evidenced by the relationship through the importance of the purposes doctrinal purposes :

A- Knowledge of the purposes contribute to the consolidation of the doctrine.
B- knowledge of the purposes contribute to the realization of worship .
C- knowledge of the purposes contribute to stand against intellectual and ideological invasion. This is evidence that the relationship between faith and sharia and between their purposes a strong relationship that cannot be separated and the doctrine is the spirit and the law is the body.
D- The purposes of faith are never separated from the purposes of the Sharia, but may share a single intent, as the purpose of Goodness, the individual and society, what ordained us to adhere to the right belief and follow the law of tolerance only to achieve the goodness of the individual to the benefit to himself and society .

5- Access to the definition of the purposes of the doctrinal intent "as it is the rule and goals and secrets of the orders and prohibitions that show the Intent Allah of his creation in terms of faith from the report of the Worship of Allah alone, including the achievement of goodness of worship and the country." This after I learned the definitions of the former imams in this section desire Contribute to the service of this science, so that the league of transport and collection only.

6. The status placed by Ibn Ashour for himself through his integrity, and his writings that reached the world, although he lived in an era like the one in which we are. No one argues that the circumstances do not match him and remain idle, he has not corrected himself or his community.

7. The relationship between the pillars of faith is an integrative relationship, believing in a blessing from them does not dispense with faith in the rest pillars .

المقدمة

وتشتمل على:

- **أولًا–** التعريف بالموضوع وإشكاليته.
- **ثانيًا–** أهمية البحث.
- **ثالثًا–** أسباب اختيار الموضوع.
- **رابعًا–** أهداف البحث.
- **خامسًا–** الدراسات السابقة.
- **سادسًا–** منهج البحث.
- **سابعًا–** صعوبات واجهت الباحثة أثناء إعداد البحث.
- **ثامنًا–** خطة البحث.

المقدمة

الحمد لله الذي على عرشه استوى، قدّر الأمور وقضى، وبحوله وقوته يستعين الورى، والصلاة والسلام على النَّبي المصطفى، مُحَمَّد بن عبد الله المجتبى، صلاةً وسلاماً تبلغه منا إلى يوم يُجمع فيه الملأ. أما بعد:

فإن القرآن الكريم جاء صالحًا لكل زمان ومكان، فيه الهدى والحق والرشاد، شاملاً لمقاصد الدين كله، زاخرًا بمقاصد عقدية، من أبرزها: صلاح الفرد والمجتمع، وتخليصه من شوائب الشرك، والرُّقي به إلى عبادة الله وحده، بعد أن كان في براثن الوثنية، ويتفرع عن هذا مقصد عقدي آخر هو الترغيب فيما عند الله من نعيم وحسن ثواب في الدار الآخرة، والترهيب لمن انحرف عن شرع الله، وحاد عن الصراط.

ولقد نبّه ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» على هذه المقاصد، ولا غرو في ذلك؛ فهو ربّان المقاصد الشرعية؛ إذ جمع في تفسيره بين المقاصد الشرعية والعقدية، والتي لا تظهر إلا لنابغة في اللغة والبلاغة، متأمل في آيات الكتاب العزيز، ومتجرد من نزعة هوى، أو تعصب لمذهب، والذي يكون مقصوده الأول هو معرفة الله ﷻ من خلال آياته.

ومسائل العقيدة في القرآن الكريم لم تكن خاليةً من علة أو حكمة، أو سبب سيقت تلك الآيات والمسائل لأجل بيانها، وذلك لأن القرآن الكريم يبحث في الأجوبة عن كل حكم عقدي، أو شرعي؛ لتبيينه للمؤمنين، فيعملون به وهم مطمئنون، والإيمان راسخ في قلوبهم، أنى له أن يتزعزع.

✍ أولاً - التعريف بالموضوع وإشكاليته:

إن الله ﷻ ما خلق الخلق، وأرسل الرسل إلا لغاية عُظمى، ومقصد عظيم، ألا وهو عبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]. وعبادته لا تتم إلا بمعرفته، والإيمان بوجوده حتى تتحقق لهم العبادة بأكمل وجه، وهذا معلومٌ من الدين بالضرورة. فما جلب لهم المصالح، ودرأ عنهم المفاسد إلا تحقيق عبادته على الوجه الأكمل، ولا يمكن أن يتحقق ذلك، إلا من خلال معرفة المقاصد الشرعية والعقدية لها.

وقد عُني العلماء قديمًا وحديثًا ببيان مقاصد الشريعة، التي جاءت الأوامر والنواهي بتحقيقها؛ لتتحقق المصلحة الكبرى للعباد. وإن البحث والعناية بإبراز مقاصد الشريعة ليس بأولى من البحث والعناية بإبراز مقاصد العقيدة، حيث نتج عن تغييب العناية بمقاصد العقائد الخروج بها عن مقاصدها الحقيقية.

ولقد سلك القرآن الكريم – من خلال دعوته إلى الإيمان– مسلكًا تربويًا إصلاحيًا فريدًا من نوعه، يربط الحقائق الإيمانية الغيبية بغاياتها وعللها، وإرسال رسل لتوضيحها، غير مكتفٍ بالوقوف في مرتبة التصديق بهذه العقيدة فقط، بل تجاوز إلى البحث في معرفة أسرار أركان الإيمان الستة.

فكانت العقيدة الإسلامية وفق هذه الرؤية المقاصدية لتفسير علل الإيمان بحقائق الإيمان، الكتاب الأول الذي عَرّف بمصالح العباد في الدارين؛ من أجل بلوغهم الكمال والسعادة الأبدية، وعَرّفت بكمال صفات الله ﷻ وإرادته، الذي لا تخلو أفعاله من حكم وعلل. فمن عَرَف العقائد ومقاصدها استطاع أن يقترب من الله اقترابًا بالمعنى والحقيقة.

وإنَّ المتأمل في حياة الناس يجد انفصالاً كبيرًا بين الحياة الدنيا والدار الآخرة، بحيث توصف أعمالهم على أنها للدنيا فقط، فأدّى ذلك إلى اختلال في تصوّر الحياة والمصير، والنظر إلى متعلّقات الإيمان باليوم الآخر من موتٍ وبعثٍ وجزاءٍ وقيامِ السّاعة بنظرة متشائمةٍ يائسةٍ مادية؛ لعدم تمكّن هذه العقيدة في قلبه تصديقًا وعملاً بها، وهذا له أسباب عدّة، منها: الجهل، أو الغفلة عن مقاصد الإيمان باليوم الآخر.

وفي واقعنا المعاصر فقد استشكل أمر القضاء والقدر على الناس، وهو ركن من أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، وهو المظهر الأعلى لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهو الذي يناسب مقام الإنسان في العبودية.

حيث إنَّ القدر يسير مع الإنسان حيث كان مؤمنًا أم كافرًا، فهو يسير بقدر الله إلى قدر الله. ولكن هناك مفهومًا خاطئًا ممن انحرف عن الصراط المستقيم في اعتقاده وسلوكه، وسبب هذا الانحراف هو ما أصاب هذه العقيدة من غبش أخفى بريقها، وعدم إدراك أو معرفة الغاية بالتصديق بالقضاء والقدر، ومقاصده، وعدم الصبر على الابتلاء، مما نتج عنه كثير من الانحرافات العقدية والسلوكية، ليس على مستوى الفرد ومعاناته النفسية من انطوائية وانسحاب من الحياة العملية، وقنوط من رحمة الله فحسب، بل كذلك على مستوى المجتمع وما ظهر من انحرافات قاتلة، كالاعتقاد بالجبرية وما تقتضيه من سلوكيات سلبية، أو الحرية الإباحية وما تقتضيه من سلوكيات التمرد عن الدِّين والقيم والأعراف، إلى أن تصل ببعض الناس الى الإلحاد.

وهذا يفتح أبواب الشيطان التي تغري أهواء الإنسان بالنكوص عن درب الله بحجة ضغوط الواقع ومبررات الواقعية الانهزامية. فيصل الإنسان إلى قمة الأزمة النفسية المنتهية بالانتحار، الذي أصبح ظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد كيان أمتنا.

وبذلك يكون الإيمان باليوم الآخر، وبالقضاء والقدر عاملَ قوة فعالاً في شخصية الإنسان، يشحذ الهمة ويُنير البصيرة، لا عامل ضعف وخمول، حيث يفتح الفهم الواعي الآفاق أمام الإنسان للعمل ليوم

المعاد، وتدبر آلاء الله والسير بحسب قوانينه في كونه وفي شرعه لنيل توفيقه ونصره.

فغياب المفهوم الصحيح لمقاصد الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر، والجهل بها والغفلة عنها وعدم الالتزام بها، وتطبيقها عند معرفتها، وما نتج عن ذلك من نتائج سلبية، هو ما دفعني إلى البحث في مقاصد عقيدة الآخرة والقضاء والقدر، وحفزني للخوض في غمار هذا الموضوع العقدي؛ لما له من أثر في النفوس عميق، ينسحب أثره على الفرد و المجتمع.

وإن المتتبع لمسيرة العلماء في تقصي مقاصد الشارع يجد أن ابن عاشور من أشهر علماء المقاصد الشرعية المجددين، فقد كان لتفاعله مع كتاب الله أثره البالغ في عقله وفكره الذي اتسعت آفاقه، فأدرك مقاصد الكتاب، وألف فيها أهم كتبه بعد «التحرير والتنوير»، هو كتاب: «مقاصد الشريعة»، وفتح لمن بعده المجال لأن يخوض غمار البحث في هذا العلم الوفير الذي لم نعلم منه إلا القليل، وبحاجة إلى المزيد، فهو علم يساير الزمن ويواكب تطوراته.

واستنادا إلى ما سبق يمكن تلخيص تساؤلات البحث في ما يلي:

١. ما المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر، وبالقضاء والقدر بخاصة في تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور؟.

٢. ما المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر؟.

٣. ما المقاصد العقدية للإيمان بالقضاء والقدر؟.

٤. ما العلاقة بين مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة؟.

٥. من هو ابن عاشور؟ وما منهجه في التحرير والتنوير؟.

وللجواب عن تلك التساؤلات، اخترت عنوان البحث:

"المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر من خلال «تفسير التحرير والتنوير» للطّاهر بن عاشور".

✍ ثانيًا- أهمية الموضوع:

إنَّ أهمية عنوان البحث تكمن فيما يلي:

١. إن رسالة الإنسان في الوجود مرتبطةً بإيمانه باليوم الآخر، فحتى الإيمان بالله لا يستقيم إلا إذا كان الإيمان بالبعث متمكناً في النفوس. فهذا الركن ذو أهمية كبيرة؛ نظرًا لما يترتب على الإيمان به من

مقاصد وأهداف، وما عليه هذا الموضوع من تعقيد كونه من متعلّقات الغيب، مما يجعل كثيرًا من الناس يعتريهم شكٌّ في حقيقته، فلا يصدقون أنهم سيبعثون بعد الموت للحساب، وما زاد هذا الوضع خطورة هو حدوث الانفصال الكبير بين الحياة الدنيا و الآخرة فلا يستعدون للآخرة!.

٢. وإن الإرادة الإنسانية متعلقة بالإرادة الإلهية، والإيمان بالقدر هو نظام التوحيد والاختيار الأقوى لمدى معرفة الإنسان ربه، وما يترتب على هذه المعرفة من يقين صادق بالله.

٣. ومما لا شكّ فيه أن واقع الإنسان هو الدافع إلى معالجة أية قضية، فالمتأمل في الواقع العقدي الراهن عامة، وللمسلمين خاصة يجد أن ما يعانيه هؤلاء يرجع إلى الابتعاد عن دين الله، مما نتج عنه تراخي صلة العقيدة بمختلف نشاطات الحياة، فكان ذلك الانفصال بين الاعتقاد والسلوك لدى المسلمين!.

٤. كما يستمدّ البحث أهميته من خلال التعرف إلى مقاصد الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، بتقديم أدلّة مقنعة، وحصانة لعقيدة المسلم أمام الهجمات الشرسة من مذاهب فلسفية ومادية، تشكك في إيمان العبد بربه.

فأضحى إبراز مقاصد الاعتقاد بالآخرة، والقضاء والقدر خيره وشره لازمًا ومهمًا، وبخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه المخالفات الشرعية، والانحرافات العقدية والسلوكية التي وقعت بشكل مخيف في الشخصية المسلمة، مما قد يهدد الهوية الإسلامية بالاندثار، فهي قد تسهم في معالجة ذلك كله من خلال الإسهاب فيها، وإظهارها في بحث يلم شتاتها من خلال كتاب كان فكر مؤلِّفِه عقديًا.

كما تتضح أهمية هذا البحث من خلال أسباب اختياري لعنوانه، وبيان أهدافه.

✍ ثالثاً- أسباب اختيار الموضوع:

مما لا شكّ فيه أن وراء كل بحث أسبابًا موضوعية وذاتية يمكن عرضها على النحو التالي:

أ. الأسباب الموضوعية:

١. الانحرافات السلوكية الناتجة عن الفهم الخاطئ لمقاصد الإيمان عامة، ومقاصد الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر خاصة.

٢. إغفال الباحثين لمقاصد العقائد، واتجاه هممهم إلى مقاصد الشريعة، وعنايتهم بها.

٣. كون الطاهر بن عاشور لم يخص الحديث عن مقاصد العقيدة بمؤلَف خاص، لا يَعني أنه أغفلها وإنما بالتتبع لآرائه ومؤلفاته نجد أنه تحدث عنها في ثناياها، ومن أشهرها: «تفسير التحرير والتنوير» الذي عقدنا هذا البحث من أجل استنباط مقاصد الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر منه.

٤. لجوء طائفة من الناس في معرفة عقيدة الآخرة، والقضاء والقدر إلى التفاسير العلمية، دون العودة إلى مصدر التشريع الأول وهو القرآن الكريم.

٥. جهل الناس بمقاصد الاعتقاد بالآخرة، وبالقضاء والقدر، وحاجتهم اليوم إلى الدراسات العقدية المتعلقة ببحث المقاصد.

ب. الأسباب الذاتية:

١. الرغبة الذاتية والإيمانية في بحث هذا العنوان الذي يجمع بين ثلاثة علوم: علم العقيدة، وعلم المقاصد، وعلم التفسير.

٢. الصّلة الوثيقة بين التخصص وهذا البحث؛ لأنه يمسّ أصلاً مهماً من أصول العقيدة الإسلامية.

٣. التعرف على أعلام الفكر في المغرب العربي.

٤. ارتباط المقاصد بالعلامة ابن عاشور؛ لما له من جهد وفضل في الكلام على المقاصد، من حيث أهميتها وإثباتها، وما أضافه من إضافات ميزته عن سابقيه، حيث يعد في أوائل من أحيا و جدد علم المقاصد، فكان لزامًا أن نتلمس موضوع المقاصد في العقيدة، من خلال مؤلّفه: «التحرير والتنوير».

✍ رابعًا- أهداف البحث:

لقد كتب هذا البحث سعيًا إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. استنباط مقاصد الإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر، من خلال «تفسير التحرير والتنوير»؛ لإعادة فعالية العقيدة الإسلامية بإثارة روح المقاصد في القلوب، وزرع بذور الأمل في النفوس.

٢. إبراز العلاقة المتينة بين مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة.

٣. إبراز الفكر المقاصدي للطاهر بن عاشور من خلال مؤلفه: «التحرير والتنوير».

٤. التعريف بهذه المقاصد لطلاب العلم خاصة، والمسلمين عامة؛ للالتزام بها، والتعمق في البحث فيها، لتقويم السلوك وتوجيهه. وإعادة الإنسان إلى أصله بمحاولة الوصول إلى السعادة الأبدية عن طريق الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر.

٥. إضافة هذا الجهد إلى جهود الباحثين الذين يسعون إلى ربط العقائد بمقاصدها، والإسهام في بناء علم المقاصد العقدية؛ لكونه علما مستقلا بذاته.

خامسًا- الدراسات السابقة:

يُعدُّ موضوع المقاصد العقدية مجالًا خصبًا للبحث فيه، فهو لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة، خاصة وأن شمسه لم تبزغ كعلم مستقل إلا حديثًا؛ لذا ومن خلال اطلاعي فإنني لم أعثر في مبلغ علمي، وحدود بحثي، على دراسة تتناول الموضوع بالمعنى المحدد له في هذا البحث، ولكن توجد بعض الدراسات التي تمتّ إليه بصلة من رسائل ماجستير ودكتوراه، مثل:

أولاً- بالجمهورية الجزائرية:

أ. بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية _قسطنطينة:

١. **مقاصد الإيمان باليوم الآخر**، للطالبة: صايت إلهام، بإشراف الأستاذ الدكتور: صالح نعمان. للسنة الجامعية ١٤٣٢-١٤٣٣ هـ. وقسمت الباحثة دراستها هذه إلى ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول ذكرت التعريف بمقاصد العقائد وأهميتها، والعلاقة بينها وبين مقاصد الشريعة، وحقيقة الإيمان باليوم الآخر، وأساليب دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان باليوم الآخر، والإشارة إلى الحكمة من تنوع أساليبه. وتضمن الفصل الثاني مقاصد الإيمان باليوم الآخر، ثم الفصل الثالث والأخير الذي يذكر وسائل تحقيق هذه المقاصد وموانعها، وآثارها على سلوك الفرد والمجتمع.

٢. **مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر، وآثارها على السلوك.** رسالة ماجستير في العقيدة للطالبة: سلوى مسعودان، بإشراف الأستاذ الدكتور: صالح نعمان. للسنة الجامعية ١٤٣٣-١٤٣٤ هـ.. ودرسَتْ في هذا البحث قضيتين أساسيتين: تأصيل مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر وتحقيق آثارها على المستوى الإنساني، ففي الفصل الأول بينت الباحثة معنى المقاصد لغةً واصطلاحًا، ثم بينت أهمية مقاصد العقائد وعلاقتها بمقاصد الشريعة، وأقسام مقاصد العقائد، ثم عرّجتْ إلى مفهوم القضاء والقدر لغة واصطلاحا وبيان أركانه. وفي الفصل الثاني تناولت فيه مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر، واستخراجها من القرآن والسنة ومن التراث العقدي ثم الحديث والتعريف بها. إلا أن هذا الفصل جاء مختصرًا ويَغلب عليه العرض دون التحليل. وفي الفصل الثالث بيّنت فيه أثر معرفة هذه المقاصد وعدم معرفتها على السلوك الإنساني مع اقتراح بعض الحلول.

ولقد زودني مشرفي الأستاذ الدكتور: صالح نعمان -جزاه الله خيرًا- بنسختين مصورتين من الرسالتين السابقتين، فحتى إن كانت العناوين مترابطة فيما يظهر، إلا أن دراستي هي محاولة استنباط مقاصد الإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر، من خلال تفسير ابن عاشور لآيات الكتاب العزيز، فهي محدودة ومخصصة بهذا التفسير -التحرير والتنوير-، ومكملة لما نقص في هذين البحثين، فلا شك في أن

ابن عاشور هو عالم المقاصد الشرعية، مما ساعدني على استنباط المقاصد العقدية.

٣. **مقاصد الإيمان بالملائكة**، رسالة ماجستير في العقيدة للطالبتين: أولاد يحي فاطمة، وبوزيد رملة، بإشراف الأستاذ الدكتور: صالح نعمان.

٤. **مقاصد العقيدة الإسلامية عند الحكيم الترمذي.** رسالة ماجستير في العقيدة، للطالبة: فضيلة غنانوة، بإشراف الأستاذ الدكتور: عبد الوهاب فرحات.

٥. **المقاصد العقدية لأركان الإسلام.** رسالة ماجستير في العقيدة. للطالبة: فوزية عيساوي، بإشراف الأستاذ الدكتور: عبد الوهاب فرحات.

٦. **فرقة بحث: مقاصد العقائد الإسلامية ودورها في ترشيد السلوك**، دراسة عقدية نفسية. برئاسة الأستاذ الدكتور: صالح نعمان.

وقد تمحورت الدراسة في هذه الرسائل حول: تأصيل المقاصد العقدية من القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث الإسلامي في فصل واحد فقط من كل رسالة، بينما دراستي هذه مقتصرة على تبيان المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وإبراز الفكر المقاصدي لهذا العالِم، خاصة وأنه ممن عنوا بذلك.

ب. بجامعة الجزائر:

٧. **مقاصد العقائد عند الشيخ الطاهر بن عاشور**، رسالة ماجستير في العقيدة، كلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر، للطالب: عبد الرؤوف تاج الدين صوان، بإشراف الدكتور: عبد الرزاق دحمون، للسنة الجامعية ١٤٣٧-١٤٣٨ هـ. وقد قسّم الطالب دراسته إلى أربعة فصول، تضمن الفصل الأول ترجمة لابن عاشور، وركّز حديثه في الفصل الثاني على تأصيل موضوع مقاصد العقائد من حيث مفهوم (علم المقاصد)، ومسألة تعليل أفعال الله تعالى، وقواعد هذا العلم ومستويات مقاصده، وكيفية استنباطها، وفوائده، وخطر الجهل به.

وخصّص الفصل الثالث للحديث عن مقاصد العقائد عند ابن عاشور، فبيّن علاقتها بالمقاصد الشرعية، واشتمال العقائد على مقاصد ومصالح، ودور العقيدة في إصلاح العمل وإيجاد الوازع النفسي. بينما جعل الفصل الرابع خاصّا بالجانب التطبيقي، حيث أشار فيه إلى المقصد العام للشريعة والمقاصد الكلية للعقائد، ثم تحدث عن المقاصد العامة لها، من خلال ما ذكره ابن عاشور من مقاصد عقدية لأركان الإيمان الستة، المتعلقة بالإلهيات والنبوات والسمعيات، وإتمامه بذكر بعض المقاصد العقدية الأخرى.

وقد حصلتُ على نسخةٍ من هذه الرسالة، فعلى الرغم من اتصال عنوانها بعنوان دراستي فيما يظهر،

إلا أن هذه الدراسة شاملة لمؤلفات ابن عاشور ولأركان الإيمان الستة. أما **دراستي فهي خاصّة بالمقاصد العقدية لركنين فقط من أركان الإيمان الستة والتي ذكرها ابن عاشور في تفسيره. فدراستي مركزة ومتعمقة أكثر.**

ثانيًا- بالمملكة المغربية:

٨. **مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي.** للباحث: مُحَّد عبدو. حيث تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية. من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة مُحَّد الخامس _ المغرب.

تمحورت هذه الدراسة حول شخصية الإمام الغزالي، وهو من أبرز الشخصيات في التاريخ الإسلامي. فقد عاش في ظروف ضعف هذه الأمة التي تشبه أحوالنا في الوقت الراهن. فعمل على إحياء هذه الأمة من خلال النظر المقاصدي في العقيدة.

وقد عمل الباحث على صياغة نظرية في مقاصد العقائد عند أبي حامد، موضحًا أن الفرق بينه وبين الشاطبي، هو صياغة الشاطبي لنظريته في كتابٍ واحدٍ، بينما جاءت نظرية الغزالي مبسوطة منثورة في كتبه.

كما بين الباحث أيضا الطرق التي منها تعرف مقاصد العقائد، وقد حصرها في أربع طرق: الوحي، والصحابة، والقرائن، والمكاشفة. وهي عند أبي حامد من أهم الطرق في معرفة مقاصد الشريعة وأسرارها [(١)] .

٩. **مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة، عند الإمام فخر الدين الرازي.** للباحثة: أمينة هموري. حيث تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراة في الدراسات الإسلامية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة مُحَّد الخامس _ المغرب.

وقد تمحورت هذه الدراسة حول شخصية واحدة هو الإمام فخر الدين الرازي، وركزت على دراسة مقاصد الشريعة عنده، انطلاقًا من مؤلفاته المطبوعة، كما أنها أوضحت أيضًا أن النظر المقاصدي عند الرازي لا يقف عند الجانب التشريعي والفقهي، وما يترتب عليه من تدين وسلوك والتزام عملي فحسب، بل يمتد إلى العقيدة وقضاياها أيضا، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً- نظرا لما تزخر به مؤلفاته من قضايا عقدية، **وثانيا-** إيمانا من الباحثة بأن النظرة المقاصدية في

---

(١) مقالة عن أطروحة لنيل درجة الدكتوراة في الدراسات الإسلامية، إعداد مُحَّد عبدو، جامعة مُحَّد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-المغرب، ٢٠٠١-٢٠٠٢م ، عنوان المقالة: ما هي معالم الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي- للكاتب: إسماعيل بن مُحَّد بن أحمد- موقع الملتقى الفقهي.

العقائد تنبني عليها النظرة إلى التشريع. ذلك لأن مقاصد عقائد الشرع تؤسس لأحكامه[(١)].

١٠. **المقاصد العقدية في القصص القرآني (قضايا ونماذج _ أبعاد ودلالات_)** للدكتور: طويل الزايدي. طبع بدار الكتب العلمية س ٢٠٠١م. حيث يتخذ الكاتب من القصص القرآني نموذجًا لبيان المقاصد العقدية، المستنبطة منه؛ ليظهر الدلالات والأبعاد التي تحملها وتدعو إليها.

مما سبق؛ فإن الرسائل السابقة هي دراسات تأصيلية مجملة لمقاصد العقيدة الإسلامية من خلال آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. ومن خلال البحث في كتب عن المقاصد العقدية لم يتبين أنه قد كتب في عنوان رسالتي التي تختلف عن غيرها من الدراسات السابقة؛ كونها دراسة تفصيلية، ولأنها ستتناول بالدراسة: المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. فهي دراسة تأصيلية جزئية من خلال علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصرين.

ج. بالمملكة العربية السعودية.

١١. **المقاصد العقدية للإيمان بالملائكة والكتب والرسل من خلال «تفسير التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور.** رسالة ماجستير في العقيدة، للطالبة: نسيلة بنت أحمد سالم عسيري، بإشراف الأستاذ الدكتور: صالح نعمان. للسنة الجامعية ١٤٣٩-١٤٤٠ هـ. وقد تضمن بحثها فصلاً تمهيديًا فيه الترجمة لابن عاشور، والتعريف بتفسيره موضوع البحث. ثم ثلاثة فصول رئيسية، وفي الفصل الأول تناولت مقاصد الإيمان بالملائكة في «تفسير التحرير والتنوير» وذلك في ستة مباحث، وفي الفصل الثاني تناولت مقاصد الإيمان بالكتب في «تفسير التحرير والتنوير» وذلك في سبعة مباحث، وفي الفصل الثالث تناولت مقاصد الإيمان بالرسل في «تفسير التحرير والتنوير» وذلك في سبعة مباحث.

وقد تحصّلت على نسخة من هذا البحث عن طريق الباحثة، ويتبين الفرق بين الدراستين من خلال العنوان نفسه، **فتعتبر الدراستين مكملة لبعضهما البعض؛ إذ تشتملان على بيان مقاصد أركان الإيمان من خلال تفسير التحرير والتنوير.**

---

(١) مقالة عن أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، إعداد أميمة هموري، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-المغرب، ٢٠٠١-٢٠٠٢م، عنوان المقالة: مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة عند الإمام فخر الدين الرازي. موقع الملتقى الفقهي.

ومن خلال العرض لهذه الدراسات السابقة يمكنني تسليط الضوء من خلال عرض بعض الملامح:

١. اتحاد الفكرة بين دراستي والدراسات السابقة، فالموضوع الرئيسي هو تبيان المقاصد العقدية.

٢. غالب الرسائل تتناول تبيان المقاصد العقدية عند علم معين من خلال جميع مؤلفاته، كدراسة مقاصد العقيدة الإسلامية عند الحكيم الترمذي، ودراسة مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي، فهي دراسات عامة.

أما نقاط الاختلاف، وجديد هذه الدراسة:

١. الكشف عن مقاصد الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر من خلال «تفسير التحرير والتنوير». فهي مخصصة لما عُمّم، ومفصّلة لما أجمل، ومكملةً لما نقص في الدراسات السابقة.

٢. عرض نماذج وأمثلة من المقاصد العقدية التي تناولها ابن عاشور في تفسيره؛ لبيان اهتمامه بالمقاصد أولاً، وليستفيد منها أهل العلم في عصرنا الحاضر.

٣. إضافة للفروق التي ذكرتها بعد عرضي لتلك الدراسات السابقة.

✍ سادسًا- منهج البحث:

أ. لما كانت الدراسة الأكاديمية والأبحاث العلمية تعتمد حتمًا على منهج يسير الباحث في ظله، فإني اعتمدتُ على المنهجين التاليين:

١. منهج الاستقراء، فاستقرأت آيات الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، وما يتعلق بها من كتاب: «التحرير والتنوير».

٢. ومن ثم منهج الاستنباط؛ فاستنبطت المقاصد العقدية من خلال «تفسير التحرير والتنوير».

ب. الإجراءات المنهجية كما يلي:

٣. عزوت الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها من السور القرآنية، بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٤. خرّجت ما ورد في البحث من أحاديث الرسول ﷺ من مظانها.

٥. ترجمت للأعلام غير المشهورين، والذين لهم أثر في الحياة التونسية، وورد ذكرهم في البحث عند أول وُرود لهم؛ لأن الترجمة لكل علم يرد يشغل القارئ عن الموضوع الأساس. ومن لم أعثر على ترجمة له، أذكر ذلك في الحاشية بأني لم أقف له على ترجمة، وإني اجتهدت في هذه المسألة.

٦. رجعت إلى بعض المواقع الالكترونية الرسمية عند الحاجة إلى توثيق المعلومات.

٧. اعتمدتّ المكتبة الشاملة إذا كانت النسخة موافقة للمطبوع، وكذلك عند الأخذ من العلماء المعاصرين.

٨. وثقت النصوص، والأقوال من مصادرها بالرجوع إلى أمهات الكتب:

أ. في الإحالات أذكر اسم المؤلف الثلاثي، ثم اسم الكتاب كاملاً، ثم اسم المحقق إن وجد، ثم دار النشر، ومكان النشر إن كان مبينًا، ثم رقم الطبعة وتاريخها، ثم الجزء والصفحة. عند أول ورود للمرجع.

ب. إذا تكرر المرجع اكتفيتُ بذكر لقب المؤلف، ثم اسم الكتاب مختصرًا، ، ثم عبارة مرجع سابق، ورقم الجزء والصفحة. وكذلك إذا كان ذكر الكتاب متتاليًا؛ أقول: المرجع نفسه، رقم الجزء والصفحة.

ت. عند الإحالة لتفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور، أو أي من كتبه، فإني اكتفيتُ بهذه الصيغة: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، رقم الجزء والصفحة. نظرًا لتكرره في البحث.

ث. عند إيراد أقوال ابن عاشور من تفسيره، أو عند الإشارة إليه فإني اكتفيتُ بقول: "ابن عاشور" إلا في بعض المواضع؛ تجنبًا للحشو الذي لا فائدة منه.

ج. عند ترجمتي لابن عاشور موضوع الدراسة اقتصرتُ على الجوانب المهمة في حياته، وبيان ما يكفي لأن يُعرف من هو هذا المفسّر علاّمة المقاصد، فلم أغفل أي جانبٍ من جوانب الترجمة. بل عرّجتُ عليها كلها دون إجمالٍ مُخلّ، أو تفصيلٍ لا يخدم البحث إلا في زيادة عدد صفحاته.

ح. اعتمدت في قراءتي لتفسير «التحرير والتنوير» وكذلك إحالاتي على طبعة دار سحنون التونسية الواقعة في اثني عشر مجلدًا.

خ. في الفصلين الأساسيين – فصل مقاصد الإيمان باليوم الآخر، وفصل مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر– اتبعتُ المنهجية التالية:

أ. جعلتُ كلّ مقصدٍ في مطلب منفصل عن المقاصد الأخرى، فأذكر المقصد أولاً، بأن يكون هو عنوان المطلب.

ب. اقتصرتُ في الحديث عن المقاصد على ما اقتبسته واستنتجته من كلام ابن عاشور، ثم ما يعضّده من كلام غيره من المفسرين إن وجد، وإلا اكتفيتُ بكلام ابن عاشور؛ لجملة من الأسباب:

١. وجدت في تفسير ابن عاشور ما يُغني عن الالتفات إلى غيره، إلا ما يكون للاعتضاد وتقرير المعنى.

٢. أن استخراج المقاصد من تفسير ابن عاشور هو عنوان الدراسة، فالاقتصار على ذلك التزامٌ بموضوع البحث. خاصةً وأن جانب المقاصد العقدية مغفولاً عنه. فالتركيز على المقصد والحديث المستطرد فيه، يثبت المعنى في الذهن، ولا يشتت المتأمل في المقاصد.

٣. الابتعاد عن الحشو والزيادة، وإثقال كاهل البحث بما ليس منه، أو تكرار للمعلومة ومعناها لكن من مراجع متعددة.

ت. في كثير من المواطن في البحث، أوردت قول ابن عاشور دون تعقيب أو تعليق عليه؛ لأني وجدت في مقولاته ما يكفي في البيان، ويغني عن التعليق.

✍ سابعًا- صعوبات واجهت الباحثة أثناء إعداد البحث:

إن كل باحثٍ، وكل خائضٍ غمار علمٍ جديد لا شك تواجهه بعض الصعوبات، وإني واجهتُ صعوباتٍ عدّة، من أبرزها:

أ. صعوبات علمية:

١. قلة المراجع ــ بين يدي ــ التي تترجم لابن عاشور خاصة.

٢. قلة المراجع التي تترجم للأعلام التونسيين عامة. وتشابه الأسماء فيما بينهم.

٣. جدّة موضوع المقاصد العقدية بالنسبة لي. فلم تقع عيني ــ ابتداء الأمر ــ على مرجع يتكلم عن المقاصد العقدية، إلا ما ابتدأه أهل الجزائر في رسائلهم السابقة في جامعة الأمير عبد القادر، بإشراف الأستاذين: صالح نعمان، وعبد الوهاب فرحات. وفيما بعد شققتُ عباب بحر المقاصد بما استنبطته من بين سطور «تفسير التحرير والتنوير»، لابن عاشور. وفيما تضمنته بعض المراجع في ذلك.

ب. صعوبات شخصية:

١. طول فترة اختيار عنوان البحث، والتي دامت عامين دراسيين، قدمت خلالهما أحد عشر عنوانًا إلى أن تمّت الموافقة على هذا العنوان، ولله الحمد.

٢. المرور بعارضٍ صحي لمدة عام كامل، أفقدني التركيز وصفاء الذهن للبحث.

٣. انعدام الاستقرار تمامًا مما يضطرني دائمًا إلى حمل حقائبي وجهازي المحمول ومراجع البحث، والتنقل بها بين الأسفار، فقد كتبت البحث في ست مدن وثلاث قرى، فلا تسل عن شتات الذهن، وقلة الفهم، وضعف الطاقة بعد كل سفرٍ؛ لمكوثي يومًا أو أكثر في تهيئة النفس والمكان.

وبعد، فإن ذكري لهذه الصعوبات ليس إلا وقودا لهمم أولئك الذين لا زالوا على طريق الطلب، والتماس عذر ممن وجد في بحثي نقصًا أو خطأً.

✍ ثامنًا- خطة البحث:

لقد ضمّنت بحثي خطةً مشتملةً على: مقدمة، وفصل تمهيدي وفصلين أساسيين، وخاتمة.

ففي **الفصل التمهيدي** جعلت الحديث عن ابن عاشور في ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول تطرقت للتعريف بابن عاشور، وبينت عصره، وبيئته التي نشأ فيها. وحياته ومذهبه الفكري، ومكانته العلمية. وذلك في ثلاثة مطالب.

وفي المبحث الثاني: عرفتُ بتفسير «التحرير والتنوير» محل الدراسة، وتحدثت عن طبيعة هذا التفسير، ومكانته ومحاوره، ومنهج ابن عاشور في تفسيره. وذلك في ثلاثة مطالب. وأما المبحث الثالث: فتناولت مقاصد العقيدة الإسلامية بالتعريف، وأقسامها العامة والخاصة والجزئية، وأهميتها والعلاقة بينها وبين مقاصد الشريعة. ومنهج ابن عاشور في الكشف عن هذه المقاصد وإثباتها.

وأما **الفصل الأول** فتناولت فيه مقاصد الإيمان باليوم الآخر العامة والخاصة في تفسير التحرير والتنوير، وذلك في سبعة مباحث: تحدثت في المبحث الأول عن مقتضيات الإيمان باليوم الآخر. وفي المبحث الثاني عن المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر. ثم فصلتُ الحديث في باقي المباحث عن المقاصد الجزئية للإيمان باليوم الآخر، ففي المبحث الثالث كان الحديث عن المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ. وفي المبحث الرابع عن المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة. وفي المبحث الخامس تناولت المقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به. وفي المبحث السادس تحدثت المقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء. وتناولتُ في المبحث السابع المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما.

وفي **الفصل الثاني** والأخير تناولتُ مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر العامة والخاصة في تفسير التحرير والتنوير، وذلك في خمسة مباحث: تحدثت في المبحث الأول عن مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر. وفي المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر. ثم فصلت الحديث في باقي المباحث عن المقاصد الجزئية للإيمان بالقضاء والقدر. ففي المبحث الثالث تحدثت عن مقصد معرفة الله وتوحيده. وفي المبحث الرابع تحدثت عن مقصد التوكل على الله. وفي المبحث الخامس تناولت مقصد الصبر.

وعليه تكون خطة البحث على النحو التالي:

الفصل التمهيدي

التعريف بالطاهر بن عاشور ومقاصد العقيدة الإسلامية.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالطاهر بن عاشور. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عصره وبيئته.

المطلب الثاني: حياته.

المطلب الثالث: مذهبه الفكري ومكانته العلمية.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير «التحرير والتنوير». وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مدرسته ومكانته بين التفاسير.

المطلب الثاني: محاوره.

المطلب الثالث: منهج التفسير.

المبحث الثالث: مقاصد العقيدة الإسلامية في تفسير الطاهر بن عاشور. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف مقاصد العقيدة الإسلامية، وأقسامها (العامة، والخاصة، والجزئية).

المطلب الثاني: منهج ابن عاشور في الكشف عن المقاصد العقدية وإثباتها.

المطلب الثالث: العلاقة بين مقاصد الشريعة، ومقاصد العقيدة.

الفصل الأول

مقاصد الإيمان باليوم الآخر في تفسير التحرير والتنوير.

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: مقتضيات الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثالث: المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ.

المبحث الرابع: المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة.

المبحث الخامس: المقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به.

المبحث السادس: المقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء.

المبحث السابع: المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما.

الفصل الثاني

مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر في تفسير التحرير والتنوير.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثالث: مقصد معرفة الله وتوحيده.

المبحث الرابع: مقصد التوكل على الله.

المبحث الخامس: مقصد الصبر.

الخاتمة

وفيها النتائج والتوصيات

الفهارس

وتشمل:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية.

فهرس الأعلام.

فهرس الفرق والطوائف والقبائل.

فهرس الأماكن والبلدان.

فهرس الكلمات الغريبة.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

الفصلُ التمهيدي
التعريف بالطاهر بن عاشور ومقاصد العقيدة الإسلامية

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالطاهر بن عاشور.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير «التحرير والتنوير».

المبحث الثالث: مقاصد العقيدة الإسلامية في تفسير الطاهر بن عاشور.

المبحث الأول
التعريف بالطاهر بن عاشور

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عصره وبيئته.

المطلب الثاني: حياته.

المطلب الثالث: مذهبه الفكري ومكانته العلمية.

المطلب الأول

عصره وبيئته

كان العالم الإسلامي في عصر الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور دويلات وأقسامًا، لكل دولة أميرها، ولكل أمير عصبيته، وكانت الأوضاع متدهورة؛ إذ كان يسود العالم الإسلامي آنذاك فساد النظام واستبداد الحكام، والدول الغربية كانت تخطط للقضاء على العرب والإسلام من خلال الاحتلال. وصار فهم المسلم للإسلام منحرفًا حتى شمل الانحراف جميع جوانب الشخصية والمعيشة، فشمل العقيدة والعبادة والسلوك. أما الحياة العلمية في البلاد الإسلامية فقد بعدت عن اللُبّ وأصبحت قشورًا، منغلقة على نفسها، لا ابتكارات ولا شيء من علوم العصر، حتى تجمّدت العقول، وتبلّدت الأفهام، وانتشر الجهل وتفشى.

ولم تكن تونس بمنأى عما كان يجري في العالم الإسلامي حينئذٍ، فقد كان عصر ابن عاشور عصر فتن واضطراب، عمّت الفوضى في مجتمعه، واحتُلّت أرضه من قبل الفرنسيين ، وتدهور الاقتصاد حتى أثقلت التونسيين الضرائب، وأرهقتهم أطماع الغزاة المحتلين. إلا أن بعض الشباب الحي قد نهض للدعوة الإصلاحية، نهضة شاملة: اجتماعية وسياسية، زلزلت الأرض من تحت أقدام المحتلين أو كادت. فعرفت البلاد التونسية من رواد النهضة والإصلاح بها عددًا من شيوخ الزيتونة وعلمائها، من رجال السياسة وأعضاء الحكومة، وخيرة من رجال الإصلاح(١) .

ففي سنة ١٨٨١م سقطت البلاد التونسية التي كانت تابعة للخلافة العثمانية منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، تحت سيطرة فرنسا التي امتدّت امبراطوريتها من قبل ذلك التاريخ إلى الجزائر المجاورة. واضطرّ بايات تونس الذين كانوا يتمتعون باستقلالية واسعة النطاق، إلى تسليم الإدارة الفعلية للبلاد إلى ممثلي الجمهورية الفرنسية بتونس، ولكن النتائج التي أسفر عنها ذلك المجهود كانت معاكسة تمامًا لما كان ينشده المحتلّ من غايات(٢) .

---

(١) محمّد الحبيب ابن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: محمّد الطاهر بن عاشور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية_ قطر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م، ج١/٢٤-٢٦. د.بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمّد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، دار ابن بيروت_ لبنان، الطبعة الأولى، ص١٧ وما بعدها.

(٢) أحمد القصّاب، تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١_١٩٥٦م)، تعريب: حمّادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى، ص٧.

ويمكن توضيح ملامح عصره وبيئته في المحاور التالية:

أولاً- البيئة السياسية والاقتصادية(١):

تميّز القرن التاسع عشر في البلاد التّونسيّة بالتكالب على الحكم وكثرة الانقلابات والاغتيالات. فلقد مكنت الهيمنة السياسية الفرنسية من تنظيم عمل احتلالي متنوّع الأوجه، فمن تنصيب أسر فرنسية على الأراضي المنتزعة من التونسيين، إلى استغلال موارد البلاد لصالح الشركات الرأسمالية، إلى استيلاء المؤسسات التجارية الفرنسية على السوق التونسية، إلى غير ذلك.

أما الذي كان كارثة بالنسبة إلى البلاد التونسية فهو تغير ظروف التبادل الاقتصادي مع أوروبا، وهو تغير فرضته سياسة المدفعية ثم مجرد الاتصال المباشر بين الرأسمالية الغازية وعملائها والمجتمع التقليدي. وذلك من خلال:

١. انحطاط قيمة المنتجات التي تصدرها البلاد التونسية (من حبوب وزيوت وغيرها). وعلى إثره تمّ شيئًا فشيئًا انتقال تجارة التصدير، وبالتالي مرابيحها إلى أيدي التجار الأوروبيين.

٢. كما حصل تضخم في الواردات وكان هؤلاء التجار ينفردون باستجلابها.

٣. مما أدى إلى خلل مهم في المجال التجاري، ونزيف نقدي، وتخفيض في العملة المحلية وصعوبات كانت تعاني منها خزينة البايلك والطبقات المسيرة. وكان هذا قبل سنة ١٨٣٠م.

٤. النشاط الاحتلالي تطور وتدعم في غضون الثلاثينات، وفي الوقت ذاته الذي تسارع فيه نسق التحول داخل المجتمع المحلي تحت تأثير عامل الاحتلال ووقع العالم العصري.

٥. وفي الوقت نفسه قامت الأزمة الاقتصادية العالمية التي ظهرت انعكاساتها على البلاد التونسية منذ سنة ١٩٣١م فانخفضت أسعار المواد الأولية (من قمح وشعير وزيت وصوف ...) ومست صغار الفلاحين الذين يبيعون تلك المواد مسّا بالغًا.

٦. كما تميّزت تلك الفترة بكثرة الاختلاسات (السرقات)، كما كانت تعرف سياسة مصطفى

---

(١) أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر، ص٧. ومحمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، ومحمد عجينة، دار سراس للنشر- تونس، الطبعة الثالثة، ص٩٧ وما بعدها. عباس أرحيلة، (حركات الإصلاح في العالم الإسلامي)، مجلة المنهل - السعودية، العدد ٥٢٨، العام [٢١]،شعبان ١٤١٦هـ/ ديسمبر ١٩٩٥م، ص٢٢ -٣١.

خزندار[(١)] الّذي تولّى منصب وزير ماليّة ووزير أكبر بين ١٨٣٧م و ١٨٧٣م بسوء التصرّف واختلاس الأموال.

كما كانت ميزانيّة البلاد التّونسيّة في عجز تام، وسرعان ما اتّبعت تونس سياسة الاقتراض من الدّول الأوروبيّة، فأصبحت تأخذ القرض لتسدّد به قرضًا آخر إلى أن أصبحت عاجزة تمامًا عن تسديد الدّيون، فسارع ذلك بالبايلك إلى هاوية الإفلاس، فوضعت أمواله تحت وصاية اللجنة المالية العالمية؛ للضغط على المصاريف وضمان استرداد أموالها.

وانصرفت جهود المصلحين إلى معالجة نظام الحكم ووضع تصورات لعلاقة الحاكمين بالمحكومين؛ وذلك بتنظيم الحكومات وتوفير المجالس النيابية والحرية السياسية مع التثبت بالوحدة الإسلامية قصد مقاومة الغزو الأوربي، وتم نشر أفكار الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية والدستور. وكانت الحركات الإصلاحية تقوم بدور تشريح الأوضاع الداخلية في العالم الإسلامي، وتُنبّه إلى الأخطار المحدقة بالمشرق عمومًا وتدعو إلى تحريره من السيطرة الأوربية، والتمسك بالخلافة الإسلامية ممثلَةً في الخلافة العثمانية.

ثانيًا- البيئة الاجتماعية والثقافية[(٢)]:

كان المناخ الاجتماعي يتدهور تدهورًا مستمرًا من جراء سياسة التضخّم المالي المتبّعة في فرنسا، وقد كانت عملية الاغتصاب الاقتصادي تستند إلى مجهود يرمي إلى تحقيق الاستلاب الثقافي، وإضعاف الشخصية التونسية، وما نتج عن ذلك من غلاء في المعيشة، فتعددت الاضطرابات والمشادّات الدامية، وأخذ صبر الجماهير الشعبية ينفد شيئًا فشيئًا. فدعا المصلحون إلى العناية بالفرد والجماعة وذلك بتحقيق الكفالة والعدالة الاجتماعييْن، وطالبوا بالحريات العامة مثل حرية التفكير والاجتماع، ودعوا إلى خلق التجانس والتماسك الإسلامي وإحلال قيم اجتماعية جديدة ومحاربة أسباب التخلف ومشكلة الغنى والفقر بأساليب مختلفة. كما عُني المصلحون كذلك بقضايا التعليم بصفة خاصة في مشروعهم الإصلاحي، وعرف الشرق طفرة في مجالات المعرفة ما تزال آثارها بارزة في حياتنا اليوم.

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن ذلك الوعي القومي التونسي لم يصبح واضحًا وعمليًا تمامًا إلا في أذهان النخبة الاجتماعية أو الثقافية، أو في أذهان أولئك الذين يرتبطون على نحو أو غيره بالعالم الحديث. أما

---

(١) خزندار: أمين الصندوق. رينهارت بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، ١٩٧٩ – ٢٠٠٠م، ج٤/٨٩.

(٢) أحمد القصّاب، تاريخ تونس المعاصر، مرجع سابق، ص٧. و محمَّد الشريف، تاريخ تونس، مرجع سابق ص٩٧وما بعدها. عباس أرحيلة، (حركات الإصلاح في العالم الإسلامي)، مرجع سابق، ص٢٢-٣١.

على مستوى الجماهير الشعبية والمتعلمين ذوي التكوين التقليدي فإن فكرة الأمة العربية الإسلامية بقيت حيّة. وكان الكفاح السياسي يصطبغ في كثير من الأحيان بصبغة الجهاد الديني، وهكذا تعايش أو اختلط في صلب الحركة الوطنية التونسية مجالان أو طبقتان من طبقات الوعي هما مفهوم الأمة التونسية بالمعنى الضيق، ومفهوم الأمة الإسلامية بالمفهوم الواسع.

ثالثًا- البيئة الدينية والتعليمية ومحاولة الإصلاح [(١)]:

دخلت السياسة والاتجاه الثقافي في تونس في منزلق خطير. فالسياسة هي تدبيج مطاليب كلها استعطاف ومدائح لرسالة التحضير الفرنسية في تونس، والسعيد السعيد من درس الفرنسية فتمكّن من كتابتها كتابة سليمة، كأن ذلك اعترافًا ضمنيًا بعلوّ الفرنسي، واقتناعًا بسياسة التمييز التي درج عليها الاحتلال.

ففي سنة ١٩٠٧م ظهرت جريدة "التونسي" وهي أول جريدة تونسية تصدر باللغة الفرنسية. جاء في افتتاحيتها الأولى التي وقعها علي باش حمبه [(٢)] ما يلي: "لقد بدأ عمل فرنسا التمديني يأتي أُكله في تونس، فهنالك جيل جديد تثقف باللغة الفرنسية وانطبع بأفكارها الكريمة، بدأ اليوم يأخذ مكانه في التجديد القائم، وإيمانًا بهذا الهدف ينشئ جريدة التونسي" [(٣)].

يقول سامي الجندي: "كنت ألاحظ انفصامًا في التعبير عند العامة خاصة في مدينة تونس، فالفرنسية لديهم هي لغة العمل، أداة التأقلم مع الواقع لا تبيح لهم نقل عواطفهم العفوية، والعربية كأنها لغة

---

(١) عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، ترجمة: سامي الجندي، دار القدس، الطبعة الأولى، ص١٠وما بعدها. ومُحَمَّد الشريف، تاريخ تونس، مرجع سابق، ص٩٧وما بعدها. أحمد القصّاب، تاريخ تونس المعاصر، مرجع سابق، ص٢٩١ وما بعدها. عباس أرحيلة، (حركات الإصلاح في العالم الإسلامي)، مرجع سابق، ص٢٢-٣١.

(٢) علي بن مصطفى بن علي الشريف باش حمبه، ولد سنة ١٢٩٦هـ_١٨٧٩م، في تونس، تركي الأصل، تعلم في جامع الزيتونة، ودرس الحقوق بباريس. وعاد محاميا، وألف حزب " تونس الفتاة سنة ١٩٠٧ م متأثرًا بفكرة حزب " تركيا الفتاة " وعمل على توحيد المغرب العربيّ في الكفاح. وأجاد عدة لغات. وأصدر صحفًا أولها " التونسي " بالعربية والفرنسية (سنة ١٩٠٧ م) واحتلت إيطاليا طرابلس الغرب (سنة ١٩١١ م) فاصطدم أهل تونس بمن كان فيها من الإيطاليين، فاعتقله الفرنسيون، ونفوه من البلاد، فتوجه إلى الآستانة ودخل في الوظائف الحكومية بها، وظل على اتصال بالحركة الاستقلالية ورجالها في تونس إلى أن توفي بالآستانة ونقل رفاته إلى تونس في ١٣٣٦هـ_١٩٦٢م. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ج٥/٢٢.

(٣) مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، الطبعة الثانية ١٩٩٤م، ج١/٢١٤.

احتياطية، فبقي جزء من الشخصية ممتنعًا على التعبير. كنت ألمس لديهم نوعًا من التغلب على الشعور بالضعف عندما يتكلمون الفرنسية، هو من آثار التمييز العنصري الاستعماري. لكن الشوق إلى كل ما هو عربي يغمر في النهاية ما كان زبدًا جفاء. وفي القيروان لمحتُ في عيني طفل صغير السن وهو يحدثني بالفرنسية، حتى إذا كلمته بلغتي تبدّلت وقفته فاستقام وعادت شفته السفلى التي تدلت هزءاً إلى طبيعتها، وأكد لي أنه يحب العربية ويحضر الأفلام المصرية"(١).

وفي أواخر سنة ١٩٣٢م بدأت الحوادث المنجرّة عن مسألة التجنيس؛ إذ اعتبر الشعب كل من يتجنس مارقًا كافرًا وليس له الحق في أن يُدفن في المقابر الإسلامية، فتعددت الحوادث العنيفة والموحشة كلما مات مسلم متجنس. أما السلطات الفرنسية فحصلت من أكبر السلطات الدينية بتونس على فتوى يمكن للمرء بمقتضاها أن يتجنس دون أن يكون قد تخلى عن عقيدته الإسلامية، وتدخلت الصحافة الوطنية فشنّت حملة عنيفة حول مسألة التجنيس، وجعلت مستوى الحوار يرتفع إلى مناقشة بقاء الأمة أو تلاشيها، وبرز رجال همّهم أن يفتحوا آفاقًا جديدة للحركة الشعبية وأن يعطوا الحركة الوطنية(٢).

كما ألحّ الاحتلال إلحاحًا غريبًا مريبًا في المغرب العربي كله على استئصال شأفة اللغة ومن لم يعش في تلك الدار لا يدرك مدى تلك المعركة وعمقها وضراوتها. معركة ما زالت مستشرية حتى الساعة، وقد تنقضي سنون طويلة قبل أن تنجلي عن نصر اللغة العربية وبقائها. والخطير فيها أن كثيرين اقتنعوا بجدوى اللغة الفرنسية دون جدوى اللغة العربية. ولا غرو في أنه إن ضعفت اللغة فإن الدِّين يضعف، فما الدِّينُ إلا العروبة، ولا التدين إلا حنين للملأ الذي امتزج به الإسلام بإعجاز القرآن.

ورغم كل شيء نجم عن الدعوة الهادئة التعليمية وعن الظروف الشاقة والمذلة التي كانت تعيشها تونس نوع من التجمع الشعبي كان مركزه الزيتونة والصادقية، وأخذ طلابهما يجهرون بضرورة إجراء إصلاحات في مناهج وطرق التعليم فيهما وخاصة جامعة الزيتونة.

ومن هنا أخذت تتحول الحركة الفكرية التي وضعت لنفسها حدودًا لا تتجاوزها هي حدود المطاليب إلى حركة سياسية، ولو أنها تلحّ على الحوار لا على الصدام فقد كانت تخشى ضربة استعمارية تكسر العجلة قبل أن تصبح قادرة على السير.

وفعلاً هذا ما حصل ففي ٩ شباط ١٩١٢م دهست عربة تراموي يقودها إيطالي طفلاً تونسيًا في باب سعدون، فقاطع الناس الشركة، وألفوا لجنة قيادة على رأسها علي باش حانبة(٣)، وأضربت المدينة.

---

(١) الثعالبي، تونس الشهيدة، مرجع سابق، ص٢٣-٢٤.

(٢) محمد الشريف، تاريخ تونس، مرجع سابق، ص١١٩.

(٣) يجمع على حوانب. يطلق هذا الاسم في تونس على فرسان العرب يختص بهم الباي ويقومون بنفس العمل الذي =

فعمدت السلطة إلى الضرب بقوة؛ لأن الإضراب تحوّل إلى حركة شعبية أول مطالبيها المساواة بالأجور بين العامل التونسي والعامل الأجنبي، شيء كانت ترفضه الإدارة الاحتلالية رفضًا قاطعًا. وعلى إثر ذلك أغلقت الحكومة الصحف التونسية، والمقاهي الشعبية، فقد أصبحت هذه بؤر تجمع سياسية، ونفت إلى فرنسا علي باش حانبة ومن معه من القيادات.

وقد حاولت الحركات الإصلاحية أن تعمل على بعث الحقيقة الإسلامية، وذلك بتنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات، والعودة به إلى منابعه الأولى. فكان رفض الجمود والتقليد وفتح باب الاجتهاد، وتم تفسير الدين تفسيرًا جديدًا يتلاءم مع حاجات العصر الحديث، مع الحفاظ على الهوية الإسلامية وإثبات وجودها الحضاري.

وكانت سنة ١٩٤٥م فاتحة عهد جديد في العالم كما في تونس، عهد يتميز بتطوّر سياسي أكثر سرعة في اتجاه تقهقر العالم الأوروبي القديم وامبرياليته الاحتلالية، فقد أعلن بكل خشوع عن مبادئ جديدة منها: حق الشعوب في تقرير مصيرها، واحترام حقوق الإنسان، فاعتنق الوطنيون في كل البلدان المحتلة هذه المبادئ للدفاع عن قضاياهم، وللمطالبة بالاستقلال. وكانت البلاد التونسية تبدو مؤهلة لذلك، جديرة به من بين جملة البلدان المحتلة والطامحة إلى استقلالها؛ نظرًا لتجذر الشعور الوطني، ولتعبئة قطاعات واسعة من المجتمع بفضل ذلك الشعور، وبمجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية [(١)].

= يقوم به الدرك (الجندرمة) في أوروبا. رينهارت دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، مرجع سابق، ج٣/١٢.

(١) خليفة الشاطر ونخبة من الأساتذة الجامعيين، تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية – تونس، ٢٠٠٥، ج٣/١١٧.

المطلب الثاني
حياته

أولاً- نسبه وأسرته:

- نسبه:

هو الشيخ الإمام مُحَّد الطاهر بن مُحَّد بن مُحَّد الطاهر بن مُحَّد بن مُحَّد الشاذلي بن عبد القادر بن مُحَّد بن عاشور. وأمه: فاطمة بنت الشيخ الوزير مُحَّد العزيز بن مُحَّد الحبيب بن مُحَّد الطيب بن مُحَّد بو عتور[(١)].

- أسرته:

الأسرة العاشورية أسرة أندلسية الأصل، يعود أصلها الأول إلى مُحَّد بن عاشور الذي ولد بمدينة (سلا) بالمغرب الأقصى بعد خروج والده من الأندلس فارًّا بدينه من القهر والتنصير.

واختص أفراد هذه الأسرة ببروزهم في الأنشطة العلمية والدينية من خلال التدريس والإشراف على المساجد. ولعلّ من أبرز أولئك هو جدّ مُتَرجَمنا الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور (الجد) المولود سنة ١٢٣٠هـ، والذي تقلّد مناصب مهمّة كالقضاء والتدريس والإفتاء، والإشراف على الأوقاف الخيرية، والعضوية بمجلس الشورى، كما أن له مؤلفات كثيرة كحاشية على القطر، وشرح على بردة البصيري، وحاشية على المحلّى على جمع الجوامع، وحاشية على ابن سعيد على الأشموني، وحاشية على شرح العصام لرسالة البيان، وتعليقه على ما أقرأه من صحيح مسلم.

وأما والده فقد برز في ميدان المسؤوليات الوظيفية فتولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف.

وقد تدعّمت الصلة بين الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور (الجدّ) وتلميذه مُحَّد العزيز بو عتور الوزير[(٢)]، نتج عن هذه الصلة زيجة شرعية لابنة الثاني على ابن الأول. فهكذا يبدو كيف توثقت عرى صلة الأسرة العاشورية بالعائلات التونسية، لما بدا فيهما من نبوغ وأخلاق كريمة، وجِدّ في طلب العلم، وميل إلى الإصلاح والتجديد[(٣)].

---

(١) ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/١٥٣.

(٢) ستأتي ترجمته عند ذكر شيوخه، في المطلب نفسه.

(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٥-٣٦. مُحَّد بن سعد بن عبدالله القرني، =

ثانيًا- ولادته ونشأته ووفاته:

أ. ولادته:

ولد الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور سنة ١٢٩٦هـ _ ١٨٧٩م في قصر جده لأمه الشيخ مُحَّد العزيز بو عتور ، بضاحية المرسى، وهي ضاحية جميلة من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عشرين كيلو مترًا عن مدينة تونس (١) .

ب. نشأته:

نشأ الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور في رحاب العلم والجاه، في بيئة علمية خالصة، في محضن غرس القيم التربوية، وأكمل الصفات الدينية، فقد كان له منذ نشأته رعاية خاصة من والده مُحَّد الذي كان رئيسًا لجمعية الأوقاف، ومن جده للأم الوزير العالم مُحَّد العزيز بو عتور، إذ كانت الصلة بين الجد الوزير العالم والحفيد النجيب الفطن تزداد متانةً مع مرور الأيام.

وتعزيزًا لعناصر تكوينه الأسري تلك، أقبل الفتى على حفظ القرآن الكريم في سن السادسة من عمره، على يد المقرئ الشيخ: مُحَّد الخياري، بمسجد أبي حديد المجاور لبيتهم بنهج الباشا بتونس. ثم حفظ مجموعة من المتون العلمية، كابن عاشر في الفقه المالكي، والرسالة، والقطر، ومتن الآجرومية في النحو (٢) .

وقد نقد الشيخ هذه المرحلة العلمية من حياته فقال: "إني على يقين أنني لو أتيح لي في فجر الشباب التشبع من قواعد نظام التعليم والتوجيه لاقتصدت كثيرًا من مواهبي، ولاكتسبتُ جمًّا من المعرفة، ولسلمتُ من التطوح في طرائق تبين لي بعد حين الارتداد عنها، مع أني أشكر ما منحت به من إرشاد قيّم من الوالد والجد ونصحاء الأساتذة، ولا غنى عن الاستزادة من الخير" (٣) .

= الإمام مُحَّد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير التنوير، إشراف: د. مُحَّد ولد سيدي ولد حبيب، رسالة ماجستير جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ ، ص ٩-١٠. مُحَّد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام مُحَّد الخضر حسين، اعتنى به: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا-لبنان-الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ_٢٠١٠م، م٢٠، ج١١/١٣٥.

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٧.

(٢) ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/ ١٥٤. الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣) مُحَّد الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة للنشر والتوزيع والترجمة، مؤسسة دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ_٢٠٠٦م، ص١١.

وتلقى الشيخ المبادئ الأولى في قواعد العربية على الشيخ أحمد بن بدر الكافي، اعتمادًا على شرح سيدي خالد الأزهري[(١)] .

ثم في سنة ١٣١٠هـ بعد أن صار عمره أربعة عشر عامًا التحق بجامع الزيتونة لطلب العلم، وكانت العلوم التي تدرس في هذا المعهد الديني متنوعة بين علوم المقاصد وعلوم الآلة، فدرس النحو والصرف والبلاغة والمنطق من جهة، وعلوم المقاصد كتفسير القرآن والقراءات، والحديث ومصطلح الحديث، والكلام والفقه وأصوله والفرائض من جهة أخرى. ومما تميز به ابن عاشور على أقرانه هو تعلمه الفرنسية؛ إذ شملت هذا الطالب المتفوق رعاية جده الوزير له وإقباله عليه، وكريم توجيهه.

ومن كان بمثل نباهة الشيخ وإقباله على العلم والتعلم فلا غرو أن يحصل على شهادة التطويع، فقد حصل عليها ابن عاشور في ربيع الأول ١٣١٧هـ ، ثم عاد إلى حضور دروس شيخه مُحَمَّد النخلي، فقرأ عليه «الوسطى في العقيدة»، وكتاب «المحلى على جمع الجوامع» في أصول الفقه، و«المطوّل» في البلاغة، و«الأشموني» في النحو، وكان ذلك سنة ١٤١٨هـ بتقييد الشيخ مُحَمَّد النخلي. كما حضر صحبة صديقه الشيخ مُحَمَّد الخضر حسين[(٢)] درس الأستاذ: الشيخ عمر ابن الشيخ في «تفسير البيضاوي». ودرس الأستاذ الشيخ: مُحَمَّد النجار، لكتاب «المواقف»، ودرس الشيخ سالم لكتابيّ «البخاري» و«الموطأ» بشرحيهما[(٣)] .

وهذا يعني أن البيئة الأسرية والمجتمعية التي عاشها الطاهر بن عاشور قد أسهمت في بناء شخصيته الفذّة، وتكوين ملامحه الإبداعية.

ج. وفاته:

توفي الشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور في يوم الأحد الثالث عشر من رجب سنة ١٣٩٣هـ ، الموافق

---

(١) خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد الجرجاوي الأزهري، زين الدين، وكان يعرف بالوقاد، نحوي من أهل مصر، ولد بجرجا (من الصعيد) سنة ٨٣٨هـ_١٤٣٤م، ونشأ وعاش في القاهرة، من مؤلفاته: (المقدمة الأزهرية في علم العربية)، و(موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)، و(شرح الآجرومية)، و(شرح البردة)، و(شرح مقدمة الجزرية) في التجويد. توفي عائدا من الحج سنة ٩٠٥هـ_١٤٩٩م. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٢/٢٩٧.

(٢) هو: مُحَمَّد الخضر بن حسين بن علي النفطي المولود سنة ١٢٩٣هـ_١٨٧٦، أحد علماء تونس البارزين المشهورين بتآليفهم العديدة، هاجر تونس واستقر بالمشرق، وقد أسندت له خطة مشيخة الأزهر، من مؤلفاته: (تونس وجامع الزيتونة)، و (الدعوة إلى الإصلاح)، توفي سنة ١٣٧٧هـ_١٢٥٨م. مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٢/١٢٦وما بعدها. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٦/١١٣.

(٣) ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/ ١٥٧ وما بعدها. الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٧. إياد خالد الطبّاع، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م، ص٣٠.

الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٧٣ م، عن عمر يناهز السبع والتسعين سنة [1]، قضاه في علم وتعلم، نذر حياته في سبيل النهل من المعارف، وسكبها في نفوس تلامذته ومن حوله، وما لبث أن صارت للأمة أجمع، فكم من ميت كان يوم وفاته إحياء لذكره، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الأمة الإسلامية خيرًا.

ثالثًا- شيوخه [2]:

تلقّى الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور العلم في شتى المجالات على أيدي أساتذة كبار، وعلماء أجلاء، وهبوا الدين نفوسهم وعقولهم، وفيما يلي عدد من أولئك العلماء البارزين، قد تم ترتيبهم بحسب وفاتهم:

١. الشيخ: مُحَّد صالح الشاهد [3]، قرأ عليه ابن عاشور **الدردير** في الفقه.

٢. الشيخ: عمر بن عاشور [4]، أخذ عنه الشيخ مُحَّد الطاهر بن عاشور: **لامية الأفعال** وشروحها في الصرف، **وتعليق الدماميني على المغني** لابن هشام في النحو، و**مختصر السعد** في البلاغة، و**الدردير** في الفقه، و**الدرّة** في الفرائض.

٣. الشيخ: أحمد جمال الدين [5]، قرأ عليه ابن عاشور **قطر الندى** في النحو، و **الدردير** في الفقه

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠ وما بعدها. ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/ ١٥٥ وما بعدها. الطباع، مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٠ وما بعدها.

(٣) هكذا ذكره الحبيب ابن الخوجة، ولعله يريد أبا عبد الله مُحَّد الذي يسمى (حمده الشاهد)، من كبار علماء تونس، وأخذ عنه عدد كبير من العلماء من بينهم عمر بن الشيخ السالف الذكر، توفي سنة ١٣١١هـ. مُحَّد بن مُحَّد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ج١/٤١٥.

(٤) هو: عمر بن محمد عاشور، كان علاّمة مشاركًا مدرسًا، له المقالة المرضية في بعض أحوال الدرقاوية، وشرح على البردة، وشرح أسماء الله الحسنى، سمّاه: الأذواق العرفانية في الأسماء الإلهية، توفي بالرباط سنة ١٣١٤ هـ. عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: مُحَّد الحجّي، دار الغرب الإسلامي - تونس، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م. ج٨/٢٨٠٩.

(٥) هو: أحمد جمال الدين، فقيه ولد ببني خيار، وتلقى العلم بالزيتونة وتولى التدريس به، وكان من المقربين لدى القصر الملكي والسُلَط الاستعمارية، من مؤلفاته: بلوغ الأرب في مآثر الشيخ الذهب (وهو من بني خيار وأحد شيوخه)، والسراج في معرفة صاحب التاج (رسالة وجيزة في بيان حديث المعراج)، ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته إلا أنه كان حيا سنة ١٣٢٣ هـ. مُحَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٢/ ٥٠-٥١.

المالكي.

٤. الشيخ: محمّد العزيز بو عتور[(١)]، الذي وفّر لحفيده الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور رعاية فائقة، فنسخ له: **متن البخاري**، وجمع له نصوصًا من عيون الأدب وأمهات الكتب.

٥. الشيخ: محمّد النجار[(٢)]، درس عليه الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور كتاب **المكودي على الخلاصة** في النحو، و**مختصر السعد** في البلاغة، و**المواقف** في علم الكلام، و**البيقونيّة** أو **غرامي صحيح** في مصطلح الحديث.

٦. الشيخ: محمّد صالح الشريف[(٣)]، قرأ عليه ابن عاشور كتاب **شرح الشيخ خالد الأزهري**، و**قطر الندى لابن هشام**، و**المكودي على الخلاصة** في النحو، و**السلّم** في المنطق، و**مختصر السعد على العقائد النسفية**، و**التاودي على التحفة** في الفقه.

٧. الشيخ: سالم بو حاجب[(٤)]، قرأ عليه الشيخ محمّد الطاهر بن عاشر **صحيح البخاري** بشرح

---

(١) هو: الشيخ محمّد العزيز بوعتور، ولد سنة ١٢٤٠هـ ، والتحق بجامع الزيتونة سنة ١٢٥٤هـ ، شارك في تأسيس المدرسة الصادقية، وفي تأسيس جمعية الأوقاف، وتدرج في المناصب إلى أن بلغ الوزارة الكبرى بعد مصطفى إسماعيل، توفي سنة١٣٢٥هـ ، وقد ناف عن التسعين. محمّد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج١/٥٩٧. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٦/٢٦٨.

(٢) هو: أبو عبد الله، محمّد بن عثمان النجار، ولد سنة ١٢٥٥هـ _ ١٨٣٩م ، درّس في جامع الزيتونة، له عدة مؤلفات مثل: مجموع الفتاوى، وبغية المشتاق في مسائل الاستحقاق، وشمس الظهيرة في مناقب وفقه أبي هريرة، وتحرير المقال في أحكام رؤية الهلال، توفي سنة ١٣٣١هـ _ ١٩١٣م. محمّد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج١/٥٩٩ وما بعدها. محمّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٥/١٣ وما بعدها. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٦/٢٦٣.

(٣) هو: أبو الفلاح جزائري الأصل، ولد سنة ١٢٨٥هـ ، تخرج على يد علماء بارزين أمثال: عمر ابن الشيخ، وسالم بو حاجب، ومحمّد النجار، وانتصب للتدريس في الجامع الأعظم بعد حصوله على شهادة التطويع سنة ١٣٠٤هـ ، وفي سنة ١٣١٦ شارك في لجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة الأعظم، توفي سنة ١٣٣٨هـ_١٩١٩م. محمّد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج١/٦٠٤.

(٤) هو: سالم بن عمر بو حاجب، فقيه لغوي أديب شاعر، ولد سنة ١٢٤٣هـ_ ١٨٢٧م، تولى التدريس بجامع الزيتونة، ثم الفتيا سنة ١٣٢٣هـ، ثم عين كبيرًا لأهل الشورى المالكية، له: شرح على ألفية ابن عاصم في الأصول، وديوان خُطب ورسائل، وتقريرات على البخاري، توفي سنة ١٣٤٢هـ_١٩٢٤م. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٣/٧١. محمّد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج١/٦٠٥. محمّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع =

القسطلاني، و**الموطأ** بشرح الشيخ الزرقاني قراءة تحقيق.

٨. الشيخ: مُحَمَّد النّخْلي[(١)]، قرأ عليه ابن عاشور **قطر الندى**، و**المكودي على الخلاصة**، و**مقدمة الإعراب** في النحو، و**مختصر السعد** في البلاغة، و**التهذيب** في المنطق. وتخرج به في أصول الفقه بدراسة **الحطاب على الورقات**، و**التنقيح** للقرافي، وفي الفقه المالكي بكتاب **ميارة على المرشد**، و**كفاية الطالب على الرسالة**.

٩. الشيخ: مُحَمَّد الخياري[(٢)]، مقرئ، قرأ عليه ابن عاشور في مسجد أبي حديد القرآن الكريم، وحفظه على يديه، وكان قد توجه إليه في أول أمره، ويقع مسجده مجاورًا لبيتهم بنهمج الباشا بمدينة تونس.

١٠. الشيخ: عبد القادر التميمي[(٣)]، تخرج عليه ابن عاشور في تجويد القرآن الكريم، وعلم القراءات، وبخاصة في رواية قالون.

١١. الشيخ: أحمد بن بدر الكافي[(٤)]، تلقى عليه ابن عاشور المبادئ الأولى في قواعد العربية، اعتمادًا على شرح خالد الأزهري.

١٢. الشيخ: مُحَمَّد طاهر جعفر[(٥)]، قرأ عليه ابن عاشور **شرح المحلّي على جمع الجوامع** في أصول الفقه، و**الشهاب الخفاجي على الشفاء للقاضي عياض** في السيرة النبوية.

١٣. الشيخ: مُحَمَّد العربي الدُّرعي[(٦)]، قرأ عليه ابن عاشور **كفاية الطالب على الرسالة** في الفقه.

وبعد؛ فهؤلاء عدد مميز من العلماء البارزين الذين تتلمذ عليهم ابن عاشور، وغيرهم كثير ممن حواهم

= سابق، ج٢/٧٧ وما بعدها.

(١) هو: أصيل القيروان، ولد سنة ١٢٨٦هـ_١٨٦٩م، كان عضوًا في الجمعية الزيتونية، وهو من أشهر علماء جامع الزيتونة الذين برعوا في العلوم النقلية والعقلية، له ألفيّة في الجغرافيا، و(رسالة في الفقه المالكي)، و (رسالة في المرأة المسلمة)، توفي بتونس سنة ١٣٤٢ هـ. مُحَمَّد مخلوف، شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج١/ ص٦٠٥. مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٥/٢٦.

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) لم أقف له على ترجمة.

(٤) لم أقف له على ترجمة.

(٥) لم أقف له على ترجمة.

(٦) لم أقف له على ترجمة.

جامع الزيتونة الأعظم. وإن المتأمل في شخصية ابن عاشور ليدرك عظمة من علّمه ومن تتلمذ على يديه؛ نظرًا لكثرة عددهم، وتنوع تخصصاتهم، ولما لهم من أثر بالغ عليه ظهر لنا هذا العلّامة الفذّ، الجامع ألوانًا من العلوم، والمبدع في كل الفنون.

رابعًا- تلاميذه[١]:

١. ابنا الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور:

تخرج على يديه ابناه:

- الشيخ **مُحَمَّد الفاضل بن عاشور**:

الشيخ مُحَمَّد الفاضل بن عاشور، ولد بتونس سنة ١٣٢٧هـ_١٩٠٩م، وتولى التدريس بجامع الزيتونة والقضاء، ثم عميدًا بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، ومفتيًا للجمهورية التونسية، من مؤلفاته: تراجم الأعلام، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ومضات فكر، التفسير ورجاله. توفي سنة ١٣٩٠هـ _١٩٧٠م[٢].

- **عبد الملك بن عاشور**:

عبد الملك بن عاشور، ولد بالمرسى سنة ١٣٣٢هـ_١٩١٣م، موظف عام، عمل في الوظائف الإدارية، تلقى علومه في المدرسة الصادقية، ويشرف على المكتبة العاشورية، من إنتاجه بحوث وتحقيقات علمية نشرت له بالمجلات التونسية كالهداية وغيرها، ومؤلفات علمية تتصل بجمع ما تناثر في الصحف والمجلات من آثار والده[٣].

٢. مُحَمَّد البشير النّيفر:

مُحَمَّد البشير ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ مُحَمَّد بن أحمد النّيفَر، ولد سنة ١٣٠٦هـ_١٨٨٧م، انخرط في

---

(١) تم ترتيبهم بذكر ابني الشيخ أولا، ثم رتبتهم بحسب الأكبر سنًا، حسب تاريخ ولادتهم. الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٤٠ وما بعدها. ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/ ١٥٥ وما بعدها. الطباع، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٠ وما بعدها.

(٢) الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٦/٣٢٥. الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٦. مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٣/٣١٠.

(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٦. الطباع، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٢٧.

سلك التعليم الزيتوني، ودرس بالمدرسة الصادقية، وتولى القضاء المالكي مدة تزيد على ثلاث سنوات، ثم عاد إلى الإفتاء والتدريس بجامع الزيتونة. من مؤلفاته: القصص في القرآن، رسالة في شرّاح البخاري من علماء المغرب والأندلس، تراجم المفتين والقضاة، توفي سنة ١٣٩٤هـ_١٩٧٤م[(١)].

٣. مُحَّد الصادق بن مُحَّد الشطّي:

من فضلاء تونس، ولد في مدينة "مساكن" سنة ١٣٠٧هـ_١٨٩٠م، تعلم في المعهد الزيتوني، ثم قضى نحو ثلث قرن مدرّسًا في الكلية التونسية، له تآليف عديدة منها: لبّ الفرائض، والغرة على الدرة في الحساب والفرائض، وفن التربية والتعليم. توفي سنة ١٣٦٤هـ_١٩٤٥م[(٢)].

٤. عبد الحميد بن باديس:

هو الشيخ عبد الحميد بن مُحَّد المصطفى، ابن مكّي، ولد في قسنطينة سنة ١٣٠٨هـ_١٨٨٩م، أتم دراسته بتونس، وتخرّج بشهادة التطويع من جامع الزيتونة، أصدر مجلة "الشّهاب" علمية دينية أدبية، وله "تفسير القرآن الكريم" الذي اشتغل به تدريسًا زهاء ١٤عامًا، أنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي أعظم ما قام به في مواجهة التحديات الاحتلالية، توفي في قسنطينة سنة ١٣٥٩هـ_١٩٤٠م[(٣)].

٥. زين العابدين بن حسين:

شقيق الشيخ مُحَّد الخضر بن حسين، ولد بتونس سنة ١٣١٧هـ_١٨٩٨م، لطيف المعشر، خفيف الظل، آية في الذكاء مع صلاح والوقار، التحق بجامع الزيتونة وتخرج منه محرزًا على شهادة التطويع، من مؤلفاته: المعجم في القرآن، والمعجم في النحو والصرف، والأربعون الميدانية في الحديث. توفي بدمشق سنة ١٣٧٧هـ_١٩٥٧م[(٤)].

٦. مُحَّد الحبيب ابن الخوجة:

الدكتور مُحَّد الحبيب بن الشاذلي بن الهادي ابن الخوجة، ولد بتونس ١٣٤١هـ_١٩٢٢م، تولى

---

(١) الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٥/ ٦٧ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه، ج٦/١٦٢.

(٣) المرجع نفسه، ج٣/٢٨٩. عمّار الطالبي، آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية – الجزائر، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ_١٩٩٧م. ج١/٧٢ وما بعدها. ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/١٩١.

(٤) مُحَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٢/١٣٦.

عمادة الكلية الزيتونية، ثم إفتاء الجمهورية التونسية، وهو يشغل الآن منصب الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي، للأستاذ الدكتور إنتاج علمي وافر في العلوم الإسلامية واللغوية، مثل كتابه حول حازم القرطاجني وغيره كثير(١).

وبعد فهؤلاء عدد مميز من الأعلام الذين تتلمذوا على يد ابن عاشور، ومن تأملهم وجدهم أعلامًا كل تميز في فنّه، ومؤلفاتهم تملأ أرفف المكتبات الإسلامية المعاصرة، كما نجد بعضهم من رواد الحركة الإصلاحية الراهنة في الأمة الإسلامية. ولا عجب في ذلك إن كان شيخهم ومعلمهم هو ابن عاشور؛ فمن تميز وتنوّع في علمه، نوّع في تعليمه، وأخرج من بين يديه شخصياتٍ مؤثرة.

خامسًا- مميزات شخصيته:

ابن عاشور قامة علمية سامقة، اجتمعت في شخصه صفات حميدة كثيرة، ترقّى في المناصب العلمية وعلا شأنه في البلاد. ولقد عرفت الزيتونة ابن عاشور طالبًا نابهًا متميزًا في تحصيله العلمي، وخَبرَتْه أروقتها مدرّسًا متحمّسًا مقتدرًا، وعهده طلابها وأساتيذُها داعيةً لإصلاح التعليم الزيتوني، وحاملاً للوائه، وعاملاً في سبيله من مواقع مختلفة، كما عرفت تونس ابن عاشور شيخًا لجامعها الأعظم _الزيتونة_ وخبرته قاضيًا ومفتيًا يتوخّى تحقيق العدل، والالتزام بالحق في أقضيته وفتاويه مهما كان في ذلك من معارضة لرغبات المتقاضين، أو مناقضة لأهواء المستفتين(٢).

وفيما يلي أورد جملة من ثناء العلماء عليه، وأبرز ما اتصف به ابن عاشور، ومن كان بمثله في العلم والصفات. فإن هذه الدراسة لا تفي بشخصيته الفريدة، وإنما هي لمحات تعطي تصورًا سريعًا عن مميزات شخصية ابن عاشور:

علمه وقوة ذاكرته:

امتاز ابن عاشور بقدرات ذهنية وصفها الشيخ محمد الخضر حسين صديقه وزميله في التعلم، فقال: "شبّ الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعيّةٍ وقّادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم، وقد امتاز بهمة طماحة إلى المعالي، وجدّ في العمل، لا يمسّه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال ليس

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس- الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ص١٦-١٧.

إعجابي بوضاءة أخلاقه، وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم"(١).

كما كان ذا عقل جبار، وذا تدفق وتدفّع في العلم، فكأنه إذا كتب في أي فن أو موضوع يغرف من بحر، وينحت من صخر، فإذا رأيت عنوان الموضوع الذي يريد الكتابة فيه قلت: ماذا سيقول؟ فإذا قرأت ما تحته رأيت العجب العجاب، كل ذلك بأدبٍ عال، وأسلوبٍ راق، ونفسٍ مستريض(٢).

ووصفه تلميذه عبد الحميد باديس فقال: "رجلان يشار إليهم بالرسوخ في العلم والتحقيق في النظر، والسموّ والاتساع في التفكير، أولهما العلاّمة الأستاذ: شيخنا مُحَمَّد النخلي القيرواني رحمه الله، وثانيهما العلاّمة الأستاذ: شيخنا مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، كانا يحبذان آراء الأستاذ مُحَمَّد عبده في الإصلاح، ويناضلان عنها فيمن يقرأ عليهما"(٣).

كما قال تلميذه مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة في علمه وقوة ذاكرته: "كان فريدًا مع تقدم السن في حضور الزمن واستحضار ما يسأل عنه من مسائل؛ أذكر أنني طلبت منه ذات يوم من شهر أوت ١٩٦٣ بعد أن جلست إليه في زيارتي له بعد العصر عن وجه إعراب آية خفي عليّ، فإذا الإمام رحمة الله عليه يفيض في بيان ذلك ويشرح الوجوه المختلفة فيستشهد بما أورد ابن هشام في "المغني" وفي "التصريح" وكأنه يقرأ في كتاب. وكذلك كان شأنه في كل ما يُسأل عنه من قضايا العلم اللغوي أو الشرعي. كان خزانة علم تنتقل يجد لديه كل طالب بغيته، أعانه على حصول ذلك وبلوغ المرتبة العالية العجيبة فيه اشتغاله المتواصل بالمراجعة والتدريس والتحقيق والتأليف، مع صحة ذهن وجودة طبع، وقوة عارضة وطلاقة لسان"(٤).

وإني قد لمستُ ذلك من خلال مطالعتي لمؤلَّفه «التحرير والتنوير»، ولا مبالغة إن وصفته بالعقل الموسوعي، فقد جمع في تفسيره بين ألوانٍ من العلوم، كالعقيدة والفقه والتفسير واللغة والطبيعة و ... إلخ(٥).

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٣. مُحَمَّد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٢) مُحَمَّد بن إبراهيم الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، دار ابن خزيمة – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ_٢٠٠٨م، ج١/١٥.

(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٤٧. الشيخ عبد الحميد باديس، جريدة البصائر، عدد ١٦ بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٣٦م، الموافق ٢ صفر ١٣٥٥هـ، ص١ عمود٣.

(٤) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٤.

(٥) يأتي بيانها عند الحديث عن التفسير في المبحث الثاني من الفصل نفسه.

١. **في وصف صداقته:**

كان كريم النفس سخيّها إذا صادق كان خير الأصدقاء صفاء ووفاء تحدث بذلك أصدقاؤه وزملاؤه[(١)]. فقال مُحَمَّد الخضر حسين متحدثا عن صداقته به: "انعقدت بيني وبينه سنة ١٣١٧ هـ صداقة بلغت في صفائها ومكانتها التي ليس بعدها غاية وصداقة بهذه المنزلة تقتضي أن نلتقي كثيرًا، وأن يكون كلُ منا يعرف من سريرة صاحبه ما يعرف من سريرته"[(٢)].

٢. **عاداته ومعاملاته؛** كان ابن عاشور كثير الإحسان إلى مساعديه من المستكتبين والعُملة، ومن عاداته عدم تناول وجبة العشاء، فإذا حضر مأدبة تظاهر بالأكل مجاملة[(٣)].

٣. تواضعه: كان –رحمه الله– تزينه أخلاق رضيّة، وتواضع جمّ، فلم يكن على سعة اطلاعه وغزارة معارفه مغرورًا كشأن بعض الأدعياء ممن لم يبلغوا شأوه"[(٤)].

٤. **وفي وصف فتاويه:**

يقول عنه بلقاسم الغالي: "شيخ الإسلام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور قد كان مجتهدًا في فتاويه مجددًا في حدود ما رسمته الشريعة، متحررًا غير هيّاب لمن خالفه في الرأي من علماء المالكية أو غيرهم من المذاهب الإسلامية. وكان فارس المعقول والمنقول في استنباط الأحكام وتنزيلها على الأحكام الطارئة، جيّد الفهم، أعطى دفعًا قويًا للفقه الإسلامي في مجال تطبيقه وجعله مسايرًا للحياة الإنسانية مواكبًا للتطورات الاجتماعية. فيعتبر من كبار المجتهدين في الفتوى، فهو مستقل الرأي أحيانا، ناقد لآراء الفقهاء، محقق من كبار المحققين لمختلف المسائل العلمية، معرض عن التقليد. وامتاز في فتاويه بفكر نيّر وعمق في البحث، ودقة وضبط، ومعرفة عميقة بأحوال العصر وما يموج فيه من آراء جعلته في منزلة المفتين الذين عرفوا بالباع الطويل في الفتوى، فكان مرجعًا للمغرب الإسلامي والمشرق على السواء في فتاويه التي أصدرها أو طلبت

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢) مُحَمَّد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة، مرجع سابق، ص١٦٥.

(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٤.

(٤) مُحَمَّد الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج٢٢/١.

منه [(١)].

٥. **وفي مواقفه مع خصومه:** فقد اشتهر -رحمه الله- بالصبر ، وقوة الاحتمال، وعلوّ الهمّة، والاعتزاز بالنفس، والصمود أمام الكوارث والترفّع عن الدنايا، يقول عنه الطباع: "تراه في كتاباته عفيف القلم، كاتبًا حلو المحاضرة، طيب المعاشرة مع تلاميذه. حتى إنني لم أجد بين كتاباته التي اطّلعتُ عليها ردًّا على أحد ممّن وقف ضده موقف الخصم، بل أسبغ على كتاباته طابع العلم الذي يجب أن يبلّغه، لا مظهر الردود التي تضيّع أوقات طالب العلم" [(٢)].

وإن أشهر ما عُرِف به ابن عاشور رحابة صدره مع منتقدي فتاويه ومخالفيه في الرأي، فهو لا يغلظ لهم القول ولا ينقدهم النقد اللاذع، بل يلمح لهم في احترام وتقدير ولطف لا يتعدى دائرة النطاق العلمي النزيه. وما عرف لسانه نابي الكلام فإذا ردّ كانت ردوده تعلوها مسحة من الأدب الجمّ، واحترام آراء غيره، وعدم استنقاص أصحابها كيفما كانت شخصياتهم، ومهما كانت قيمة آرائهم [(٣)].

ويقول عنه الغالي: "ولم أعثر في نقده العلمي على ما يمسّ الذوق أو يخدش الكرامة. عفّ اللسان كريم، محبٌّ لأهل العلم ولطلبته ولمن كان أهلاً للمحبة. وكان في مناقشاته العلمية لا يجرح أحدًا ولا يحطّ من قدره، فإذا لاحظ تهافتًا في الفكر لمح إلى ذلك تلميحًا. ولم أجد في خصوماته ما يمسّ شخصية أحد قط. ورغم الحملات التي شُنت ضده في فتوى التجنّس وغيرها لم ينزل عن المستوى الخلقي الذي يتّصف به العلماء، بل لم يُشِر إليهم ولم يشكُ منهم قط!" [(٤)].

فهذا بعض ما قيل عن الشيخ الطاهر بن عاشور، رجل جمع العلم بالأدب، وتخلّق بأخلاق فاضلة، اتصف بالتواضع ولين الجانب ورحابة الصدر، مما زاده رفعةً وشرفًا، وذكرًا طيّبًا، وهذا هو شأن العلماء الأفذاذ، فالعلم يرفع صاحبه، ويعلي منزلته، ومن نال علماً فقد نال رفعةً، فالله يجزيه خيرًا على ما قدّم.

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص١٤٨ وما بعدها.
(٢) الطباع، محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٨١.
(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص١٥٠.
(٤) المرجع نفسه، ص٦٤.

سادسًا- مؤلفاته[١]:

أ. مؤلفاته في العلوم الإسلامية:

أولاً- مؤلفاته في التفسير:

ثانيًا- مؤلفاته في الحديث النبوي الشريف:

١. النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح.

٢. كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ.

٣. تعليق وتحقيق على شرح حديث أم زرع.

ثالثًا- مؤلفاته في الفقه وأصوله:

١. آراء اجتهادية. أو مجموع الفتاوى.

٢. الآمالي على مختصر خليل.

٣. مقاصد الشريعة الإسلامية.

٤. حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب: التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول، للقرافي.

رابعًا- مؤلفاته في الدراسات الإسلامية:

١. أصول التقدم في الإسلام.

٢. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

٣. تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة.

٤. نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق.

٥. أليس الصبح بقريب؟ التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية.

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٢ وما بعدها. ابن الخوجة، شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/ ٣١٥ وما بعدها. الطباع، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٣٠ وما بعدها.

ب. مؤلفاته في علوم الآلة:

أولاً– في اللغة العربية و الأدب والبلاغة:

١. غرائب الاستعمال.

٢. موجز البلاغة.

٣. أصول الإنشاء والخطابة.

٤. الأمالي على دلائل الإعجاز للجرجاني.

٥. تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي.

٦. التعليق على المطوّل بحاشية السيالكوتي.

٧. ديوان بشار بن برد شرح وتحقيق.

٨. تحقيق وتصحيح وتعليق على كتا ب الاقتضاب في شرح أدب الكاتب لابن السيد البطليوسي.

٩. تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدمة في النحو.

١٠. تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للطبيب ابن زهر.

١١. جمع وشرح ديوان سُحيم عبد بني الحسحاس.

١٢. ديوان النابغة الذبياني.

١٣. شرح معلقة امرئ القيس.

١٤. تحقيق قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلّق.

١٥. شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام.

١٦. سرقات المتنبي ومُشكل معانيه لابن بسّام النحوي _تحقيق_.

١٧. مراجعات تتعلق بكتابي معجز أحمد واللامع العزيزي.

١٨. الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصبهاني.

١٩. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لأبي نصر الفتح ابن خاقان.

ثانيًا– مؤلفاته في التاريخ والتراجم:

١. تراجم بعض الأعلام.

٢. كتاب تاريخ العرب.

٣. قصة المولد النبوي الشريف.

ت. مؤلفاته في الدوريات والمقالات:

للشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور عدد من المقالات المنشورة في المجلات والدوريات، ففي تونس نُشرت مقالاته في عدد من المجلات مثل: السعادة العظمى، والمجلة الزيتونية، والعصر الجديد، والعمل، ومجلة الهداية الإسلامية التونسية. ومن الصحف التي حفلت بفتاويه: صحيفة النهضة، وصحيفة الزهرة، وصحيفة الوزير، وصحيفة الصباح.

وفي مصر كتب في مصباح الشرق، ومجلة المنار، والهداية الإسلامية، وفي هدى الإسلام، وفي الرسالة، وفي مجلة مجمع اللغة العربية. وفي دمشق كتَب في مجلة المجمع العلمي العربي.

المطلب الثالث

مذهبه الفكري، ومكانته العلمية

أولاً- مذهبه الفكري "العقدي والفقهي"(١):

●مذهبه العقدي:

لقد سار ابن عاشور على منهج السلف الصالح في أبواب العقيدة عدا آيات الصفات، فهو يسير فيها على وفق منهج الأشاعرة(٢) وإن كان يخالفهم أحيانًا ويقترب من منهج السلف. وإذا تعرّض لتأويل آية جاء بأقوال السلف وربما انتصر لهم، وإذا خالفهم في تأويل صفة أثنى عليهم واعتذر لهم دون تعنيف أو تسفيه(٣).

فمن الأمثلة على ذلك:

١. ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [سورة الفاتحة: ٧]. قال رحمه الله: " وإذ كانت حقيقة الغضب يستحيل اتصاف الله تعالى بها وإسنادها إليه على الحقيقة للأدلة القطعية الدالة على تنزيه الله تعالى عن التغيرات الذاتية والعرضية، فقد وجب على المؤمن صرف إسناد الغضب إلى الله عن معناه الحقيقي، وطريقة أهل العلم والنظر في هذا الصرف أن يصرف اللفظ إلى المجاز بعلاقة اللزوم أو إلى الكناية باللفظ عن لازم معناه، فالذي يكون صفة لله من معنى الغضب هو لازمه، أعني العقاب والإهانة يوم الجزاء واللعنة أي: الإبعاد عن أهل الدين والصلاح في الدنيا أو هو من

---

(١) ذكرته هنا مختصرا، وتفصيله في مبحث: منهجه في التفسير.

(٢) الأشاعرة: فرقة كلامية إسلامية، سميت بذلك نسبة لأبي الحسن الأشعري، الذي خرج على المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة، والفلاسفة وغيرهم؛ لإثبات حقائق الدين والعقيدة على طريقة ابن كلاب، ومن معتقداتهم: تقديم العقل على النقل، وعدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، وإثبات سبع صفات (الحياة والعلم، والسمع والبصر، والقدرة والإرادة والكلام) وتأويل ما عدا ذلك. ومن أبرز أئمة هذا المذهب: القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ)، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ). مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ضبطه وعلق عليه: كسرى صالح العلي، مؤسسة الرسالة ناشرون – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، ص١١٣ وما بعدها. د. مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ_٢٠٠٣م، ج١/٨٣ وما بعدها.

(٣) مُحَمَّد الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١/٤٠.

قبيل التمثيلية"[١].

٢. وما أورده أيضًا في تأويل صفة الإتيان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٠]. قال رحمه الله: "أسند الإتيان إلى الله تعالى في هذه الآية على وجه الإثبات فاقتضى ظاهره اتصاف الله تعالى به، ولما كان الإتيان يستلزم التنقل أو التمدد ليكون حالا في مكان بعد أن لم يكن به حتى يصح الإتيان وكان ذلك يستلزم التنقل والله منزه عنه، تعين صرف اللفظ عن ظاهره بالدليل العقلي، فإن كان الكلام خبرا أو تهكما فلا حاجة للتأويل، لأن اعتقادهم ذلك مدفوع بالأدلة، وإن كان الكلام وعيدا من الله لزم التأويل، لأن الله تعالى موجود في نفس الأمر لكنه لا يتصف بما هو من صفات الحوادث كالتنقل والتمدد لما علمت، فلا بد من تأويل هذا عندنا على أصل الأشعري في تأويل المتشابه"[٢].

٣. وما أورده أيضًا عند تفسيره محبة الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]. قال رحمه الله: "وأما إطلاق المحبة في قوله: يحببكم الله فهو مجاز لا محالة أريد به لازم المحبة وهو الرضى وسوق المنفعة ونحو ذلك من تجليات لله يعلمها سبحانه"[٣].

فمن خلال الأمثلة السابقة وجدناه أوّل صفات الله الثابتة له كالإتيان والمحبة والغضب، فلم يثبتها وإنما أثبت لازمها، والتأويل على طريقة الأشاعرة في إثبات الصفات، إلا أن ابن عاشور ـــ وإن كان أشعريًا ـــ لم يكن متحيزًا لآراء الأشاعرة دون غيرها.

- **مذهبه الفقهي:**

إن ابن عاشور مالكيّ المذهب، ويتجلى ذلك بوضوح في علمائه المالكية الذين يستمدّ منهم الفتوى، ومن قبل فقد نشأ في بيئة معظم أهلها على المذهب المالكي، وكان من أوائل المتون التي حفظها وهو صغير قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة متن ابن عاشر في الفقه المالكي[٤]، وسار على تعلم هذا المذهب والتفقه فيه حتى صار مفتيًا عامًا مالكيًا عام ١٩٢٤م، ثم كبير أهل الشورى المالكية عام ١٩٣٢م[٥]. ومع

(١) محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، ج١/١٩٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢/٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٣/٢٢٨.

(٤) راجع نشأته في المبحث نفسه.

(٥) راجع وظائفه القضائية والشرعية في المطلب نفسه.

هذا لم يكن متعصبًا لمذهب مالك بل كان ينظر في الأقوال كلها، وإن كان في تفسيره كثيرًا ما يرجّح ما ذهبت إليه المالكية. ومن الأمثلة على ذلك:

١. قوله عند بيانه حكم اللعان بين الزوجين: " قال مالك في المشهور عنه وآخر قوليه وجماعة: لا يلاعن بين الزوجين إلا إذا ادعى الزوج رؤية امرأته تزني أو نفى حملها نفيًا مستندًا إلى حدوث الحمل بعد تحقق براءة رحم زوجه وعدم قربانه إياها، فإن لم يكن كذلك ورماها بالزنى. أي بمجرد السماع أو برؤية رجل في البيت في غير حال الزنى، أو بقوله لها: يا زانية، أو نحو ذلك مما يجري مجرى السب والشتم فلا يشرع اللعان. ويحد الزوج في هذه الأحوال حد القذف لأنه افتراء لا بينة عليه ولا عذر يقتضي تخصيصه؛ إذ العذر هو عدم تحمل رؤية امرأته تزني وعدم تحمل رؤية حمل يتحقق أنه ليس منه. وقال أبو حنيفة والشافعي والجمهور: إذا قال تحمل لها: يا زانية، وجب اللعان، ذهابا منهم إلى أن اللعان بين الزوجين يجري في مجرد القذف أيضا تمسكا بمطلق لفظ يرمون. ويقدح في قياسهم أن بين دعوى الزنى على المرأة وبين السب بألفاظ فيها نسبة إلى الزنا فرقا بينا عند الفقيه. وتسمية القرآن أيمان اللعان شهادة يومئ إلى أنها لرد دعوى وشرط ترتب الآثار على الدعوى أن تكون محققة فقول مالك أرجح من قول الجمهور؛ لأنه أغوص على الحقيقة الشرعية"[(١)] .

٢. وما أورده عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة:٢٢٦]. يقول: "قد جعل الله للمولي أجلا وغاية، أما الأجل فاتفق عليه علماء الإسلام، واختلفوا في الحالف على أقل من أربعة أشهر، فالأئمة الأربعة على أنه ليس بإيلاء، وبعض العلماء: كإسحاق بن راهويه وحماد يقول: هو إيلاء، ولا ثمرة لهذا الخلاف فيما يظهر، إلا ما يترتب على الحلف بقصد الضر من تأديب القاضي إياه إذا رفعت زوجه أمرها إلى القاضي ومن أمره إياه بالفيئة.

وأما الغاية فاختلفوا أيضا في الحاصل بعد مضي الأجل، فقال مالك والشافعي: إن رفعته امرأته بعد ذلك يوقف لدى الحاكم، فإما أن يفيء أو يطلق بنفسه، أو يطلق الحاكم عليه، وروي ذلك عن اثني عشر من أصحاب النبي ﷺ. وقال أبو حنيفة: إن مضت المدة ولم يفيء فقد بانت منه، واتفق الجميع على أن غير القادر يكفي أن يفيء بالعزم، والنية، وبالتصريح لدى الحاكم، كالمريض والمسجون والمسافر.

واحتج المالكية بأن الله تعالى قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٢٧]. فدل على أن هنالك مسموعا؛ لأن وصف الله بالسميع معناه العليم بالمسموعات، على قول المحققين من المتكلمين، لا سيما وقد قرن بعليم، فلم يبق مجال لاحتمال قول القائلين من المتكلمين بأن السميع مرادف للعليم وليس

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/١٦٤.

المسموع إلا لفظ المولي، أو لفظ الحاكم، دون البينونة الاعتبارية. وقوله ﴿عَلِيمٌ﴾ يرجع للنية والقصد.

وقال الحنفية: سميع لإيلائه، الذي صار طلاقًا بمضي أجله، كأنهم يريدون أن صيغة الإيلاء جعلها الشرع سبب طلاق، بشرط مضي الأمد عليم بنية العازم على ترك الفيئة. وقول المالكية أصح؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جعل مفرعًا عن عزم الطلاق لا عن أصل الإيلاء ولأن تحديد الآجال وتنهيتها موكول للحكام"(١).

وإنا لنجده أحيانًا يتبع ما يراه موافقًا للدليل، ويرّجح قولاً غير قول المالكية، وهذا دليل قاطع على عدم تعصّبه لمذهب مالك، ومن الشواهد على ذلك:

١. ترجيحه لقول الشافعي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١]. يقول: "حكم التسمية على الذبيحة مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال: أحدها: أن المسلم إن نسي التسمية على الذبح تؤكل ذبيحته، وإن تعمد ترك التسمية استخفافًا أو تجنبًا لها لم تؤكل، ومستند هؤلاء ظاهر الآية مع تخصيصها أو تقييدها بغير النسيان، إعمالًا لقاعدة رفع حكم النسيان عن الناس. وإن تعمد ترك التسمية لا لقصد استخفاف أو تجنب ولكنه تثاقل عنها، فقال مالك في المشهور، وأبو حنيفة، وجماعة، وهو رواية عن أحمد: لا تؤكل. ولا شك أن الجهل كالنسيان، ولعلهم استدلوا بالأخذ بالأحوط في احتمال الآية اقتصارًا على ظاهر اللفظ دون معونة السياق.

الثاني: قال الشافعي، وجماعة، ومالك في رواية عنه: تؤكل. وقال أشهب، والطبري: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا، إذا لم يتركها مستخفا. وقال عبد الله بن عمر، وابن سيرين، ونافع، وأحمد بن حنبل، وداود: لا تؤكل إذا لم يسم عليها عمدًا أو نسيانًا، أخذًا بظاهر الآية، دون تأمل في المقصد والسياق.

وأرجح الأقوال: هو قول الشافعي. والرواية الأخرى عن مالك، إن تعمد ترك التسمية تؤكل، وأن الآية لم يقصد منها إلا تحريم ما أهل به لغير الله، وقد يكون تارك التسمية عمدًا آثما، إلا أن إثمه لا يبطل ذكاته، كالصلاة في الأرض المغصوبة عند غير أحمد"(٢).

٢. وقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [سورة يس: ٧٨]. "وفي تعليق الإحياء بالعظام دلالة على أن عظام الحي تحلها الحياة كلحمه

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢/٣٨٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٨-أ/٤٠ وما بعدها.

ودمه، وليست بمنزلة القصب والخشب وهو قول مالك وأبي حنيفة؛ ولذلك تنجس عظام الحيوان الذي مات دون ذكاة. وعن الشافعي: أن العظم لا تحله الحياة فلا ينجس بالموت. قال ابن العربي: وقد اضطرب أرباب المذاهب فيه. والصحيح ما ذكرناه، يعني أن بعضهم نسب إلى الشافعي موافقة قول مالك، وهو قول أحمد فيصير اتفاقًا وعلماء الطب يثبتون الحياة في العظام والإحساس".

٣. ومخالفته لمذهب مالك في اشتراط النية في الحج، فقال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾. [البقرة: ١٩٧]. "معنى «فرض»: نوى وعزم، فنية الحج هي العزم عليه وهو الإحرام، ويشترط في النية عند مالك وأبي حنيفة مقارنتها لقول من أقوال الحج وهو التلبية، أو عمل من أعماله كسوق الهدي، وعند الشافعي يدخل الحج بنية ولو لم يصاحب قولا أو عملا وهو أرجح؛ لأن النية في العبادات لم يشترط فيها مقارنتها لجزء من أعمال العبادة، ولا خلاف أن السنة مقارنة الإهلال للاغتسال والتلبية واستواء الراحلة براكبها"[(١)].

بعد هذا العرض المجمل يتبين لنا الوسطية الفكرية لابن عاشور؛ فقد وقف موقف الوسط بين المذاهب العقدية، فعلى الرغم من تصريحه بأنه أشعري المعتقد إلا أنه ينتصر لأهل السُّنة والجماعة، ويرد على المعتزلة، فلم يكن متعصبًا لمذهبه أبدًا. كما وجدته وقف موقف الوسط بين المذاهب الفقهية، فعلى الرغم من أنه مالكي المذهب، إلا أنه يؤيد أقوال المذاهب الأخرى كالشافعية وغيرها. فلم يكن متحيزًا إلى فئة دون أخرى.

ثانيًا- مكانته العلمية:

لقد تبوأ ابن عاشور منزلة من العلم والإصلاح والتأثير، ما تنوء به الهمم الضعيفة، فقد سبق إلى ما لم يصل إليه غيره، ونال شرف مشيخة المالكية، إلى جانب مشيخة الزيتونة. وفيما يلي عرضٌ للمكانة العلمية الرفيعة التي كان فيها، من خلال بيان أولياته، والوظائف التي تدرّج فيها إلى أن مات -رحمه الله-:

أولاً- أولياته[(٢)]:

١. أول من فسر القرآن كاملا في إفريقيّة، وذلك في كتابه العظيم «التحرير والتنوير»، وإفريقية اسم يشمل البلاد التونسية وما حولها.

٢. أول من جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق ج٢/٢٣٣.

(٢) الطباع، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٧٨ وما بعدها.

٣. أول من سمي شيخًا للجامع الأعظم سنة (١٣١٥ هـ_١٩٣٢م) ليتولى الإصلاحات العلمية والتعليمية، فكان أول شيخ لإدارة التعليم بجامع الزيتونة عوضا عن النظارة [١] التي كانت هي المسيّرة للتعليم به [٢].

٤. أول من لقب بشيخ الإسلام، وهو لقب تفخيمي تداولته الرئاسة الشرعية الحنفية بتونس منذ القرن العاشر الهجري، ولم يكن لدى تونس هذا اللقب. وقد أطلقه عليه رئيس المجلس الشرعي الأعلى للمالكية بصفة رسمية عليه [٣].

٥. أول من تقلد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة (١٩٦٨م)، وهو أعلى وسام ثقافي قررت الدولة التونسية إسناده إلى كل مفكر امتاز بإنتاجه الوافر، ومؤلفاته العميقة الأبحاث، ودعواته الإصلاحية ذات الأثر البعيد المدى في مختلف الأوساط الفكرية [٤].

٦. أول من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي بعد العز بن عبد السلام[٥]، وإبراهيم الشاطبي[٦].

٧. أول من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيميّة في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربوية فكرية، صاغها في كتابه: (أليس الصبح بقريب) الذي كان شاهدًا على الإصلاح التربوي والتعليمي الشرعي المنشود.

وهذا يعني أن ابن عاشور من المفكرين القلائل، والمبدعين الأوائل في حركة الإحياء والبعث التونسية

---

(١) النظارة: هي الهيئة المشرفة على التعليم بجامع الزيتونة، وهي تتركب من شيخي الإسلام المالكي والحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي.

(٢) محمّد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، مصدر سابق، ص٥.

(٣) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٦٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٦٨.

(٥) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عزّ الدين الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق، وزار بغداد سنة ٥٩٩ هـ فأقام شهرا، وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، توفي عام ٦٦٠ هـ. محمّد بن شاكر بن أحمد بن شاكر الملقب بصلاح الدين، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ج٢/٣٥٠ وما بعدها.

(٦) هو: إبراهيم بن موسى بن محمّد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ، من أئمة المالكية، ومن أشهر مصنفاته: "الموافقات"، و "الإفادات والإنشادات"، و "الاعتصام"، توفي سنة ٧٩٠ هـ. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج١/٧٥.

التي كان لها دور رئيس في العلم والإصلاح والتأثير.

ثانيًا– وظائفه، وحياته العلمية[(١)]:

تولى ابن عاشور مناصب بارزة، وقد آثرت تقسيم هذه الوظائف إلى: وظائف علمية، ووظائف إدارية، ووظائف قضائية شرعية، ثم ترتيب مناصب كل قسم ترتيبًا تاريخيًا منذ حصوله على شهادة التطويع (التعليم الزيتوني) وحتى وفاته –رحمه الله–.

أولاً– الوظائف العلمية:

١. (١٣١٧ هـ – ١٨٩٩ م). تولى التدريس بالجامع الأعظم بعد نيله شهادة التطويع التي تخول صاحبها حق التدريس في الدرجات الأولى من التعليم بالمعهد.

٢. (١٣٢٠ هـ – ١٩٠٣ م). نجح في مناظرة التدريس من الطبقة الثانية؛ ليتولى مهام التعليم بصفة رسمية بالجامع الأعظم، عوضًا عن الشيخ مُحَمَّد النخلي (ت ١٩٢٥م).

٣. (١٣٢١ هـ – ١٩٠٤م). انتدب للتدريس بالمدرسة الصادقية، وبقي بها حتى سنة (١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م) خلا فترة مباشرته للقضاء.

٤. (١٣٢٣ هـ – ١٩٠٥ م). تولى عضوية لجنة فهرست الكتب بالجامع الأعظم؛ نظرًا لعنايته بالكتب والمخطوطات، وكان بالجامع الأعظم مكتبتان: الأولى الأحمدية من إنشاء المشير أحمد باشا الأول، والثانية الصادقية أسسها المشير مُحَمَّد الصادق باشا باي.

٥. (١٣٢٤ هـ – ١٩٠٥ م). نجح في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى بوفاة الشيخ الصادق الشاهد، وكان موضوع الدرس: بيع الخيار في الفقه.

ثانيًا– الوظائف الإدارية:

١. (١٣٢٣ هـ – ١٩٠٥ م). عين عضوًا بمجلس إدارة الجمعية الخلدونية. وفي نفس السنة حصل على خطة العدالة وإن لم يباشرها فعلا.

٢. (١٣٢٥ هـ – ١٩٠٧ م). عين نائبا أول للحكومة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة؛ لما لوحظ عليه من كفاءة ومقدرة، والشيخ بهذا تجاوز ت قيمته العلمية مهمة التدريس.

---

(١) الغالي، شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٥٦ وما بعدها. ابن الخوجة، شيخ الإسلام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/٢٧، و١٦٤ وما بعدها. الطباع، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٥٠ وما بعدها. مُحَمَّد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، مرجع سابق، ج٣/ ٣٠٤ وما بعدها.

٣. (١٣٢٦ هـ - ١٩٠٩ م). عين عضواً بمجلس المدارس، وعضوًا في مجلس إدارة المدرسة الصادقية.

٤. (١٣٢٧ هـ - ١٩١٠ م). تولى رئاسة لجنة فهرسة المكتبة الصادقية.

٥. (١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م). عين عضوًا في اللجنة الأولى لإصلاح التعليم.

٦. (١٣٢٩ هـ - ١٩٠٨ م). عين عضوا في لجنة تنقيح برامج التعليم، وكتب تقريرا عن حالة التعليم واقترح إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي في مدن القيروان وسوسة وصفاقس، وتوزر وقفصة.

٧. (١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م). عين عضوًا في اللجنة الثانية لإصلاح التعليم.

٨. (١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م). عين عضوًا في اللجنة الثالثة لإصلاح التعليم.

٩. (١٣٤٨هـ - ١٩٣٠ م). عين عضوًا في اللجنة الرابعة لإصلاح التعليم.

١٠. (١٩٥٠ م). انتخب عضوًا مراسلاً للمجمع اللغوي بالقاهرة.

١١. (١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م). عين في منصب مدير للجامع الأعظم، وبقي على رأس مشيخة الجامع الأعظم مدة لا تزيد عن السنة والنصف، وقد فصل بسبب دسائس خصومه ومنافسيه وما أبداه المحافظون من شيوخ الزيتونة من معارضة صريحة لبرنامجه الإصلاحي، فألصقوا به فتوى التجنيس التي لم تحرر أصلا، ونسبوا جرمها إليه لتبغيض العامة والخاصة فيه.

وقد اعتبر الفاضل بن عاشور منصب والده (شيخ الجامع الأعظم) في تلك الفترة انتصارًا للحركة الطلابية والحركة الإصلاحية بوجه عام.

١٢. (١٩٥٥ م). انتخب عضوًا مراسلاً للمجمع العلمي بدمشق.

١٣. (١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م). أعيد تعيينه شيخا للجامع الأعظم، وأحدث إصلاحات ذات شأن في تنظيم التعليم الزيتوني، وبقي فيها حتى سنة (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م).

١٤. (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٦ م). أسندت إليه عمادة الجامعة الزيتونية، وبقي فيها حتى سنة (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م).

ثالثًا: الوظائف القضائية الشرعية:

١. (١٣٢٨ هـ - ١٩١١م). اختير حاكمًا بالمجلس المختلط العقاري.

٢. (١٣٢٩ هـ- ١٩١١م). عين عضوًا بمجلس الأوقاف الأعلى.

٣. (١٣٣١هـ-١٩١٣م). عين قاضيًا مالكيًا للجماعة بالمجلس الشرعي حتى سنة (١٣٤١هـ - ١٩٢٣م).

٤. (١٣٤١هـ - ١٩٢٣م). عين مفتيًا وفوّض إليه مباشرة وظائفه العلمية والشرعية.

٥. (١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م). عين مفتيًا ثانيًا مكلّفًا بمنصب باش مفتي، أي: رئيس المفتين، وهو لقب تفخيمي أحدثته الدولة الحسينية.

٦. (١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م). تقلّد الإفتاء بصفة قانونية، فأصبح كبير أهل الشورى.

٧. (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م). تنصب رئاسة المجلس الشرعي المالكي، ولقّب بشيخ الإسلام المالكي، ولقب شيخ الإسلام لقب تفخيمي تداولته الرئاسة الشرعية الحنفية بتونس منذ القرن العاشر الهجري، ولم يكن لدى تونس هذا اللقب. وقد أطلقه عليه رئيس المجلس الشرعي الأعلى للمالكية بصفة رسمية على الشيخ ابن عاشور، فكان أول مالكيّ تقلّد هذا المنصب السامي، فجمع بين المشيختين في آن واحد، شيخ الجامع الأعظم شيخ الإسلام. وفي هذا دلالة على المنزلة العلمية التي تبوأها الشيخ.

المبحث الثاني
التعريف بتفسير التحرير والتنوير

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: مدرسته ومكانته بين التفاسير.
- **المطلب الثاني**: محاوره.
- **المطلب الثالث**: منهج التفسير.

المطلب الأول

مدرسته ومكانته بين التفاسير

أولاً– مدرسة ابن عاشور في التفسير:

يعد تفسير «التحرير والتنوير» من التفاسير الحديثة المعاصرة، والتفاسير في العصر الحديث لها مشارب شتى، وطرائق عدة، ومدارس مختلفة عما قبلها. وفيما يلي عرض مجمل لألوان التفسير في العصر الحديث[(١)]:

أولاً– اللون العلميّ: وهو أحد الألوان التي ظهرت إلى الوجود، متأثرًا بمكتشفات العصر الحديث.

ثانيًا– اللون الأدبي الاجتماعي: وهو اللون المتأثر بالأدب المعاصر والمظاهر الاجتماعية الحاضرة. فلم يعد يظهر على التفسير في هذا العصر الطابع التقليدي الجاف، من معالجة مسائل شكلية كادت تصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، بل عالج النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم تصاغ تلك المعاني التي يهدف إليها القرآن الكريم في أسلوب شائق أخّاذ، ثم يطبّق النص القرآني على ما في الكون والحياة من سنن الاجتماع ونظم العمران.

ثالثًا– اللون السياسي: وقد ظهر هذا اللون على أثر التشعبات الحزبية السياسية الحديثة في المجتمع الإسلامي.

رابعًا– اللون العقلي: فقد رافقت الألوان المتقدمة هذا اللون من التفسير العقلي. الذي كان فيه بعض المحاولات لتأويل آيات كانت بظاهرها متنافية مع نظريات العلم، التي أورثتها النهضة الصناعية العلمية منذ القرن التاسع عشر ميلادي.

وبعد هذا العرض المجمل فإن تفسير «التحرير والتنوير» –موضوع الدراسة– ينتسب إلى اللون الثاني من ألوان التفسير في العصر الحديث اللون الأدبي الاجتماعي. وإن الفضل في هذا اللون التفسيري يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده للتفسير، الذي بنى أساس هذا البنيان الرفيع، وفتح باب الاجتهاد في التفسير بعد ما كان مغلقًا طيلة قرون. فقد نبذ طريقة التقليد السلفي، وأعطى للعقل حريته في النقد والتمحيص. وسار على منهجه الأجلاء من تلامذته أمثال: السيد مُحَمَّد رشيد رضا، والشيخ مُحَمَّد مُحَمَّد القاسمي، والشيخ أحمد مصطفى المراغي، ومن جاء بعدهم جارياً على التعاليم ذاتها، أمثال: ابن

---

(١) مُحَمَّد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلامية، ١٤٢٦هـ، ج٢/١٠٠٠ وما بعدها.

عاشور، وسيد قطب، والشيخ مُحَمَّد الصادقيّ[(١)].

مزايا هذه المدرسة[(٢)]:

يمكن إجمال مزايا هذه المدرسة في التفسير على النحو التالي:

١. نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسِّرين من التأثر بالمذهب إلى الدرجة التي تجعل القرآن تابعاً لمذهبه، فيؤوِّل القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفاً وبعيداً.

٢. وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تُشَوِّه التفسير بما شُوِّهَ به في كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرَّأت الطاعنين عليه!.

٣. لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسِّرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كان لها أثر سيء في تفسير القرآن الكريم!.

ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث الموضوعة. أنها لم تخض في تعيين ما أبهمه القرآن، ولم تجرؤ على الخوض في الكلام عن الأُمور الغيبية، التي لا تُعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملاً، ومنعت من الخوض في التفصيلات والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزاً منيعاً دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد.

٤. أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التي زُجَّ بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلى حسب الضرورة فقط.

٥. أن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجًا أدبيًا اجتماعيًا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأُمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيري الدنيا والآخرة، ووفَّقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، وبينت للناس أن القرآن كتاب الله

---

(١) مُحَمَّد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث _ القاهرة، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م، ج٢/٤٧٩. مُحَمَّد هادي معرفة، التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج٢/١٠١٠.

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج٢/٤٧٩وما بعدها.

الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبَشري، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، ودفعت ما ورد من شُبَه على القرآن، وفنَّدت ما أُثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق. كل هذا بأسلوب جذاب يستهوي القارئ، ويستولي على قلبه، ويُحَبب إليه النظر في كتاب الله، ويُرَغبه في الوقوف على معانيه وأسراره.

- **عيوب هذه المدرسة** [(١)]:

ومن عيوب هذه المدرسة ما يلي:

١. أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأوَّلت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب. استبعاد بالنسبة لقُدرة البَشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن.

٢. وأمر يجر إلى أمر، فبسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها.

٣. حمَّلت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن.

٤. طعنت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يُستهان بها.

وترى الباحثة أنه على الرغم من عيوب هذه المدرسة إلا أن لها أهميتها، وإسهامها في قرب التفسير من النفوس، إذ أن فيها من الأدب والبلاغة وحسن العرض ما يجعل القارئ يتفيأ ظلال آيات الكتاب العزيز، ويزهر في أفانينها. كما أن هذه المدرسة أثبتت للناس صلاحية هذه الدين لكل زمان ومكان من خلال التفسير والتبيين. ولا شكّ بأن القارئ الحصيف ليميز بين الحق والباطل. كما أن جهود أهل العلم لا زالت مستمرةً في بيان مناهج المفسرين، وتحليل آرائهم ونقدها على ضوء منهج أهل السنة والجماعة.

ثانيًا – مكانة تفسير «التحرير والتنوير» بين التفاسير:

يمكن القول بأن تفسير التحرير والتنوير من أهم التفاسير في العصر الحديث؛ نظرًا لما احتواه من خلاصة فكر ابن عاشور، وما له من صبغةٍ مقاصدية عقدية وشرعية، ففكر مؤلفه مقاصديًا، والتي تعدّ سمةً

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون ، ج٢/٤٨٠ وما بعدها.

بارزةً مميزةً لهذا التفسير، لم يسبق إليها أحد من المفسرين المعاصرين.

ثم إن الحديث عن مكانة هذا التفسير لا بد وأن تؤخذ من أقوال العلماء البارزين الذين أشادوا به، وبينوا مكانته، وكيف أنه إضافةً مميزةً لكتب التفسير المعاصرة.

وقد عدّ ابن الخوجة هذا التفسير مدرسة متكاملة، فيقول: "يعد كتابه «التحرير والتنوير» مدرسة في التفسير قائمة بذاتها، بدأت من حيث انتهى المفسّرون الذين سبقوه"(١).

كما يرى أنه من كتب المتقدمين؛ لما فيه من خلاصة فكر صاحبه الذي تفرد به في هذا العصر، فيقول: "لا يعد كتاب التفسير: «التحرير والتنوير» من بين كتب التفسير المعاصرة. فهو بالمنهج العلمي ألصق، وبطرق السابقين المتقدمين ألحق. لا يقف صاحبه من آثار الأسلاف في هذا الميدان موقف الطاعن أو الذامّ، ولكن موقف المهذِّب والمستدْرِك ..." إلى أن قال: "... ومضى الشيخ ابن عاشور في تفسيره على نمط فريد في عصرنا الحاضر، يداني به كبار أئمة التفسير المعتمدين، ويجنح بطلّابه فيه إلى مختلف الطرق، تمكيناً لهم من فهم النص القرآني فهماً كاملاً، وتدريباً لهم على الغوص على لطائف معانيه وإشاراته، غوصاً يسمح لهم بالانتباه إلى دقائقه، مع التربية لملكاتهم والصقل لمواهبهم والارتقاء بأذواقهم. فهو يخاطب به في حلقات درسه طبقة خاصة من طلبة الدراسات العليا، وعدداً من المدرِّسين الذين كانوا يُهرعون إلى مجلسه للتأدّب به والتعلّم منه والتخرّج عليه. فهو يبني بهذه الطريقة جيلاً جديداً يتلقّى المشعل من يده، وينهج منهجه في سيره، فيعمّ بذلك نفعُه العامةَ والخاصةَ، ويحفظ به اللغة وآدابها، ويُعنى فيه بالقرآن الكريم الذي وعد سبحانه بحفظه في قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر:٩]"(٢).

وقال **الشيخ محمّد الغزالي** حين ثنائه على ابن عاشور: "أقرأُ كلماته في «التحرير والتنوير» فأستغرب؛ لأنه وطأ كلمات مستغربة وجعلها مألوفة، وحرر الجملة العربية من بعض الهنات الذي أصابها في أيام انحدار الأدب في عصوره الأخيرة. ولكن الرجل لم يلق حظه ... ابن عاشور لا يمثل صورة من اللحم والدم، إنما يمثل تراثاً أدبياً علمياً عقائدياً أخلاقياً"(٣).

---

(١) ابن الخوجة، شيخ الإسلام محمّد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج١/١٦.

(٢) المرجع نفسه، ج١/٣١٨ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه، مرجع سابق ، ج١/١٧٠. مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٢٨، أبريل ١٩٨٦، السنة الحادية عشرة، ص ٤٤.

كما أن مكانة هذا التفسير لتتبين من خلال العلوم التي احتواها سواءً كانت علومًا شرعيةً، أو علومًا كونية، أو علوم اللغة العربية، والتي سيأتي بيانها وتفصيل القول فيها عند بيان منهج التفسير في المبحث نفسه.

المطلب الثاني
محاور التفسير

يعد تفسير التحرير والتنوير من أميز كتب التفسير في العصر الحديث، فقد جمع فيه مؤلفه جُلّ علوم القرآن، وسيكون حديثي في هذا المبحث في النقاط التالية:

أولاً- اسم الكتاب.

ثانيًا- قصة تأليفه وبدايته ونهايته.

ثالثًا- مقدمات التفسير.

رابعًا- مصادره في كتابة التفسير.

أولاً- اسم الكتاب:

لقد بيّن ابن عاشور – رحمه الله- في خطبة الكتاب أنه سمى تفسيره بـ: "تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد". ثم اختصره إلى: "التحرير والتنوير من التفسير"[(١)]. وكأنه بهذا العنوان يشير إلى مقاصده في التفسير، وإلى مضمون الكتاب وأسلوبه، في هذه الجمل الثلاثة التي يكمل بعضها بعضًا:

ففي قوله: " تحرير المعنى السديد" يشير إلى أنه سلك مسلك التحقيق والتدقيق، لا مجرد النقل والترديد لما يقوله الأولون.

وفي قوله: "تنوير العقل الجديد" يشير إلى أن الكتاب متوافق مع مقتضيات العصر الحديث. وفي قوله: " من تفسير الكتاب المجيد" يشير إلى أنه فسّر القرآن كله من أوله إلى آخره[(٢)].

ثانيًا- قصة تأليفه وبدايته ونهايته:

بَيَّن – رحمه الله- في خطبة الكتاب أنّ تأليفه للتفسير كان أمنيةً ما فتئت تراوده بين الفينة والأخرى، لكنه كثيرًا ما كان يتردد؛ لانشغاله وكثرة الصوارف، و مهابة الإقدام على أمر عظيم كهذا.

وبعد تردد طويل، واستخارة، واستعانة بالله عز وجل، عزم على الشروع في التفسير. وأقدم عليه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٩.

(٢) شعيب بن أحمد الغزالي، مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، إشراف د. عبد الحافظ إبراهيم البقري، رسالة دكتوراة- جامعة أم القرى، ١٤٣٤- ١٤٣٥ هـ ، ص٣٢.

إقدام الشجاع على وادي السباع. يقول: " فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدنيا والدين، ولكني كنت على كلفي بذلك أتجهم التقحم على هذا المجال؛ اتقاء ما عسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة، فبقيت أسوف النفس مرة، ومرة أسومها زجرا، ولم أزل كلما مضت مدة يزداد التمني وأرجو إنجازه، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدة الحيازة، فإذا الله قد من بالنقلة إلى خطة الفتيا، هنا لك عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمرته، واستعنت بالله تعالى واستخرته، وعلمت أن ما يهول من توقع كلل أو غلط، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد، وتوخيت طرق الصواب والسداد"[(١)].

هذا عن بدايته في كتابة التفسير، وأما عن نهايته فقد بين ــرحمه اللهــ في خاتمة التفسير بعد تفسيره لسورة الناس أنه مكث في كتابته تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر. يقول: "وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يخدم سعيا على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإن قلمي طالما استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حق له أن يستريح.

وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف. فكانت مدة تأليفه تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر. وهي حقبة لم تخل من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازع بقريحة شاربة طورا وطورا غارفة، وما خلا ذلك من تشتت بال، وتطور أحوال، مما لم تخل عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله فإن نعمه أوفى، ومكاييل فضله علي لا تطفف ولا تكفا. وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور. وكان تمامه بمنزلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس، وكتبه: مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور"[(٢)].

وقد طبع هذا التفسير بدار سحنون التونسية ويقع في ثلاثين جزءًا في خمسة عشر مجلدًا، في أحد عشر ألفًا ومائة وسبع وتسعين صفحة عدا صفحات فهارس كل جزء[(٣)]. ثم طبعت طبعة أخرى لنفس الدار في اثني عشر مجلدًا ــ وهي النسخة التي بين يديّ و اعتمدتها في قراءاتي وإحالاتي ــ ثم طبع طبعة ثالثة لمؤسسة التاريخ للعربي في لبنان — بيروت في ثلاثين مجلدًا.

وقد صدّر الطاهر رحمه الله تفسيره بعشر مقدّمات نفيسات في علوم القرآن هي على النحو التالي:

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٣٠/ ٦٣٦وما بعدها.

(٣) مُحَمَّد الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١/٣٦.

ثالثأ– مقدمات التفسير:

يستهلّ الشيخ الطاهر بن عاشور تفسيره بمقدمات عشر كرّسها لعلوم القرآن، وهي كالتالي:

المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علما.

المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير.

المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير بالرأي ونحوه.

المقدمة الرابعة: فيما يحقّ أن يكون غرض المفسر.

المقدمة الخامسة: في أسباب النزول.

المقدمة السادسة: في القراءات.

المقدمة السابعة: قصص القرآن.

المقدمة الثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

المقدمة التاسعة: في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها.

المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن[(١)] .

رابعًا– مصادره في كتابة التفسير.

إن تفسير التحرير والتنوير تفسيرٌ حوى فنونا من العلم، وجمع كنوزا عظيمة، من طالع حروفه تعجب لبراعة ابن عاشور في جمع هذه العلوم في تفسير آية واحدة.

ولا شك أن ابن عاشور قد اعتمد على عدد من المصادر التي تعينه على شق عباب التفسير بعذوبة حرف تصل إلى القلوب، وفيما يلي بيان بالمصادر التي اعتمدها مرتبة كما ذكر في مقدمة تفسيره: يقول: "والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإن أهم التفاسير:

١) تفسير «الكشاف».
٢) و«المحرر الوجيز» لابن عطية.
٣) و«مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازي.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/١٠، ١٨، ٢٨، ٣٨، ٤٦، ٥١، ٦٤، ٧٠، ٩٣، ١٠١.

٤) و«تفسير البيضاوي» الملخص من «الكشاف» ومن «مفاتيح الغيب» بتحقيق بديع.
٥) و«تفسير الشهاب الألوسي».
٦) وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتازانيّ على «الكشاف».
٧) وما كتبه الخفاجي على «تفسير البيضاوي».
٨) و«تفسير أبي السعود».
٩) و«تفسير القرطبي».
١٠) والموجود من «تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي» من تقييد تلميذه الأبي وهو بكونه تعليقا على «تفسير ابن عطية» أشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن.
١١) و«تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري».
١٢) وكتاب «درة التنزيل» المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني. ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها"[(١)].

فلقد اتبع ابن عاشور منهجًا مميزًا في الاستفادة من التفاسير المذكورة، والتي تتردد كثيرًا في تفسيره، وقوام هذا المنهج أنه وقف من هذه التفاسير موقف الناقد الحصيف، فلا يورد اقتباسًا منها إلا ويعقّب عليه بالنقد والجرح والتعديل، ويضيف إلى ما قاله المفسرون إضافات تمتاز بالجدة والتعمّق، والنفاذ إلى مرامي الكتاب العزيز[(٢)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق ، ج١/٧.

(٢) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٧٩.

المطلب الثالث

منهج التفسير

إن تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من التفاسير المهمة في العصر الحديث، وهو تفسير جامع اشتمل على مزايا عديدة، وفوائد جمّة، بذل فيه الشيخ قصارى جهده فكل دارس متخصص في أي علم إذا بحث في هذا التفسير وجد بُغيتَه. "ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير" (١).

- **أولاً- منهج الطاهر بن عاشور المجمل:**

فيما يلي تبيين لمنهج الطاهر بن عاشور المجمل الذي سار عليه في تفسيره كما ذكر في خطبة كتابه:

١. بدأ تفسيره بمقدمات عشر؛ لتكون عونًا للباحث في التفسير، وتغنيه عن مُعاد كثير، وهذه المقدمات تضمنت علمًا غزيرًا عظيمًا.

٢. اهتم ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال.

٣. اهتم ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض.

٤. لم يغادر سورة إلا وبيّن أغراضها، وما تشتمل عليه بإجمال.

٥. اهتم بتحليل الألفاظ، وتبيين معاني المفردات بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة.

٦. عني باستنباط الفوائد، وربطها بحياة المسلمين.

٧. حَرِص على استلهام العبر من القرآن؛ لتكون سببًا في النهوض بالأمّة. فهذا مجمل منهجه الذي بيّنه وسار عليه (٢).

- **ثانيًا- منهج الطاهر بن عاشور المفصّل:**

فيما يلي بيان موجز لمنهج الطاهر بن عاشور في تفسيره من حيث:

- منهج إصلاح التفسير بشكل عام.
- منهجه في التفسير بالمأثور.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٨ .

(٢) المصدر نفسه، ج١/٨. مُحَّد الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص٣٩.

- منهجه في التفسير بالرأي.
- مذهبه العقدي، وموقفه من المذاهب الاعتقادية الأخرى.

ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

• أولاً- منهج إصلاح التفسير:

اقترح الشيخ ابن عاشور منهجًا لإصلاح التفسير يمكن أن تتبين منه المعالم التي اتبعها، يقول: "والذي يجدر أن يؤسس عليه إصلاح علم التفسير ويكون منحولا من التفاسير، هو أن تفسر التراكيب القرآنية جريا على تبيين معاني الكلمات القرآنية بحسب استعمال اللغة العربية، ثم أخذ المعاني من دلالات الألفاظ والتراكيب وخواص البلاغة، ثم استخلاص المعاني المدلولة منها بدلالات المطابقة والتضمن و الالتزام، مما يسمح به النظم البليغ ولو تعددت المحامل والاحتمالات، ثم نقل ما يؤثر عند أئمة المفسرين من السلف والخلف مما ليس مجافيًا للأصول و لا للعربية، وأن يتجنب المفسّر الاستطراد والاندفاع في أغراض ليست من مفادات تراكيب القرآن، وأن لا يقتصر المفسّر على تبيين المعنى بحيث يصير التفسير بمنزلة ترجمة كلام من لغة إلى لغة أخرى"[(١)].

وإن المنهج السابق ليمثل استراتيجية مهمة ابتكرها هذا المصلح الكبير ودعا إليها في نطاق إصلاح تربوي شامل للعلوم الإسلامية التي ضعفت منهجيًا وعلميًا وتخلفت عن الفكر المنهجي الذي بدأ في العلوم العصرية.

• ثانيًا- منهجه في التفسير بالمأثور.

التفسير بالمأثور هو: "ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن رسول الله ﷺ، وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم"[(٢)]. وإن تفسير التحرير والتنوير لا يعد من كتب التفسير بالمأثور إلا أنه جمع بين التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي وهو المعتبر عنده. ولقد بيّن ذلك في مقدمته الثالثة في التفسير، والتي عنون لها بـ: (صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي). حيث قال: "أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر فإن أرادوا به ما روى عن النبي ﷺ من تفسير بعض آيات إن كان مروياً بسند

(١) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، مصدر سابق، ص١٦٩.

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج١/١٣٧.

مقبول من صحيح أو حسن، فإن التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينابيع ما يستنبط من علومه، وناقضوا أنفسهم فيما دونوه من التفاسير، وغلطوا سلفهم فيما تأولوه، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي ﷺ، وقد سأل عمر بن الخطاب أهل العلم عن معاني آيات كثيرة ولم يشترط عليهم أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي ﷺ ... "(١).

وسأبين منهجه في اعتماده التفسير بالمأثور من عدة جوانب، وسأكتفي بذكر مثالٍ أو مثالين على كل فقرة؛ لتعضيد القول، وتقرير الجملة.

أ. تفسير القرآن بالقرآن:

لم يتوسع الشيخ رحمه الله في تفسيره آية بآية أخرى، فكتابه لا يعدّ ممن اعتنى بتفسير القرآن بالقرآن، وإن كان ذلك موجودا فيه، و جُلُّ ما يسوقه في الاستشهادات القرآنية، وقرن الآية بآية أخرى لتأكيد النظائر الأسلوبية(٢).

أما طريقته في تناوله لتفسير القرآن بالقرآن فهي لا تخرج عن طريقين(٣):

الأول: عنايته بتوضيح المعنى بمعنى آخر من آية أخرى توضحه. الثاني: تفسير مجمل الآية بآية أخرى من باب حمل المطلق على المقيد.

ومثال الأول قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين:١٤]. "والقلوب: العقول ومحال الإدراك. وهذا كقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة البقرة:٧]"(٤).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام:١٣١]. في معنى إهلاك القرى يقول: "والإهلاك: إعدام ذات الموجود وإماتة الحي. قال تعالى:

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٣٢.

(٢) أيمن بن غازي بن حسين صابر، الاستنباطات عند العلامة مُحَّد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير جمعًا ودراسة، إشراف أ.د: طه عابدين طه أحمد،١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، ص٧٦.

(٣) عبير بنت عبد الله النعيم، قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير – دراسة تأصيلية تطبيقية، دار التدمرية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، ص٦٣.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/١٩٩.

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [سورة الأنفال:٤٢]. فإهلاك القرى إبادة أهلها وتخريبها، وإحياؤها إعادة عمرانها بالسكان والبناء، قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ [سورة البقرة:٢٥٩]. وإهلاك الناس: إبادتهم، وإحياؤهم إبقاؤهم، فمعنى إهلاك القرى هنا شامل لإبادة سكانها. لأن الإهلاك تعلق بذات القرى، فلا حاجة إلى التمجز في إطلاق القرى على أهل القرى،كما في: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [سورة يوسف:٨٢]. لصحة الحقيقة هنا، ولأنه يمنع منه قوله: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء:١٦]. ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ [سورة الفرقان: ٤٠]"[(١)].

ومثال الثاني: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ [سورة يونس:٥٩]. "والمجعول حراماً هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٣٨]. وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [سورة الأنعام:١٣٩]"[(٢)]. ففسر هذه الآية بما ورد في الآيات الأخرى.

ب. تفسير القرآن بالسنة:

لم يغفل الشيخ ابن عاشور هذا الجانب بل نجده كثيراً ما يستشهد بقول النبي ﷺ في تفسير الآية وترجيح بعض المعاني على غيرها، قال ابن عاشور في مقدمته الثانية: "فاستمداد علم التفسير للمفسر العربي والمولد من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ... وأما الآثار فالمعني بها ما نقل عن النبي ﷺ من بيان المراد من بعض القرآن في موضع الإشكال والإجمال"[(٣)].

ولبيان منهجه في الاستشهاد بالأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ فإنه كثيرًا ما يورد الحديث لبيان معنى الآية، وتفسيرها. ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٨-أ/٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٦/٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١/ ١٨ وما بعدها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام:٨٢]. قال ابن عاشور: "وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك. في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود ﷺ" لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ شَقّ ذلك على المسلمين وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ " فقال لهم رسول الله ﷺ: "ليس كما تَظُنّون إنّما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان:٣]" [(١)].

وإن ابن عاشور تارةً ما يعزو الحديث إلى راويه، في حين أنه يذكره بلا عزو تارةً أخرى:

فمن الشواهد على عزوه الحديث إلى راويه، ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [سورة النور:٢٧]. قال: "وقد بيَّنت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإذا لم يؤذن له انصرف، وورد في هذا حديث أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب –رضي الله عنهما– في «صحيح البخاري» وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى ﷺ كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع**» فقال: والله لتقيمن عليه بينة أَمِنْكُم أحد سمعه من النبي ﷺ فقال أبي بن كعب ﷺ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك [(٢)]" [(٣)].

ومن الشواهد على ذكره الحديث بلا عزو، ما أورده في معرض ذكره لمعنى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول سورة الفاتحة يقول: "فمعنى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أقرأ قراءة ملابسة لبركة هذا الاسم المبارك. وفي الحديث في دعاء الاضطجاع [(٤)]: "باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه" [(٥)]. فذكر الحديث ولم ينسبه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق ، ج٧/٣٣٢.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار السلام – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ_١٩٩٩م، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا، الحديث رقم ٦٢٤٥، ص١٠٨٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/١٩٩.

(٤) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: عصام موسى هادي، دار الصدّيق– الجبيل، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، الباب رقم ٢٠، الحديث رقم: ٣٤٠١، ص١٠٠٩.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/١٥٠.

وكثيرًا ما يحكم ابن عاشور على الحديث الذي يورده بالصحة والضعف، مع أنه لم يشترط ذلك في كتابه، ومن الشواهد على ذلك، قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس:١٦]. "وصف كرام مما وصف به الملائكة في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار:١١]. ووصف البررة ورد صفة للملائكة في الحديث الصحيح قوله: "الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة"(١). وهذا تنويه بشأن القرآن؛ لأن التنويه بالآيات الواردة في أول هذه السورة من حيث إنها بعض القرآن فأثني على القرآن بفضيلة أثره في التذكير والإرشاد، وبرفعة مكانته، وقدس مصدره، وكرم قراره، وطهارته، وفضائل حملته ومبلغيه، فإن تلك المدائح عائدة إلى القرآن بطريق الكناية"(٢).

فإني أرى أن ابن عاشور لم يتبع منهجيةً معينةً، أو طريقةً ثابتة عند استشهاده بأحاديث النبي ﷺ؛ ولعلّ ذلك لطول المدة التي قضاها في التفسير، والتي قاربت الأربعين عامًا كما سبق بيانه.

ت. التفسير بأقوال الصحابة والتابعين:

اعتنى ابن عاشور في تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين عناية فائقة، حيث أكثر في تفسيره من النقل عنهم، ومن أبرز الذين أفاد منهم ابن عاشور من أعلام الصحابة: عمر بن الخطاب، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أعلام التابعين: أبو رزين مسعود بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعامر بن شراحيل الشعبي، ومجاهد بن جبر، والضحاك بن مزاحم، وعكرمة مولى ابن عباس والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وقتادة بن دعامة السدوسي، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي، ومقاتل بن سليمان البلخي.

فنجد ابن عاشور يورد أقوالهم مستدلاً بها، ومعضداً قوله الذي يذهب إليه، وتجده أحياناً يحاول أن يوفق بين أقوالهم والمدلول اللغوي للكلمة، وقد يردُّ ما روى عنهم أحياناً إذا لم يمكن التوفيق بينه وبين سياق الآية، والبحث له عن مخرج، إما بعدم ثبوت القول إلى الصحابي أو التابعي، أو قد يكون خفي عليه المعنى الحقيقي للآية(٣).

---

(١) رواه الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن، الحديث رقم: ٢٩٠٤، ص٨٦٢. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/١١٩.

(٣) عبد الله الريس، ابن عاشور ومنهجه في التفسير، جامعة الإمام، ١٤٠٨ هـ، ج١/٣٤٠.

فمن ذلك ما أورده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ [سورة الحجر:٢]. "عن ابن مسعود: ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر المسلمين. ويتمنون ذلك في الآخرة حين يساقون إلى النار لكفرهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾ [سورة الفرقان:٢٧]. وكذلك إذا أخرج عصاة المسلمين من النار ود الذين كفروا في النار لو كانوا مسلمين، على أنهم قد ودوا ذلك غير مرة وكتموه في نفوسهم عنادا وكفرا. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ ﴾ [سورة الأنعام:٢٧-٢٨]. أي فلا يصرحون به"(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة النحل:١٠١]. قال رحمه الله: "روي عن ابن عباس أنه قال: «كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما مُحَمَّد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه»"(٢).

ومما أورد من أقوال التابعين: قول مجاهد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾ [سورة طه:٥٧-٥٩]. "قال مجاهد: إنه مكان نصف، وكان المراد أنه نصف من المدينة لئلا يشق الحضور فيه على أهل أطراف المدينة. وعن ابن زيد: المعنى مكانا مستويا، أي ليس فيه مرتفعات تحجب العين، أراد مكانا منكشفا للناظرين ليشهدوا أعمال موسى وأعمال السحرة"(٣).

وكانت أقوال التابعين في التحرير والتنوير تمثل جانب الاستئناس فيما تدرك بالعقول معانيه، أو ذكر بعض المرويات عن أسباب النزول، أو أول ما نزل من آيات، أو مكان نزولها(٤).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٤/١١.

(٢) المصدر نفسه، ج١٤/٢٨١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٦/٢٤٦.

(٤) منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، نبيل أحمد صقر، الدار المصرية – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م، ص٣٠٥.

ث. التفسير بأسباب النزول:

يقول ابن عاشور في مقدمته الخامسة التي خصصها للحديث عن أسباب النزول: "أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا، بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها. ونجد لبعض الآي أسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن"(١). إلى أن ختم تلك المقدمة بقوله: "وثمة فائدة عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين"(٢).

فمن ما أورده من أسباب النزول، قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل:٢٨]. "عن عكرمة: نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا فأخرجهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا ببدر"(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٥٩]. يقول: "قال المفسرون: إن هاته الآية نزلت في علماء اليهود في كتمهم دلائل صدق النبيء محمد ﷺ وصفاته وصفات دينه الموجودة في التوراة وفي كتمهم آية الرجم"(٤).

فنجد ابن عاشور قد أورد في تفسيره جملةً من أسباب نزول بعض الآيات، ولم يسرف في ذلك كما يفعل بعض المفسرين، ولم يقتر، وإنما كان وسطًا معتدلاً، وهذا هو ابن عاشور دائمًا ما يقف موقف الوسط في كل شيء، كما سبق بيان ذلك عند الحديث عن مذهبه الفكري في المبحث السابق.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ج١/٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١٤/١٣٨.
(٤) المصدر نفسه ، ج٢/٦٥.

ج. التفسير بالقصص:

"والقصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم. وجمع القصة قصص بكسر القاف، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سمي به المفعول، يقال: قص علي فلان إذا أخبره بخبر. وأبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل. إن في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للأمة، ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها، لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه"(١).

ومثال ذلك: قصة الجلاء في صدر الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [سورة الحشر:٢]. قال ابن عاشور: "وتفصيل القصة التي أشارت إليها الآية على ما ذكره جمهور أهل التفسير: أن بني النضير لما هاجر المسلمون إلى المدينة جاؤوا فصالحوا النبي ﷺ على أن لا يكونوا عليه ولا له، ويقال: إن مصالحتهم كانت عقب وقعة بدر لما غلب المسلمون المشركين لأنهم توسموا أنه لا تهزم لهم راية، فلما غلب المسلمون يوم أحد نكثوا عهدهم وراموا مصالحة المشركين بمكة، إذ كانوا قد قعدوا عن نصرتهم يوم بدر (كدأب اليهود في موالاة القوي) فخرج كعب بن الأشرف وهو سيد بني النضير في أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عونا لهم على مقاتلة المسلمين، فلما أوحي إلى رسول الله ﷺ بذلك أمر محمد بن مسلمة أن يقتل كعب بن الأشرف فقتله غيلة في حصنه في قصة مذكورة في كتب السنة والسير"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، مصدر سابق، ٦٤/١.

(٢) المصدر نفسه، ج٦٧/٢٨ وما بعدها.

ح. التفسير بالناسخ والمنسوخ:

يقول ابن عاشور في معنى النسخ عند تفسيره قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة:١٠٦]. "والنسخ إزالة الشيء بشيء آخر، فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها تقول نسخت الشمس الظل؛ لأن شعاعها أزال الظل وخلفه في موضعه ونسخ الظل الشمس كذلك؛ لأن خيال الجسم الذي حال بين الجسم المستنير وبين شعاع الشمس الذي أناره قد خلف الشعاع في موضعه، ويقال نسخت ما في الخلية من النحل والعسل إلى خلية أخرى، وقد يطلق على الإزالة فقط دون تعويض، كقولهم: نسخت الريح الأثر وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات المزيل، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحا في اللغة وإن أوهمه ظاهر كلام الراغب وجعل منه قولهم نسخت الكتاب إذا خططت أمثال حروفه في صحيفتك إذ وجدوه إثباتا محضا لكن هذا توهم لأن إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية بتشبيه الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ، ثم جاءت من ذلك النسخة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الجاثية:٢٩]. وقال: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٤]. وأما قولهم الولد نسخة من أبيه فمجاز على مجاز.

ولا يطلق النسخ على الزوال بدون إزالة فلا تقول نسخ الليل النهار لأن الليل ليس بأمر وجودي بل هو الظلمة الأصلية الحاصلة من انعدام الجرم المنير. والمراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ ﴾ "[١].

ولم يكثر ابن عاشور من التفسير بالناسخ والمنسوخ، فلم يكن مسرفًا في ذلك، ولم يهمله.

خ. التفسير بالقراءات:

تتلخص طريقة ابن عاشور في عرض القراءات وتوجيهها في أنه يبدأ بقراءة قالون عن نافع؛ لأنها قراءة أهل المدينة والمشهورة في تونس، ثم يذكر القراءات الأصولية والفرشية ثم يوجهها. وتارةً يورد بعض القراءات دون توجيهها. ونجده يعتمد على القراءات المتواترة، ويجعلها الحاكمة على قواعد النحاة وليست تابعة لها[٢]. حيث يقول: "اتفق علماء القراءات والفقهاء على أن كل قراءة وافقت وجها

---

(١) التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٦٥٤.

(٢) أيمن صابر، الاستنباطات عند ابن عاشور في تفسيره، مرجع سابق، ص٨٩. محمد القرني، ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره، مرجع سابق، ص٢٤٩.

في العربية ووافقت خط المصحف- أي مصحف عثمان- وصح سند راويها فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردها"[١].

ويبين ابن عاشور في مقدمته السادسة منهجه في القراءات فيقول: "أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام. وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون؛ لأنها القراءة المدنية إماما وراويا، ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس. ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة"[٢].

ويبين سبب ذكره للقراءات من الأساس فيقول: "وأما القراءات فلا يحتاج إليها إلا في حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها، وإنما يكون في معنى الترجيح لأحد المعاني القائمة من الآية أو لاستظهار على المعنى، فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب، لأنها إن كانت مشهورة، فلا جرم أنها تكون حجة لغوية، وإن كانت شاذة فحجتها لا من حيث الرواية، لأنها لا تكون صحيحة الرواية، ولكن من حيث أن قارئها ما قرأ بها إلا استنادا لاستعمال عربي صحيح، إذ لا يكون القارئ معتدا به إلا إذا عرفت سلامة عربيته"[٣].

ومثال ما يورده من أوجه القراءات في الكلمة الواحدة، قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ [سورة النجم:٥٠-٥١]. "قرأ الجمهور عادا الأولى بإظهار تنوين عادا وتحقيق همزة الأولى. وقرأ ورش عن نافع وأبو عمرو عاد لولى بحذف همزة ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة وإدغام نون التنوين من عادا في لام لولى. وقرأه قالون عن نافع بإسكان همزة الأولى بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة (عاد لؤلى) على لغة من يبدل الواو الناشئة عن إشباع الضمة همزا، كما قرئ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [سورة الفتح:٢٩]. وقرأ الجمهور ﴿وَثَمُودَا﴾ بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١/٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ج١/٢٥.

عليها. وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة"[(١)].

فالقراءات عند ابن عاشور شاهد لغوي، يمكن الاستعانة به لتوضيح معنى آية، أو استدلال به أقوى.

د. التفسير بأقوال من التوراة والإنجيل:

سلك ابن عاشور في إيراد الإسرائيليات منهجاً متميزاً عن كثير من المفسرين، إذ أنه يورد الإسرائيليات كثيراً عن طريق نقله من الكتب المقدسة بمصدرها الأصلي في العهدين الجديد والقديم ، مع ذكر رقم السفر والإصحاح الذي توجد فيه القصة.

ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الأنعام:٧٤]. يقول نقلاً عن الإسرائيليات: "وفي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة أن بلد تارح أبي إبراهيم هو (أور الكلدانيين) . وفي «معجم ياقوت» (أور) – بضم الهمزة وسكون الواو– من أصقاع رامهرمز من خوزستان» . ولعله هو أور الكلدانيين أو جزء منه أضيف إلى سكانه. وفي سفر التكوين أن (تارح) خرج هو وابنه إبراهيم من بلده أور الكلدانيين قاصدين أرض كنعان وأنهما مرا في طريقهما ببلد (حاران) وأقاما هناك ومات تارح في حاران. فلعل أهل حاران دعوه آزر لأنه جاء من صقع آزر. وفي الفصل الثاني عشر من سفر التكوين ما يدل على أن إبراهيم عليه السلام نبيء في حاران في حياة أبيه. ولم يرد في التوراة ذكر للمحاورة بين إبراهيم وأبيه ولا بينه وبين قومه"[(٢)].

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الصف:٦]. يقول: "وهذه الكلمة الجامعة التي أوحى الله بها إلى عيسى عليه السلام أراد الله بها أن تكون شعارا لجماع صفات الرسول الموعود به ﷺ ... جاء في إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين قول عيسى «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرا ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/١٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٧/٧١٣.

هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى» ، ومعنى يكرز: يدعو وينبيء، ومعنى يصير إلى المنتهى: يتأخر إلى قرب الساعة. وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد» . و(فارقليط) كلمة رومية، أي بوانية تطلق بمعنى المدافع أو المسلي، أي الذي يأتي بما يدفع الأحزان والمصائب، أي يأتي رحمة، أي رسول مبشر، وكلمة آخر صريحة في أنه رسول مثل عيسى ... وفي الإصحاح الخامس عشر منه «ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي» .

وفي هذه الأخبار إثبات أن هذا الرسول المبشر به تعم رسالته جميع الأمم في جميع الأرض، وأنه الخاتم، وأن لشريعته ملكا لقول إنجيل متى «هو يكرز ببشارة الملكوت» والملكوت هو الملك، وأن تعاليمه تتعلق بجميع الأشياء العارضة للناس، أي شريعته تتعلق أحكامها بجميع الأحوال البشرية، وجميعها مما تشمله الكلمة التي جاءت على لسان عيسى عليه السلام وهي كلمة اسمه أحمد فكانت من الرموز الإلهية ولكونها مرادة لذلك ذكرها الله تعالى في القرآن تذكيرا وإعلانا"(١) .

وبعد هذا العرض المجمل الذي يوضح اعتماد ابن عاشور للتفسير بالمأثور، إذ فسر القرآن بالقرآن، وبالحديث النبوي، وبيّن القراءات الواردة في الآية، ولم يغفل أقوال الصحابة والتابعين التي تعضّد أقواله، كما أورد أسباب النزول، وسرد القصص بأسلوبٍ أدبي بديع. فأيّ تفسير جمع هذا كله، لهو دليل على سعة مدارك مؤلفه، وتنوّع علمه.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن ابن عاشور قد اعتمد التفسير بالرأي كذلك وأبدع في استخدامه، وفيما يلي بيان ذلك:

• ثالثاً- منهجه في التفسير بالرأي:

التفسير بالرأي هو: "تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسّر"(٢) .

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٨/١٨٦.

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج١/٢٢١.

ومن عناية ابن عاشور -رحمه الله- أنه أفرد التفسير بالرأي بالمقدمة الثالثة من التفسير، والتي عنون لها بـ: (المقدمة الثالثة في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه). يقول فيها: "وهل اتسعت التفاسير وتفننت مستنبطات معاني القرآن إلا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله؟ وهل يتحقق قول علمائنا: «إن القرآن لا تنقضي عجائبه» إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير؟ ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة ... ثم لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرا، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم"[(١)]. **ثم حدد الضوابط والحدود التي يسير الرأي في دائرتها على النحو التالي:**

"١ - أن المراد بالرأي هو القول عن مجرد خاطر، دون استناد إلى النظر في أدلة العربية، ومقاصد الشريعة وتصاريفها، ومالا بد منه.

٢ - أن لا يتدبر القرآن حق تدبره، فيفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير، مقتصراً على بعض الأدلة دون بعض.

٣ - أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة، فيتأول القرآن على وفق رأيه، ويصرفه عن المراد، ويرغمه على تحمل مالا يساعد عليه المعنى المتعارف.

٤ - أن يفسر القرآن برأي مستند إلى ما يقتضيه اللفظ، ثم يزعم أن ذلك هو المراد دون غيره، لما في ذلك من التضييق على المتأولين.

٥ - أن يكون القصد من التحذير أخذ الحيطة والحذر في التدبر والتأويل ونبذ التسرع إلى ذلك"[(٢)].

إلى أن قال في خاتمة المقدمة: " هذا وإن واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم قضى علي أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية. فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١/٣٠ وما بعدها.

الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركا معنى الآية جانبا، جالبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبًا، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد، وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل هذه الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه، تحذيرا للمطالع، وتنزيلا في البرج والطالع"[(١)]. ومن هنا نتبين موقف ابن عاشور من التفسير بالرأي وأنه قد فتح المجال الواسع لبيان معاني القرآن ومدلولات ألفاظه وتراكيبه. **وسأبين منهجه في اعتماده التفسير بالرأي من عدة جوانب، وقد اكتفيتُ بذكر مثال أو مثالين على كل فقرة:**

أ.عنايته باللغة العربية:

▪دور اللغة العربية في فهم معاني القرآن الكريم:

يبين ابن عاشور في المقدمة الثانية من التفسير دور اللغة وقواعد العربية في فهم معاني القرآن الكريم، فيقول: "أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة"[(٢)].

▪منهج ابن عاشور في عنايته باللغة العربية:

يُبيّن ابن عاشور في خطبة الكتاب منهجه في اللغة العربية وما يتعلق بها من أساليب البيان، فيقول: "واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ج١/١٨.

الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير"[(١)].

ومثال ذلك: ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال:٦٩]. يقول: "الفاء تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان: أحدهما: الذي جرى عليه كلام المفسرين أنه تفريع على قوله:﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال:٦٨]. أي لولا ما سبق من حل الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحل فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال:٦٧]. أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾. وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي؛ لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

والوجه الثاني: يظهر لي أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأن المعنى: فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي"[(٢)].

▪دور الشعر في الكشف عن معاني المفردات عند ابن عاشور:

إن الشعر عند ابن عاشور من الوسائل التي تكشف عن معنى كلمة، أو توضيح دلالة، أو بيان أثر الحروف الزائدة على الفعل المجرد، أو التنبيه عن الاستعمالات اللغوية المختلفة لبعض الصيغ التي اشتهرت في العربية. وهو في كل ذلك ينسب البيت إلى صاحبه، وقد يذكر المناسبة التي قيلت فيه، زيادة في البيان، وربما ذكر أكثر من شاهد على ما يذهب إليه سعيًا إلى توكيد عموم الاستخدام واطّراده، لا حالة قائمة بذاتها. وشواهده إنما تمثل عصور الاحتجاج: "الجاهلي وصدر الإسلام والأموي" والتي اتفق عليها علماء اللغة، وفنونها المختلفة من حيث الاحتجاج بها ما دامت خالصة من الشوائب والاختلاط، وبقي لها صفاؤها الذي نقلته الأجيال، حريصة عليها، حارسة له[(٣)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٠/٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١٠/٧٨ وما بعدها.

(٣) نبيل أحمد صقر، منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ص١٥٤-١٥٥.

ومثال ذلك: ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة التحريم:٣]. يقول: "واعلم أن نبأ وأنبأ مترادفان وهما بمعنى أخبر وأن حقهما التعدية إلى مفعول واحد؛ لأجل ما فيهما من همزة تعدية أو تضعيف. وإن كان لم يسمع فعل مجرد لهما وهو مما أميت في كلامهم استغناء بفعل علم. والأكثر أن يتعديا إلى ما زاد على المفعول بحرف جر نحو: نبأت به. وقد يحذف حرف الجر فيعديان إلى مفعولين، كقوله هنا: من أنبأك هذا أي بهذا، وقول الفرزدق:

نبئت عبد الله بالجو أصبحت ... كراما مواليها لآما ما صميمها

حمله سيبويه على حذف الحرف.

وقد يضمنان معنى: اعلم، فيعديان إلى ثلاثة مفاعيل كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدي إلي غرائب الأشعار"[(١)].

■ **دور البلاغة في الكشف عن معاني المفردات عند ابن عاشور:**

من الناحية البلاغية، فإن ابن عاشور قد أفرد المقدمة العاشرة من المقدمات التي تصدرت تفسيره، بإعجاز القرآن. ويرى أن ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات:

"**الجهة الأولى:** بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة "[(٢)]. إلى أن قال: "نرى من أفانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٨/٣٥٥.

(٢) المصدر نفسه ، ج١/١٠٤.

اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال.

وفي القرآن مراعاة التجنيس في غير ما آية والتجنيس من المحسنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [سورة الأنعام: ٢٦]، وفيه التنبيه على محسن المطابقة كقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الحج:٤]. والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]. وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥].

ولذا فنحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز:

وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [سورة مريم:٤]. وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء:٢٤]. إلى غير ذلك من وجوه البديع"[١]. فكان الشيخ ذا ثقافة لغوية أدبية نقدية أثرى بها التفسير وجعله غنيا بشتى المعارف[٢].

ب. الاستعانة بأقوال الفقهاء في تفسير آيات الأحكام:

▪منهج ابن عاشور في الاستعانة بأقوال الفقهاء:

إن تفسير ابن عاشور زاخرٌ بأقوال فقهاء الأمصار، فكثيرًا ما يتعرض ابن عاشور في تفسيره للمسائل الفقهية التي يمر بها، فيبين ما فيها من خلاف، ويوضح أقوال أهل المذاهب، ثم يرجح ما يراه راجحًا. وعلى أن ابن عاشور مالكي المذهب إلا أنه لم يكن متعصبًا لرأيه. بل كان يورد أقوال المذاهب، ويرجح بينها بمقتضى الدليل حيث أنه من أئمة الاجتهاد.

ومثال ذلك: ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/١٠٨ وما بعدها.

(٢) الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٨١.

سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة الحج:٣٦]. يقول: "واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة:

فقال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة، وهو عنده مستحب ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين، والحجة لمالك صريح الآية. فإنها عامة إلا ما قام الدليل على منعه وهي الثلاثة الأشياء المستثناة.

وقال أبو حنيفة: يأكل من هدي التمتع والقران، ولا يأكل من الواجب الذي عينه الحاج عند إحرامه.

وقال الشافعي: لا يأكل من لحوم الهدايا بحال مستندا إلى القياس، وهو أن المهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه. كذا قال ابن العربي. وإذا كان هذا قصارى كلام الشافعي فهو استدلال غير وجيه ولفظ القرآن ينافيه لا سيما وقد ثبت أكل النبي ﷺ وأصحابه من لحوم الهدايا بأحاديث صحيحة.

وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر.

وأما الأمر في قوله: وأطعموا القانع والمعتر فقال الشافعي: للوجوب، وهو الأصح. قال ابن العربي وهو صريح قول مالك. وقلت: المعروف من قول مالك أنه لو اقتصر المهدي على نحر هديه ولم يتصدق منه ما كان آثما"[(١)].

▪اعتناء ابن عاشور في تفسيره بمقاصد الشريعة:

اعتنى ابن عاشور في تفسيره بمقاصد الشريعة، فتعرض لتعليل الأحكام، ويبين أن من مقاصد الشريعة تعيين أنواع الحقوق لأنواع مستحقيها، ويوضح مقاصد أحكام العائلة، ومقاصد التصرفات المالية، والمقصد من العقوبات، إضافةً إلى القواعد الأصولية التي اعتنى بها في تفسيره[(٢)].

ومثال ذلك: ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة النور:٢]. يقول" أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حد الزنا تحقيقا لإقامة الحد وحذرا من التساهل فيه فإن الإخفاء ذريعة للإنساء، فإذا لم يشهده المؤمنون فقد يتساءلون عن عدم إقامته فإذا تبين لهم إهماله

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٧/٢٦٥.

(٢) محمد الحمد، التقريب لتفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص٤٢ وما بعدها. أيمن صابر، الاستنباطات عند ابن عاشور في تفسيره، مرجع سابق، ص٩٠.

فلا يعدم بينهم من يقوم بتغيير المنكر من تعطيل الحدود.

وفيه فائدة أخرى وهي أن من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره، وبحضور طائفة من المؤمنين يتعظ به الحاضرون ويزدجرون ويشيع الحديث فيه بنقل الحاضر إلى الغائب"[(١)].

ومما أورده في بيان مقصد من مقاصد التصرفات المالية: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [سورة الحشر: ٧]. "والمقصود من ذلك إبطال ما كان معتادا في العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة، والفضول. فالمرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش. والصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش، وأما حكمه فهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش. والنشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال. والفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإن ما هو لله وللرسول ﷺ إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله ﷺ وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف. وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل الموات، والفيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءا معينا مثل: الزكاة، والكفارات، وتخميس المغانم، والخراج، والمواريث، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل: القراض والمغارسة، والمساقاة، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل: الفيء والركاز، وما ألقاه البحر، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميته «مقاصد الشريعة الإسلامية» . والدولة بضم الدال: ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرف في شيء وخصها الاستعمال بتداول الأموال"[(٢)].

ومن هنا يتضح للباحثة عناية ابن عاشور بالمقاصد الشرعية؛ إذ هو من أوائل من أحيا علم المقاصد وقد أفرد المقاصد الشرعية بمؤلّفٍ خاصّ، ندر أن يوجد مثله في فنّه، وفي تفسيره التحرير والتنوير أورد بعض المقاصد الشرعية وكذلك العقدية التي لا تظهر إلا لمتأمل مدقق، مستنبط.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/١٥١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٨/٨٦.

ت. الاستشهاد بالعلوم، وأقوال العلماء:

من الأدوات التي استخدمها ابن عاشور في التفسير بالرأي أنه استعان بأقوال الفلاسفة(١)، ولكن في الحدود التي ذكرها في المقدمة الرابعة: "لا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية، وله مزيد تعلق بالأمور الإسلامية كما نفرض أن يفسر قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [سورة النساء:١٦٤]. بما ذكره المتكلمون في إثبات الكلام النفسي والحجج لذلك، والقول في ألفاظ القرآن وما قاله أهل المذاهب في ذلك. وكذلك تقرير مسائل من علم التشريع لزيادة بيان قوله تعالى في خلق الإنسان: ﴿مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [سورة الحج:٥] الآيات فإنه راجع إلى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية.

كما يفسر أحد قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]. فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مدخلا ذلك تحت قوله: خيرا كثيرا. فالحكمة وإن كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمام المعنى للآية إلا أن معنى الآية الأصلي لا يفوت وتفاريع الحكمة تعين عليه، وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ [سورة الحشر: ٧]. تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي، وتوزيع الثروة العامة ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أن ذلك تومئ إليه الآية إيماء. وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقا بتفسير آي القرآن كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان التمانع لتقرير معنى قوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وكتقرير مسألة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧] فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى:

(١) شارح الطحاوية لخص مذهب الفلاسفة في خمسة أصول، هي: أن الله ﷻ موجود لا حقيقة له ولا ماهية، ولا يعلم الجزئيات بأعيانها ولكنه يعلمها إجماليا، وبالتالي أنكروا خلق أفعال عباده. كما لا يؤمنون بكتبه، إذ أن الله عندهم لا يتكلم و لا يكلم، وأن القرآن فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زكي النفس طاهر _تعالى الله عن وصفهم علوا كبيرا_ وأن الملائكة ليست ذواتا منفصلة! إنما هي عندهم أمورا ذهنية لا وجود لها في الأعيان. والفلاسفة أشد الناس إنكارا لليوم الاخر وأحداثه، وما الجنة والنار عندهم إلا أمثالا مضروبة لتفهيم الناس العوام، ولا حقيقة لها في الخارج!. صدر الدين ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ج٢/٤٠٢ وما بعدها. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج٢/ص١١٦. د. مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مرجع سابق، ج٢/١١٠٨ وما بعدها.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [سورة ق:٦] فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيئة كان قد زاد المقصود خدمة.

وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع. وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [سورة الكهف:٤٧]. أن فناء العالم يكون بالزلازل، ومن قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [سورة التكوير:١]. أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم. وشرط كون ذلك مقبولا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم"[(١)] . إلى أن قال: "**إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:**

الأولى: علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيئة وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي"[(٢)] .

ويقول عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران:٣١]. "ولم يستطع الفلاسفة توضيح علة ملاءمة بعض ما يعبر عنه بالجمال للنفوس: ككون الذات جميلة أو قبيحة الشكل، وكون المربع أو الدائرة حسنا لدى النفس، والشكل المختل قبيحا، ومع الاعتراف باختلاف الناس في بعض ما يعبر عنه بالجمال والقبح، وأن بعض الناس يستجيد من الملابس ما لا يرضى به الآخر ويستحسن من الألوان ما يستقبحه الآخر، ومع ذلك كله فالمشاهد أن معظم الأحوال لا يختلف فيها الناس سالمو الأذواق"[(٣)] .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٢ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، مصدر سابق، ج١/٤٥.

(٣) المصدر نفسه، مصدر سابق، ج٣/٢٢٦.

رابعًا- مذهبه العقدي، وموقفه من المذاهب الاعتقادية الأخرى:

لقد سار ابن عاشور في الجملة على منهج السلف الصالح في أبواب العقيدة، عدا آيات الصفات، فهو يسير فيها على وفق منهج الأشاعرة، وإن كان يخالفهم أحيانًا ويقترب من منهج السلف. وإذا تعرض لتأويل آية جاء بأقوال السلف، وربما انتصر لهم. وإذا خالفهم في تأويل صفة أثنى عليهم، واعتذر لهم دون تعنيف أو تسفيه، ويُلتمس له العذر فيما وقع فيه من تأويل وقع فيه كثير من المفسرين بأنه نشأ في بيئة علمية أشعرية.

فيقول بعد عرضه لأقوال الفرق في مسمى الإيمان: "هذه جوامع أقوال الفرق الإسلامية في مسمى الإيمان. وأنا أقول كلمة أربأ بها عن الانحياز إلى نصرة، وهي أن اختلاف المسلمين في أول خطوات مسيرهم، وأول موقف من مواقف أنظارهم، وقد مضت عليه الأيام بعد الأيام وتعاقبت الأقوام بعد الأقوام يعد نقصا علميا لا ينبغي البقاء عليه، ولا أعرفني بعد هذا اليوم ملتفتا إليه"[(١)] .

ولم يكن القول بأشعريته جزافاً، وإنما يبدو ذلك جليًا من طريقين:

١) تصريحه بالانتماء إلى الأشاعرة:

ومن الشواهد على ذلك: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه:٥].

"وأما ذكر الاستواء فتأويله أنه تمثيل لشأن عظمة الله بعظمة أعظم الملوك الذين يجلسون على العروش. وقد عرف العرب من أولئك ملوك الفرس وملوك الروم، وكان هؤلاء مضرب الأمثال عندهم في العظمة. وتقدم القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]. وإنما أعدنا بعضه هنا؛ لأن هذه الآية هي المشتهرة بين أصحابنا الأشعرية"[(٢)] .

وكذلك قوله "الآية أسعد بمذهبنا أيها الأشاعرة" عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة البقرة:٣٨][(٣)] .

تقريره لمذهب الأشاعرة، وترجيحه له عند عرض المذاهب في المسألة.

ومن الشواهد على ذلك: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/ ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج١٦/ ١٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١/ ٤٤٣.

مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة هود:١٣] "فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن متواترًا بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها. وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك، فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب، ويعرف هذا القول بالصِّرفة. وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمة الأشعرية، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة"[١].

وقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [سورة الفاتحة:٦]. "واختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية فالجمهور على عدم اعتباره وأنها الدلالة على طريق الوصول سواء حصل الوصول أم لم يحصل وهو قول الأشاعرة وهو الحق، وذهب جماعة منهم الزمخشري إلى أن الهداية هي الدلالة مع الإيصال وإلا لما امتازت عن الضلالة أي حيث كان الله قادرا على أن يوصل من يهديه إلى ما هداه إليه"[٢].

وإن تفسير ابن عاشور مليء بذكر المذاهب الاعتقادية المختلفة، والتي يتفق مع بعضها أحيانًا، ويختلف معها في أحايين أخرى، وإنه يورد أقوال رجال كل مذهب من مصادر المذاهب الأصلية، كما سيتبين معنا من خلال الأمثلة، ومن المذاهب الاعتقادية التي تعرض لها بالعرض والرد: الصوفية والمعتزلة، والجبرية، والشيعة والخوارج. والبهائية التي خرجت عن دائرة الإسلام.

وفيما يلي أمثلة للمذاهب التي ذكرها في تفسيره، وموافقته أو مخالفته لهم وقد عرضت المذاهب مرتبة حسب الحروف الأبجدية، ثم ختمت الحديث بذكر البهائية؛ لكونها خرجت عن دائرة الإسلام:

أولاً- الجبرية[٣]:

(١) المصدر نفسه، ج١/١٠٣ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج١/١٨٨.

(٣) الجبرية من الفرق الكلامية التي تقول بالجبر، أي أن العباد مجبورون على أعمالهم، وأن الله تعالى يخلق أفعالهم على الحقيقة ولا دور لهم فيها، وإنما يضاف إليهم على سبيل المزاج، ومن أهم أفكارهم: إنكار كثير من أمور اليوم الآخر =

تناول ابن عاشور مذهب الجبرية في تفسيره بشيء من الإجمال، من خلال عرض معتقدهم ثم يرد عليه ويبين بطلانه. وشاهد ذلك ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة:٨٨]. "فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق، وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم؛ لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية"[(١)]. فهذا دليل مخالفة الجبرية لمعتقد أهل السنة والجماعة.

وكذلك ما أورده عن المشيئة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [سورة التكوير: ٢٨]. "وهذه الآية صريحة في إثبات المشيئة للإنسان العاقل فيما يأتي ويدع، وأنه لا عذر له إذا قال: هذا أمر قدر، وهذا مكتوب عند الله، فإن تلك كلمات يضعونها في غير محالها، وبذلك يبطل قول الجبرية، ويثبت للعبد كسب أو قدرة على اختلاف التعبير"[(٢)].

وفي بعض المواضع يكتفي بالإشارة إلى الجبرية إشارة سريعة.كما قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الليل:١٢-١٣]. "استئناف مقرر لمضمون الكلام السابق، وذلك لإلقاء التبعة على من صار إلى العسرى بأن الله أعذر إليه إذ هداه بدعوة الإسلام إلى الخير فأعرض عن الاهتداء باختياره اكتساب السيئات، فإن التيسير لليسرى يحصل عند ميل العبد إلى عمل الحسنات، والتيسير للعسرى يحصل عند ميله إلى عمل السيئات. وذلك الميل هو المعبر عنه بالكسب عند الأشعري، وسماه المعتزلة: قدرة العبد، وهو أيضا الذي اشتبه على الجبرية فسموه الجبر"[(٣)].

ثانيًا- الخوارج[(٤)]:

أكثر ابن عاشور من ذكر الخوارج في تفسيره، وغالبًا ما يقترن ذكرهم مع المعتزلة؛ لانحراف قولهم في

=

كالصراط والميزان ورؤية الله تعالى، وعذاب القبر والقول بفناء الجنة والنار، وأول من قال بهذه المقالة في الإسلام هو الجعد بن درهم. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ص١٠١ وما بعدها.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٦٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٣٠/١٦٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ٣٠/٣٨٨.

(٤) الخوارج فرقة كبيرة من الفرق الإسلامية، وتعتبر من أوائل الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام، ومن أهم أفكارهم: تكفير مرتكب الكبيرة، ووجوب الخروج على الأئمة المسلمين لارتكاب الفسق أو الظلم، والتبرؤ من عثمان وعلي. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ص١٣٢ وما بعدها.

مرتكب الكبيرة، ومدار حديث ابن عاشور عن الخوارج إنما كان عرض لقولهم في أن مرتكب الكبيرة خالد في النار كالكافر، ومن ثمّ يبين فساد رأيهم، ويرد عليهم.

ومن شواهد ذلك قوله: "ترى مؤمن آل فرعون لم يهمل ذكر الإيمان بعد أن اهتم بتقديم الأعمال فتراه يقول: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [سورة غافر:٤٠]. فالإيمان هو أس هيكل النجاة، ولذلك كان الكفر أسّ الشقاء الأبدي، فإن كل عمل سيء فإن سوءه وفساده جزئي منقض فكان العقاب عليه غير أبدي، وأما الكفر فهو سيئة دائمة مع صاحبها؛ لأن مقرها قلبه واعتقاده وهو ملازم له فلذلك كان عقابه أبديا، لأن الحكمة تقتضي المناسبة بين الأسباب وآثارها فدل قوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [سورة غافر:٤٠]. أن جزاء الكفر شقاء أبدي لأن مثل الكفر في كونه ملازما للكافر إن مات كافرا. وبهذا البيان أبطلنا قول المعتزلة والخوارج بمساواة مرتكب الكبائر للكافر في الخلود في العذاب، بأنه قول يفضي إلى إزالة مزية الإيمان، وذلك تنافيه أدلة الشريعة البالغة مبلغ القطع"(١) .

وفي موضع آخر يعجب من قولهم ذلك _أن مرتكب الكبيرة خالد في النار_ فيقول: "ومن العجيب أن يصدر هذا القول من عاقل فضلا عن عالم، ثم الأعجب منه عكوف أتباعهم عليه تلوكه ألسنتهم ولا تفقهه أفئدتهم وكيف لم يقيض فيهم عالم منصف ينبري لهاته الترهات فيهذبها أو يؤولها كما أراد جمهور علماء السنة من صدر الأمة فمن يليهم"(٢) .

كما تناول مذهب الخوارج الفقهي بالبيان، فلم يكتفِ بتناول مذهبهم العقدي، ومن ذلك مسألة الإمام الفاسق، فيقول: "إذا عقد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار، فإن كان فسقه بكفر وجب خلعه، وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبعض أهل السنة يخلع، وقال جمهور أهل السنة لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحدود، ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة وهذا مع القدرة على خلعه، فإن لم يقدر عليه إلا بفتنة وحرب فاتفقوا على منع القيام عليه، وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء انطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة"(٣) .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٤/١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١/٢٧٠.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٧٠٧.

ثالثًا– الشيعة(١):

لقد ذكر ابن عاشور في تفسيره بعض أقوال الشيعة، ووقف من بعضها موقف الرد، وبيان فسادها وبطلانها، كما اكتفى في بعض المواضع بالعرض، وبيان المذهب _العقدي أو الفقهي_ دون الرد.

ومما بيّن فساده وبطلانه من أقوالهم، قوله بعد تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة:٦٧]. "فهي أقطع آية لإبطال قول الرافضة بأن القرآن أكثر مما هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأن رسول الله اختص بكثير من القرآن عليا بن أبي طالب وأنه أورثه أبناءه وأنه يبلغ وقر بعير، وأنه اليوم مختزن عند الإمام المعصوم الذي يلقبه بعض الشيعة بالمهدي المنتظر وبالوصي"(٢).

ومن المواطن التي خالفهم فيها ابن عاشور ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٥٦]. أن من السنة في تمييز رجال الدين، اقتصار الصلاة على النبي محمد ﷺ، وبقية الأنبياء والملائكة لهم التسليم. إلى أن قال: "وأما الشيعة فإنهم يذكرون التسليم على علي وفاطمة وآلهما، وهو مخالف لعمل السلف فلا ينبغي اتباعهم فيه لأنهم قصدوا به الغض من الخلفاء والصحابة"(٣).

رابعًا– الصوفية(٤):

---

(١) الشيعة هم الذين شايعوا عليا ﷺ على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر. والقول بالتولي والتبري قولا، وفعلا، وعقدا، إلا في حال التقية. ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك. وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ص١٦٧ وما بعدها.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦/٢٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٢/١٠٣.

(٤) التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعاتٍ فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري. ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة =

لقد أسس المتصوفة تفسيرهم للقرآن الكريم على أن لكل آية ظهرًا وبطنًا، وحدًا ومطلعًا، ووجوب الجمع بين الظاهر والباطن، وعدم جواز التفسير الباطني إلا لأهل الكشف[(١)].

وإن موقف ابن عاشور من هذا المذهب يتضح فيما يذكره من أقوال رجاله، وشاهد ذلك ما أورده عن الغزالي في معنى الإخلاص عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [سورة الزمر:٣]. "وعرف الغزالي الإخلاص بأنه تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب"[(٢)]. وكذلك ما ما أورده عن الغزالي عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [سورة النور:٣٥]. " قال الغزالي في رسالته المعروفة «بمشكاة الأنوار»: النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور"[(٣)].

وما نقل عن الحسن البصري عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [سورة الذاريات:٧]. يقول: "واعلم أن رواية رويت عن الحسن البصري أنه قرأ الحبك بكسر الحاء وضم الباء، وهي غير جارية على لغة من لغات العرب"[(٤)]. وما نقل عنه كذلك يقول: "وعن الحسن البصري: جعل الله الدين بين لاءين ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ [سورة هود:١١٢-١١٣]"[(٥)].

ومن المواطن التي وافقهم فيها: ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة:٥]. "وقد فسر الصوفية العبادة بأنها فعل ما يرضي الرب، والعبودية بالرضا بما يفعل الرب. فهي أقوى. وقال بعضهم: العبودية الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود،

=

معروفة باسم الصوفية، ويتوخّى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق إتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة. ويلاحظ أن هناك فروقاً جوهرية بين مفهومي الزهد والتصوف أهمها: أن الزهد مأمور به، والتصوف جنوح عن طريق الحق الذي اختطَّه أهل السنة والجماعة. د. مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مرجع سابق، ج٢٤٧/١ وما بعدها.

(١) نبيل صقر، منهج ابن عاشور في التفسير، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣١٨/٢٣.

(٣) المصدر نفسه ج٢٣٢/١٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٣٤١/٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ج١٧٧/١٢.

وهذه اصطلاحات لا مشاحة فيها"[(١)].

خامسًا– المعتزلة[(٢)]:

قد أقام المعتزلة تفسيرهم على التأويل، وأبرز مقومات التأويل هو التوسع اللغوي. ويعد كتاب: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، عمدة كتب التفسير الاعتزالي. وكثيرًا ما ينقل ابن عاشور من هذا التفسير خاصة فيما يتعلق باللغة والبلاغة، وفنونهما المختلفة. كما تظهر مخالفته للمذهب الاعتزالي، وللزمخشري بخاصة إذا تباعدت الآراء، واختلفت الأقوال[(٣)]. ومما نقله ابن عاشور من تفسير الزمخشري لبعض الآيات: ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد:٣]. " قال الزمخشري: «الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولية والآخرية. والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين» اهـ. وهو تشبث لا داعي إليه ولا دليل عليه ولو أريد ذلك لقال: هو الأول الآخر، والظاهر الباطن، بحذف واوين. والمعنى الذي حاوله الزمخشري: تقتضيه معاني هاته الصفات بدون اختلاف معاني الواوات"[(٤)].

وكذلك "قال في «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [سورة الفرقان:٤٢]. و (لولا) في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى لا من حيث الصنعة مجرى التقييد للحكم المطلق. اهـ"[(٥)].

وما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد:٢٧]. "جعل في «الكشاف»: الرهبانية مشتقة من الرهب، أي الخوف من الجبابرة، أي الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/١٨٠.

(٢) فرقة من الفرق الإسلامية، ظهرت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقّبون بالقدرية والعدلية. ومن أهم أفكارهم: أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، وأن العبد هو الفاعل للخير والشر، ويعتمدون على العقل كليا في الاستدلال لعقائدهم، ويقولون بخلق القرآن، واستحالة رؤية الله تعالى بالبصر. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ص٧٢ وما بعدها.

(٣) نبيل صقر، منهج ابن عاشور في التفسير، مرجع سابق، ص٢٥٢ وما بعدها.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢٨/١٣٧.

اليهود، وأن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين اهـ. ونصب رهبانية على طريقة الاشتغال. والتقدير: وابتدعوا رهبانية. وليس معطوفا على رأفة ورحمة؛ لأن هذه الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم فلا يستقيم كونها مفعولا لجعلنا، ولأن الرهبانية عمل لا يتعلق بالقلوب وفعل جعلنا مقيد بفي قلوب الذين اتبعوه فتكون مفعولاته مقيدة بذلك، إلا أن يتأول جعلها في القلوب بجعل حبها كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [سورة البقرة: ٩٣]. وعلى اختيار هذا الإعراب مضى المحققون مثل أبي علي الفارسي والزجاج والزمخشري والقرطبي. وجوز الزمخشري أن يكون عطفا على رأفة ورحمة. واتهم ابن عطية هذا الإعراب بأنه إعراب المعتزلة فقال: «والمعتزلة تعرب رهبانية أنها نصب بإضمار فعل يفسره ابتدعوها ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله فيعربون الآية على هذا» اهـ. وليس في هذا الإعراب حجة لهم ولا في إبطاله نفع لمخالفتهم كما علمت"(١).

سادسًا– البهائية(٢):

لم ترد هذه النحلة في تفسير ابن عاشور إلا في هذا الموضع، وقد أفاد القارئ بذكره لأهم ما تعتقده هذه النِّحلة، وبيّن ضلالها تبيينًا لا يحتاج بعده إلى بيان . فقد ذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب:٤٠]. "وقد أجمع الصحابة على أن مُحَمَّدا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء، وعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم، ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي فصار معلوما من الدين بالضرورة، فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأن مُحَمَّدا ﷺ رسول الله للناس كلهم.

ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يثبت نبوءة لأحد بعد مُحَمَّد ﷺ وفي إخراجه من حظيرة الإسلام، ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك إلا البابية والبهائية وهما نحلتان مشتقة ثانيتهما من الأولى ... فمن كان من المسلمين متبعًا للبهائية أو البابية فهو خارج عن الإسلام، مرتد عن دينه تجري عليه أحكام المرتد. ولا يرث مسلما ويرثه جماعة المسلمين ولا ينفعهم قولهم: إنا مسلمون ولا نطقهم بكلمة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٤٢٢.

(٢) البابية والبهائية حركة نبعت من المذهب الشيعي تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي؛ بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسية. ومن أهم أفكارهم: أنهم ينكرون معجزات الأنبياء، وحقيقة الملائكة والجن، كما ينكرون الجنة والنار. ويؤولون القرآن تأويلات باطنية؛ ليتوافق مع مذهبهم. د. مانع الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مرجع سابق، ج١/٤٠٩ وما بعدها.

الشهادة، لأنهم يثبتون الرسالة لمحمد ﷺ ولكنهم قالوا بمجيء رسول من بعده. ونحن كفرنا الغرابية من الشيعة لقولهم: بأن جبريل أرسل إلى علي ولكنه شبه له مُحَمَّد بعلي إذ كان أحدهما أشبه بالآخر من الغراب بالغراب (وكذبوا) فبلغ الرسالة إلى مُحَمَّد ﷺ، فهم أثبتوا الرسالة لمحمد ﷺ ولكنهم زعموه غير المعين من عند الله"[١].

فهذه جملة المذاهب الاعتقادية التي تناولها ابن عاشور في تفسيره بالإيضاح والبيان، كما أنه قد عرج على غيرها تعريجًا سريعًا كالبيانية والمنصورية، والباطنية الإسماعيلية[٢]، وغيرها. وإنا لنجد أن كل هذه المذاهب والنحل مخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، إما اختلافًا ينقص الإيمان، وإما اختلافًا يخرج من الملة والعياذ بالله. وقد بين ابن عاشور ذلك بيانًا شافيًا وافيًا، إذ لم يقتصر على عرض معتقد هذا المذهب المخالف، فقد يعرج على تاريخ هذا المذهب ونشأته وإلى من ينسب، كما فعل حين حديثه عن البهائية والمعتزلة.

وبعد استقرائي لمنهج ابن عاشور حين حديثه عن هذه المذاهب خلصت إلى عدة أمور:

١. أن موقف ابن عاشور من أهل السنة والجماعة، وكذلك الأشاعرة، يختلف عن موقفه من المعتزلة والشيعة والبهائية وغيرها، من حيث تأييده لمنهج أهل السنة والجماعة، وتقلبه بين تأييد الأشاعرة ونقدهم، ورده للمذاهب الأخرى، وتناول أقوالهم بالعرض ثم بيان بطلانها.

٢. تناول بعض المذاهب المؤثرة، والمنتشرة في أوساط العامة بالحديث الطويل، والرد المحكم، والحجة الواضح والبرهان القاطع، كتناوله لمذهب المعتزلة، والجبرية، والخوارج.

٣. لم يتبع ابن عاشور منهجيةً ثابتة عند تناوله لهذه المذاهب فتارةً يجمل الحديث بلا تفصيل، وتارةً يفصل في تناول المذهب فيذكر نشأته وإلى من ينسب، ومرةً يقتصر على المذهب العقدي فقط، وتارةً يعرج على المذهب الفقهي. ومرةً يطنب في بيان فساد المذهب، ومرةً يقتضب. فلم تكن له منهجية ثابتة؛ ولعل ذلك لطول المدة التي قضاها في كتابة هذا التفسير كما ذكرت سابقًا.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٢/٤٥ وما بعدها.

(٢) هي فرقة من فرق الشيعة في الأصل، وتنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر، جد الخلفاء الفاطميين. ومن أشهر ألقابهم: الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا. الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ص٢١٠ وما بعدها. عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق: مُحَمَّد فتحي النادي، دار السلام – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م، ص٨٨ وما بعدها.

وأخيراً، "إنك إذا تأملت تفسير العلامة الشيخ ابن عاشور ألفيت العقل الراجح، والرأي الصائب، وسعة الفكر، وقوة البيان، مع الحجة القوية والبرهان القاطع"[١].

(١) ابن الخوجة، شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور مرجع سابق، ج١/٣٢٠.

المبحث الثالث
مقاصد العقيدة الإسلامية في تفسير الطاهر بن عاشور

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف مقاصد العقيدة الإسلامية، وأقسامها (العامة، والخاصة، والجزئية).

المطلب الثاني: منهج ابن عاشور في الكشف عن المقاصد العقدية وإثباتها.

المطلب الثالث: العلاقة بين مقاصد الشريعة، ومقاصد العقيدة.

المطلب الأول

تعريف مقاصد العقيدة الإسلامية، وأقسامها: (العامة، والخاصة، والجزئية).

أ- تعريف المقاصد لغة:

المقاصد جمع كلمة مقصد، وقاصد مصدر للفعل (قَصَدَ) يقصد قصدًا. والقصد في المعاجم ورد بعدة معانٍ:

١. **استقامة الطريق**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النحل:٩]. أي عَلَى اللهِ تَبْيِينُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ والدعاءُ إليه بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ، وَمِنْهَا جَائِرٌ أَي وَمِنْهَا طَرِيقٌ غَيْرُ قَاصِدٍ. والقاصِدُ: القريب، يقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي هينة السيرِ، لا تعبَ فيه ولا بطءَ[(١)].

٢. **والقَصْدُ**: إتيان الشَّيْءِ. تَقُولُ: قصَدْتُه وقصدْتُ لَهُ وقصدْتُ إليه[(٢)].

٣. **الاعتمادُ والأَمُّ**. قَصَدَه يَقْصِدُه قَصْداً وقَصَدَ لَهُ وأَقْصَدَني إليه الأَمرُ، وَهُوَ قَصْدُكَ وقَصْدَكَ أَي تُجاهَك[(٣)].

٤. **العَدْل**؛ وَفِي الْحَدِيثِ: " والقَصدَ القصدَ تَبْلُغُوا "[(٤)] أَي عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ مِنَ الأَمور فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَهُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ. والقَصْد فِي الشَّيْءِ: خلافُ الإِفراطِ وَهُوَ مَا بَيْنَ الإِسراف وَالتَّقْتِيرِ. وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ: أَن لَا يُسْرِفَ وَلَا يُقَتِّر. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [سورة لقمان:١٩].

---

(١) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ، ج٣/٣٥٣. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار، دار العلم للملايين-بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ_١٩٨٧م، ج٢/٥٢٥. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج٥/٥٤ وما بعدها.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٣/٣٥٣. أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ_١٩٧٩م، ج٥/٩٥. أحمد بن فارس الرازي، مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ_١٩٨٦م، ج١/٧٥٥.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٣/٣٥٣. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٥/٩٥.

(٤) رواه البخاري، في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الحديث رقم ٦٤٦٣ ، ص١١٢١.

وَاقْصِدْ بِذَرْعِكَ؛ أَي ارْبَعْ عَلَى نفسِك. وَقَصَدَ فُلَانٌ فِي مَشْيِهِ إِذا مَشَى مُسْتَوِيًا[(١)] .

ومن خلال المعاني اللغوية السابقة تبين أن المقاصد تعني إتيان الشيء واعتماده، والتوجه إليه، في اعتدال بلا إسرافٍ ولا تقتير. وإني ألحظ اعتماد المعنى الاصطلاحي للمقاصد على المعنى اللغوي، كما يتبين لنا من خلال العرض الآتي:

ب. تعريف المقاصد اصطلاحا:

إن العلماء المتقدمين أو المعاصرين لم يضعوا تعريفًا اصطلاحيًا للمقاصد متفقا عليه، وإن المتأمل لما كتب المتقدمون ليجد أن موضوع المقاصد منثور بين كلامهم، يتطرقون له ضمنًا، ولم تنفرد المقاصد بعلم مستقل إلا بعد التفات العلماء المعاصرين، أمثال ابن عاشور، وعلال الفاسي ومن بعدهم. ومن التعريفات المعاصرة المشهورة للمقاصد اصطلاحاً، ما يلي[(٢)] :

١. تعريف الإمام الغزالي[(٣)]:

المقاصد عند الغزالي هي: "كشف الحقائق، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح إلا المجاهدة، وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات"[(٤)] .

٢. تعريف الإمام ابن عاشور:

عرّف ابن عاشور المقاصد في مواضع متعددة من كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، حيث قسم

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٣/٣٥٣. الجوهري، الصحاح، مرجع سابق، ج٢/٥٢٤-٥٢٥. الفراهيدي، العين، مرجع سابق، ج٥/٥٥.

(٢) التعريفات المذكورة مرتبة ترتيبًا تاريخيًا بالأقدم ثم الأحدث.

(٣) أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزالي، الملقب حجة الإسلام، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، ولي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، ثم الجامع الغربي بدمشق، ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب " الوسيط " و " البسيط " و " الوجيز " و " الخلاصة " في الفقه، ومنها " إحياء علوم الدين " وهو من أنفس الكتب وأجملها، وله في أصول الفقه " المستصفى " وغيرها، وكتبه كثيرة وكلها نافعة، توفي ٥٠٥ هـ. أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ج٤/٢١٦ وما بعدها.

(٤) مُحَمَّد عبدو، مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م، ص٢١. أبو حامد مُحَمَّد الغزالي، قواعد العقائد، إحياء علوم الدين، ج٤، القاهرة مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩م، ج١/١٣٩.

المقاصد إلى مقاصد عامة وخاصة، وعرّف كل قسمٍ على حدة، فيقول في تعريف المقاصد العامة: "المقاصد هي الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها، والتي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساعٍ شتى، أو تُحمل على السعي إليها امتثالا"[(١)].

كما عرّفها في موضع آخر فقال: "هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة ، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معاني من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"[(٢)].

بينما يعرف المقاصد الخاصة بأنها "الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة"[(٣)].

فيتضح من خلال تعريف ابن عاشور تقسيمه المنطقي للمقاصد إذ قسمها إلى مقاصد عامة وخاصة، فالعامة هي أشبه بالكلّيات بما فيها من حكم وغايات تطّرد في باب واحد، بينما تكون المقاصد الخاصة في نوع خاص، أو حكم خاص.

وإن المقاصد الشرعية والمقاصد العقدية، سواءٌ في ذلك التقسيم، كما سيتبين عند بيان أقسام المقاصد العقدية.

٣. تعريف العلامة علاّل الفاسي:

" المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[(٤)].

وإني أراه جمع في تعريفه هذا بين المقاصد العامة والخاصة في تعريف واحد.

٤. تعريف الدكتور أحمد الريسوني:

صرّح الريسوني بأن تعريفه للمقاصد مبني على التعريفين السابقين بعد أن أوردهما في كتابه نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، فقال: "وبناء على هذه التعريفات والتوضيحات لمقاصد الشريعة لكل من ابن

---

(١) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٠٢.

(٤) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الكلمة – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ص٧.

عاشور وعلال الفاسي، وبناء على مختلف الاستعمالات والبيانات الواردة عند العلماء الذين تحدثوا عن موضوع المقاصد، يمكن القول: إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعتها الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"[(١)].

٥. تعريف الدكتور عبد المجيد النجّار:

ظل يتجه إلى مقاصد الأحكام المتعلقة بالإيمان[(٢)]. وإن النجّار هو الوحيد الذي أفرد المقاصد العقدية بالتعريف؛ لحصره التعريف فيما يتعلق بالإيمان من مقاصد، في أوجز لفظٍ وأبلغ عبارة.

٦. تعريف الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي:

تعرض الخادمي لتعريف المقاصد في كتابه: "**الاجتهاد المقاصدي**"، واختار تعريفا له بعد أن أورد التعريفات السابقة فقال: "المقاصد هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها سواء أكانت تلك المعاني حكما جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية ، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين[(٣)].

وبعد هذا العرض لتعريفات العلماء لمعنى المقاصد اصطلاحًا، فهذه بعض الملامح التي ينبغي أن أسلط الضوء عليها:

- اصطباغ جميع التعريفات السابقة بالصبغة الفقهية؛ كونها تتعلق بمقاصد الشريعة، إلا تعريف واحد هو تعريف النجّار الذي جعله مختصًا بالمقاصد العقدية.
- اتفاقها على أن المقاصد عبارة عن حكم وغايات وأسرار، وإن اختلفت العبارة إلا أن المعنى يشير إلى ذلك.
- أن المقاصد تنقسم إلى: مقاصد عامة، ومقاصد خاصة، ومقاصد جزئية، كما نصت على ذلك بعض التعريفات كتعريف ابن عاشور، أو دل عليه ظاهر التعريف كما في تعريف علال الفاسي.
- أن هذه التعريفات تدور في جملتها إلى كون المقاصد هي: جملة الأوامر والنواهي التي تبين مراد الله

---

(١) د. أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، مكتبة الهداية – المغرب، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، ص١٩.

(٢) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص١٥.

(٣) نور الدين الخادمي، الاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ_١٩٩٨م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ص٥٢-٥٣.

من أحكامه؛ لتحقيق ما فيه صلاح العباد والبلاد.

وبما أن علم المقاصد العقدية علم حديث التأليف، فلا شك أن فيه نقص من جوانب عدة، فلم أجد أحدا من العلماء قد نص على تعريفها في حدود بحثي واطّلاعي، إلا ما أوردت من تعريف النجار السابق، ولعلّي أسهم في بناء هذا العلم، فأقول في **تعريف المقاصد العقدية: "بأنها هي الحكم والغايات والأسرار من جملة الأوامر والنواهي، التي تبين مراد الله من خلقه؛ فيما يتعلق بالإيمان، من تقرير عبودية الله وحده؛ بما فيه من تحقيق صلاح العباد والبلاد".**

وإن كنت سأعتمد تعريفًا من التعريفات السابقة، فإني سأعتمد تعريف الدكتور أحمد الريسوني السابق: بأن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد. فمن رأيي أنه هو الأقرب للصواب لسببين:

- كونه يعتمد على تعريف الإمامين ابن عاشور، وعلاّل الفاسي، وهما من أوائل من أسس علم المقاصد.

- كونه تعريف موجز اللفظ، جامع لأقسام المقاصد العامة والخاصة والجزئية. والله أعلم.

ث. أقسام المقاصد العقدية:

إن المقاصد الشرعية تنقسم إلى أقسام متعددة، باعتبارات مختلفة، ولست بصدد الحديث عنها، ولكن لن أصل إلى ما أنا بصدده إلا بعد ذكر هذه الأقسام بإجمال، والتعريج عليها تعريجًا سريعًا.

فتنقسم المقاصد الشرعية باعتبار مصدرها إلى: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف. وباعتبار عمومها وخصوصيتها في الشريعة إلى: مقاصد كلية، ومقاصد بعضية. وباعتبار عموم الأمة وأفرادها إلى: مقاصد عامة، ومقاصد خاصة، ومقاصد جزئية. وباعتبار الحاجة إليها إلى: مقاصد ضرورية، ومقاصد حاجية، ومقاصد تحسينية. وباعتبار القطع والظن إلى: مقاصد قطعية، ومقاصد ظنية، ومقاصد وهمية، وتنقسم باعتبار حفظ المكلف وعدمه إلى: مقاصد أصلية، ومقاصد تابعة. فهذه جملة الأقسام كما ذكرها العلماء وانتثرت في كتبهم كل في فنه، وفي تخصصه.

أما بالنسبة لأقسام المقاصد العقدية فإني سأتناول بيانها من حيث عمومها وخصوصيتها؛ كون هذا التقسيم موجود في تعريفات الأئمة السابقين. فالمقاصد العقدية على ذلك الاعتبار تنقسم إلى مقاصد عامة وخاصة وجزئية وفيما يلي بيانها:

١. المقاصد العامة:

هي جملة المقاصد التي يتم استقراؤها من مجموع مباحث الإيمان الستة[(١)]. مثل: توحيد الله عز وجل

(١) د.أمامة السحابي، (المقاصد العقدية من خلال موطأ الإمام مالك)، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد =

الذي تتجلى أعلى مقاصده أو مقصده العام، في تحقيق الصلاح على المستوى الفردي، و الجماعي، و العمراني. وهكذا مع بقية أركان الإيمان.

ومجمل المقاصد العامة شرعيةً كانت أم عقدية لا يخرج عن جلب مصالح العباد: الفردية والجماعية، المادية والمعنوية، الحالية والمآلية، الظاهرة والخفية، الدنيوية والأخروية. فالمقاصد العامة هي: المقاصد التي ثبتت رعايتها في كل أبواب الشريعة أو في معظمها[١]. وهذا القسم هو الذي يقصده المتحدثون عن مقاصد الشريعة غالبا[٢]. أما المتحدثون عن المقاصد العقدية فإنهم يجملون القول فيها، أو يتناولون بيانها ضمنًا، إن كان حديثهم عن المقاصد الخاصة والجزئية.

٢. المقاصد الخاصة:

هي جملة المقاصد المتعلقة بركن واحد من أركان الإيمان الستة، مثل: الإيمان بالله تعالى وما يجب أن يثبت له من صفات. ومقصد معرفة الله وتوحيده عند الإيمان بالقضاء والقدر، ومقصد الابتلاء والجزاء والحساب عند الإيمان باليوم الآخر. وهذه المقاصد تستخرج من متعلقات أصول الإيمان أو من مسائله[٣].

وقد ذكر ابن عاشور أن المقاصد الخاصة للشريعة هي: مقاصد خاصة بأحكام العائلة، ومقاصد خاصة بالتصرفات المالية، ومقاصد خاصة بالمعاملات المتعلقة بالأبدان، ومقاصد خاصة بأحكام التبرعات، ومقاصد خاصة بأحكام القضاء والشهادة، ومقاصد خاصة بالعقوبات[٤].

٣. المقاصد الجزئية:

يعرّفها الخادمي بأنها: "علل الأحكام وحكمها وأسرارها"[٥]. وبناءً على تعريفه فإن المقاصد الجزئية هي: المقاصد المستخرجة من كل حكم من أحكام العقيدة. "وقد يعبّر عن هذه المقاصد الجزئية بعبارات أخرى تفيد المعنى نفسه الذي يفيده معنى المقصد أو ما هو قريب منه، وذلك مثل الحكمة، والمعنى، والسرّ،

= ٢٥، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ - يوليوز ٢٠٠٧م، ص١٥٢-١٥٥.

(١) أحمد الريسوني، مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، دار الكلمة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ_٢٠١٤م، ص٧٥.

(٢) يوسف أحمد محمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ_٢٠١٢م، ص١٥٨.

(٣) د.أمامة السحابي، (المقاصد العقدية من خلال موطأ الإمام مالك)، مرجع سابق، ص١٥٢ وما بعدها.

(٤) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مصدر سابق، ج٢/٤٢١ وما بعدها.

(٥) الخادمي، الاجتهاد المقاصدي ، مرجع سابق، ص٥٤.

والعلّة، وهو المصطلح الأكثر رواجًا في هذا الشأن بين الفقهاء"[١]. وأكثر من يعتني بهذا القسم من المقاصد هم الفقهاء؛ لأنهم أهل التخصص في جزئيات الشريعة ودقائقها[٢]. ولعله في مجال العقيدة والأخلاق لا يكون للمقصد الجزئي تأثيره في الأحكام وتوجيهه لها كما هو الحال مع مجال الفقه وأحكامه[٣].

وإن دراستي هذه قد تناولت هذه الأقسام الثلاثة مع الاعتماد الأكبر على القسمين الثاني والثالث وهما المقاصد العقدية الخاصة والجزئية؛ كون هذه الدراسة مختصة ببيان مقاصد ركنين من أركان الإيمان، هما الإيمان باليوم الآخر، والقضاء والقدر. وقد أفردت كل ركن بمبحث فيه ذكر لمقاصده العامة، إلى جانب المقاصد الخاصة والجزئية التي نصيت عليها، أو كان الحديث فيها ضمنيًا.

---

(١) النجار، مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ص٤٢.

(٢) الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، مرجع سابق، ص٢١.

(٣) وصفي عاشور أبو زيد، المقاصد الجزئية ضوابطها، حجيتها، وظائفها، أثرها في الاستدلال الفقهي، دار المقاصد للنشر والتوزيع- جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ_٢٠١٥م، ص٥٨.

المطلب الثاني
منهج ابن عاشور في الكشف عن المقاصد العقدية وإثباتها

أ. طرق الكشف عن المقاصد:

قبل تحديد منهج الطاهر بن عاشور ينبغي أن نعرج تعريجاً سريعًا على المناهج والطرائق التي يمكن من خلالها الكشف عن مقاصد الشريعة، وهي خمس طرائق تقريبا:

●أولاً– مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي:

الأمر الصريح هو ما كان بصيغة فعل الأمر مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٠٢]. والنهي الصريح هو ما كان بصيغة لا تفعل، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [سورة الإسراء:٣٣]. والأمر الصريح والنهي الصريح كلاهما يفيد بظاهره قصد الشارع إلى امتثال ما ورد فيهما من أوامر ونواهي(١).

وفي «الموافقات» يقول الإمام الشاطبي ما نصّه: " الاعتماد في الضابط الذي به يعرف مقصد الشارع؛ أنه يعرف من جهات: إحداها: مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي، فإن الأمر معلوم أنه إنما كان أمرا لاقتضائه الفعل؛ فوقوع الفعل عند وجود الأمر به مقصود للشارع، وكذلك النهي معلوم أنه مقتض لنفي الفعل أو الكف عنه؛ فعدم وقوعه مقصود له، وإيقاعه مخالف لمقصوده، كما أن عدم إيقاع المأمور به مخالف لمقصوده؛ فهذا وجه ظاهر عام لمن اعتبر مجرد الأمر والنهي من غير نظر إلى علة، ولمن اعتبر العلل والمصالح، وهو الأصل الشرعي.

وإنما قيد بالابتدائي تحرزا من الأمر أو النهي الذي قصد به غيره؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [سورة الجمعة:٩]. فإن النهي عن البيع ليس نهيا مبتدأ، بل هو تأكيد للأمر بالسعي؛ فهو من النهي المقصود بالقصد الثاني، فالبيع ليس منهيا عنه بالقصد الأول، كما نهي عن الربا والزنا مثلا،

---

(١) د.نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس– الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ص٦٤.

من أجل تعطيل السعي عند الاشتغال به.

وإنما قيد بالتصريحي تحرزا من الأمر أو النهي الضمني الذي ليس بمصرح به؛ كالنهي عن أضداد المأمور به الذي تضمنه الأمر، والأمر الذي تضمنه النهي عن الشيء، فإن النهي والأمر ههنا إن قيل بهما؛ فهما بالقصد الثاني لا بالقصد الأول؛ إذ مجراهما عند القائل بهما مجرى التأكيد للأمر أو النهي المصرح به، فأما إن قيل بالنفي؛ فالأمر أوضح في عدم القصد، وكذلك الأمر بما لا يتم المأمور إلا به المذكور في مسألة "ما لا يتم الواجب إلا به"؛ فدلالة الأمر والنهي في هذا على مقصود الشارع متنازع فيه؛ فليس داخلا فيما نحن فيه، ولذلك قيد الأمر والنهي بالتصريحي"[(١)].

● **ثانيًا– معرفة علل الأمر والنهي:**

هذا الطريق يعنى بالطرق التي تعرف بها العلة، وهي المعروفة عند الأصوليين بمسالك العلة[(٢)].

وقد ذكر الشاطبي هذا الطريق أثناء حديثه عن طرق معرفة مقاصد الشارع، وبين أن العلل على نوعين منها ما هو معلوم وغير معلوم، ثم بيّن المنهج الذي يجب على الأصوليّ اتباعه. فقال: "الاعتماد في الضابط الذي به يعرف مقصد الشارع؛ أنه يعرف من جهات:

إحداها: مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي ... الثانية: اعتبار علل الأمر والنهي، ولماذا أمر بهذا الفعل؟ ولماذا نهي عن هذا الآخر؟ والعلة إما أن تكون معلومة أو لا، فإن كانت معلومة اتبعت؛ فحيث وجدت وجد مقتضى الأمر والنهي من القصد أو عدمه؛ كالنكاح لمصلحة التناسل، والبيع لمصلحة الانتفاع بالمعقود عليه، والحدود لمصلحة الازدجار، وتعرف العلة هنا بمسالكها المعلومة في أصول الفقه، فإذا تعينت؛ علم أن مقصود الشارع ما اقتضته تلك العلل من الفعل أو عدمه، ومن التسبب أو عدمه. وإن كانت غير معلومة؛ فلا بد من التوقف عن القطع على الشارع أنه قصد كذا أو كذا؛ إلا أن التوقف هنا له وجهان من النظر:

- أحدهما: أن لا يتعدى المنصوص عليه في ذلك الحكم المعين أو السبب المعين؛ لأن التعدي مع الجهل بالعلة تحكم من غير دليل، وضلال على غير سبيل، ولا يصح الحكم على زيد بما وضع حكما على عمرو، ونحن لا نعلم أن الشارع قصد الحكم به على زيد أو لا؛ لأنا إذا لم نعلم ذلك أمكن أن لا يكون

---

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم– المملكة العربية السعودية، دار ابن عفان – مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ج٣/١٣٤-١٣٥.

(٢) د.محمد بن سعد اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار ابن الجوزي– السعودية، الطبعة السادسة، ١٤٣٦هـ، ص١٢٥.

حكما عليه، فنكون قد أقدمنا على مخالفة الشارع؛ فالتوقف هنا لعدم الدليل.

- والثاني: أن الأصل في الأحكام الموضوعة شرعا أن لا يتعدى بها محالها حتى يعرف قصد الشارع لذلك التعدي؛ لأن عدم نصبه دليل على التعدي دليل على عدم التعدي إذ لو كان عند الشارع متعديا لنصب عليه دليلا، ووضع له مسلكا، ومسالك العلة معروفة، وقد خبر بها محل الحكم؛ فلم توجد له علة يشهد لها مسلك من المسالك؛ فصح أن التعدي لغير المنصوص عليه غير مقصود للشارع"[(١)] .

●ثالثًا– الاستقراء:

أ.تعريف الاستقراء لغة واصطلاحًا:

فهو لغة: التتبع. قال في «المصباح المنير»: "استقرأت الأشياء: تتبعت أفرادها لمعرفة أحوالها وخواصها"[(٢)] .

وهو اصطلاحًا كما يعرفه الجرجاني: بأنه "الحكم على كليّ لوجوده في أكثر جزئياته"[(٣)] . وقريب من هذا التعريف تعريف الغزالي في كتابه معيار العلم في فن المنطق، بأن الاستقراء: "هو أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلي به"[(٤)] . وعرّفه في المستصفى: "بأنه تصفح أمور جزئية لنحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات، كقولنا في الوتر: ليس بفرض؛ لأنه يؤدى على الراحلة والفرض لا يؤدى على الراحلة"[(٥)] .

وعرفه ابن عاشور بأنه: "تتبع الجزئيات لإثبات حكم كلي، وإنما اعتبر دليلاً؛ لأن الكلية لم تكن ثابتة ولا دليل عليها إلا تتبع الجزئيات، ولأنها بعد ثبوتها يستدل بها على أحكام جزئيات مجهولة، مثل أن

---

(١) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ج٣/١٣٦.

(٢) أحمد بن محمد الفيومي ثم الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت، ج٢/٥٠٠.

(٣) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: نصر الدين التونسي، شركة القدس المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص٤٥.

(٤) أبو حامد محمد الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ _١٩٩٠م، ص ١٤٨.

(٥) أبو حامد محمد الغزالي، المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ_١٩٩٣م، ص٤١.

تقول: الوتر سنة لا فرض؛ لأن النبي ﷺ صلاّه على الراحلة، والفرض لا يؤدّى على الراحلة أخذًا من استقراء أسفار النبي ﷺ والسلف ﷺ"[(١)]. فالذي يظهر من تعريفه هذا اعتماده على تعريف الغزالي السابق؛ حتى في المثال الذي أورده الغزالي أورده ابن عاشور.

وبعد التأمل في هذه التعريفات، فإن القاسم المشترك بينها هو اتفاقها على أن الاستقراء يكون بالتتبع للجزئيات للوصول إلى الكليات، أو النتيجة النهائية.

ب. نوعا الاستقراء: تام وناقص.

١. **الاستقراء التام:** وهو تتبع جميع الجزئيات ماعدا صورة النزاع، وهذا دليل قطعي عند أكثر العلماء[(٢)]. وهو حجة بلا خلاف؛ لأن الحكم إذا ثبت لكل فرد من أفراد شيء على التفصيل فهو لا محالة ثابت لكل أفراده على الإجمال[(٣)].

٢. **الاستقراء الناقص:** وهو تتبع أكثر الجزئيات. ويسمى عند الفقهاء بـ "إلحاق الفرد بالغالب"[(٤)]. واختلف في حجيته؛ لاحتمال تخلف بعض الجزئيات عن الحكم، ولأن معرفة جميع الجزئيات مما يعسر الوقوف عليها، فلا يوثق به إلا إذا تأيد الاستقراء بالإجماع[(٥)].

وقد استعمل القرآن الكريم الاستقراء بنوعيه: التام والناقص، ولكن أكثر استعماله للاستقراء الناقص، وأعطاه دلالة قطعية في إثبات بعض سنن الله تعالى في الكون، وفي حياة البشر وإثبات بعض العقائد، وصفات الذات الإلهية.

ومن الآيات التي اتخذ فيها القرآن الكريم المنهج الاستقرائي للاستدلال قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح، مطبعة النهضة- تونس، الطبعة الأولى، ١٣٤١هـ، ج٢/٢٢٤.

(٢) اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٢١.

(٣) يوسف البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٤٧.

(٤) اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٢١

(٥) يوسف البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٤٧.

ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام:٣٨].

ومن الآيات التي دعا فيها القرآن الكريم الناس إلى استخدام الاستقراء منهجًا للاستدلال قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة الأنعام:١١]. وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة النمل:٦٩][(١)].

"ولما كانت مقاصد الكتاب والسنة كلها قائمة على أساس فكرة تعليل الشريعة وأحكامها، وأن خلاصة هذا التعليل تتمثل في كون الشريعة معللة برعاية المصالح، فإن أول ما بدأ به الشاطبي استدلاله على هذا، هو الاستقراء. وحتى النصوص التي أوردها للتدليل على وجود التعليل في تفاصيل الشريعة، فإنما أوردها على سبيل الاستقراء المفيد -في المجموع- للعلم القطعي فكان دليله أولا وأخيرًا هو الاستقراء"[(٢)]. يقول: "والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد"[(٣)].

●رابعًا- سياق الخطاب[(٤)]:

يقول ابن عاشور: "إن القرآن الكريم كلام عربي فكانت قواعد اللغة العربية طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم ... ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتَّبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"[(٥)]. و"لا بدّ من اعتبار جملة من الشروط

---

(١) د. نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ص٢٢٩.

(٢) الريسوني، نظرية المقاصد، مرجع سابق، ص٣٢٤.

(٣) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ج١/٤٤.

(٤) لقد فصّل الدكتور نعمان جغيم في هذا المسلك من مسالك معرفة المقاصد وأفرد له مبحثا طويلا في أكثر من ستين صفحة د. نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ٧٥ وما بعدها.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/١٨.

اللازمة لتحديد المعنى المراد فعلا من جهة الشارع. أهمها:

- معرفة عادة الشارع في الخطاب، وأسلوبه في التعبير والبيان، وذلك باستقراء مختلف استعمالات الألفاظ، ودلالتها على المعاني وتتبعها وسبرها، ومعرفة الوجوه والنظائر في كلامه.

- معرفة السياق الذي ورد فيه اللفظ، حتى يمكن تحديد مراد الشارع وقصده، وذلك بالنظر إلى القرائن الحالية والمقالية"(١).

يقول الشاطبي: " ... معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطَبين، وبحسب غير ذلك ..."(٢).

وسياق الخطاب على نوعين:

١ - **السياق اللغوي:** أي الجمل المكوِّنة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المرادُ تفسيره واستخلاصُ المقصود منه. فالنص القرآني أو الحديث النبوي لا يمكن -عادةً- أخذه مبتورًا عن النصوص الأخرى، سواء النصوص الواردة في السياق اللغوي بمعناه الخاص، أي الجمل السابقة واللاحقة له، أو بمعناه العام، أي النصوص الأخرى التي لها علاقة ما بهذا النص مع ورودها في مواضع وأزمنة مختلفة عما ورد فيه ذلك النص، حيث يكون استحضار تلك النصوص معينًا على فهم هذا النص، إمَّا لكونها مُبَيِّنَةً له، أو مكمِّلة لمعناه، أو مخصِّصة لعمومه، أو مقيِّدة لإطلاقه.

٢ - **السياق الاجتماعي:** وهو الذي يسمى بالمقام، وتدخل فيه أسباب النزول، وأسباب ورود الحديث، والظروف النفسية والاجتماعية السائدة وقت ورود النص الشرعي(٣).

---

(١) يوسف البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص٢٦٨.

(٢) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ج٣/٢٥٨.

(٣) د. نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشريعة، مرجع سابق، ص٩٢.

●خامسًا- سكوت الشارع[1]:

سكوت الشارع عن الحكم على ضربين كما قال الشاطبي[2]:

- **أحدهما:** أن يسكت عنه لأنه لا داعية له تقتضيه، ولا موجب يقدر لأجله؛ كالنوازل التي حدثت بعد رسول الله ﷺ؛ فإنها لم تكن موجودة ثم سكت عنها مع وجودها، وإنما حدثت بعد ذلك؛ فاحتاج أهل الشريعة إلى النظر فيها وإجرائها على ما تقرر في كلياتها، وما أحدثه السلف الصالح راجع إلى هذا القسم؛ كجمع المصحف، وتدوين العلم، وما أشبه ذلك مما لم يجر له ذكر في زمن رسول الله ﷺ، ولم تكن من نوازل زمانه، ولا عرض للعمل بها موجب يقتضيها؛ فهذا القسم جارية فروعه على أصوله المقررة شرعا بلا إشكال؛ فالقصد الشرعي فيها معروف من الجهات المذكورة قبل.

- **والثاني:** أن يسكت عنه وموجبه المقتضي له قائم، فلم يقرر فيه حكم عند نزول النازلة زائد على ما كان في ذلك الزمان؛ فهذا الضرب السكوت فيه كالنص على أن قصد الشارع أن لا يزاد فيه ولا ينقص؛ لأنه لما كان هذا المعنى الموجب لشرع الحكم العملي موجودا ثم لم يشرع الحكم دلالة ٤ عليه؛ كان ذلك صريحا في أن الزائد على ما كان هنالك بدعة زائدة، ومخالفة لما قصده الشارع؛ إذا فهم من قصده الوقوف عند ما حد هنالك، لا الزيادة عليه ولا النقصان منه.

فالمقصود أن ما سكت عنه الشارع مع قيام مقتضاه فمقصود الشارع عدم مشروعيته. وهذا الطريق أضيق مجالا مما قبل من الطرق لكونه خاصا بمعرفة قصد الشارع فيما سكت عنه[3]. فهو يتعلق -بصفة خاصة-بمجال العبادات. وبصفة أخص بمجال الابتداع في الدين وعباداته[4].

وبعد هذا العرض الموجز لأبرز المسالك والطرق التي انتهجها العلماء للكشف عن المقاصد الشرعية، وجدتهم يسلكون نفس المسالك للكشف عن المقاصد العقدية، إلا أن علم المقاصد العقدية منثورًا في كلامهم ضمنًا، بينما التفاتهم كان إلى المقاصد الشرعية.

وكما ذكرت سلفًا بأن علم المقاصد العقدية لا زال يحتاج إلى بناءٍ، وما بحثي هذا إلا إسهام في بناء

---

(١) لقد أفرد الدكتور نعمان جغيم هذا المسلك من مسالك معرفة المقاصد بالبحث في نحو من عشرين صفحة. المرجع نفسه، ١٧٣وما بعدها.

(٢) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ج٣/١٥٧.

(٣) اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٦٨.

(٤) الريسوني، نظرية المقاصد، مرجع سابق، ص٣١٧.

هذا العلم، ووضع لبنة من لبناته. فبعد اطلاعي على ما كتب عن مقاصد الشريعة، والمسالك التي سُلكت للكشف عنها، وجدتّ ابن عاشور يسلك المسالك نفسها للكشف عن مقاصد العقيدة، والمنثورة في تفسيره. وفيما يلي بيان للمنهج الذي انتهجه في الكشف عن المقاصد العقدية وإثباتها.

وينبغي أن نذكر القواعد المقاصدية التي سار عليها ابن عاشور قبل أن نبين منهجه في الكشف عنها:

●أولاً– القواعد المقاصدية العامة للقرآن:

١. المقصد الأعلى من القرآن صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية:

يقول ابن عاشور: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل:٨٩]. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع"(١).

٢. بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين:

فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بيّنا، وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه، فقال:﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص:٢٩](٢).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١/٣٩.

٣. اعتماد اللسان العربي لإظهار الوحي:

"وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه، ومستودعا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولا لشرعه، وإبلاغ مراده لحكمة علمها: منها كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشارا، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمة قد سلمت من أفن الرأي عند المجادلة، ولم تقعد بها عن النهوض أغلال التكالب على الرفاهية، ولا عن تلقي الكمال الحقيقي إذ يسبب لها خلطه بما يجر إلى اضمحلاله فيجب أن تعلموا قطعا أن ليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصرا عليهم أو مراعيا لخاصة أحوالهم، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم كما قلنا لتلقي شريعته وبثها ونشرها، فهم المخاطبون ابتداء قبل بقية أمة الدعوة فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثير من القرآن مقصودا به خطابهم خاصة، وإصلاح أحوالهم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [سورة هود:٤٩]. وقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [سورة الأنعام:١٥٦-١٥٧] لكن ليس ذلك بوجه الاقتصار على أحوالهم"[1].

● **ثانيًا- القواعد المقاصدية الخاصة:**

يقول ابن عاشور: "أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

- **الأول:** إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [سورة هود:١٠١]. فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

- **الثاني:** تهذيب الأخلاق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [سورة القلم:٤]. وفسرت عائشة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٣٩.

-رضي الله تعالى عنها- لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: كان خُلُقه القرآن[(١)].

- **الثالث:** التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة النساء:١٠٥]. ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة المائدة:٤٨]. ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كليا في الغالب، وجزئيا في المهم، فقوله ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النحل:٨٩]. وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [سورة المائدة:٣]. المراد بهما! إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس. قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه ولا يكون جامعا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية.

- **الرابع:** سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام:١٥٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[سورة الأنفال:٤٦]. وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى:٣٨].

- **الخامس:** القصص وأخبار الأمم السالفة؛ للتأسي بصالح أحوالهم قال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف:٣]. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [سورة الأنعام:٩٠]. وللتحذير من مساويهم قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [سورة إبراهيم:٤٥]. وفي خلالها تعليم.

- **السادس:** التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك

---

(١) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، مسند السيدة عائشة -رضي الله عنها-، الحديث رقم: ٢٤٦٠١، ج٤١/١٤٩. وهو حديث صحيح كما قال عنه المحققون.

تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [سورة البقرة:٢٦٩]. وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء فجاء القرآن بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]. ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [سورة الزمر:٩]. وقال: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١] فنبه إلى مزية الكتابة.

- **السابع:** المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

- **الثامن:** الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة يونس:٣٨]. ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي.

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ"(١).

أما منهجه في الكشف عن المقاصد العقدية، فنبينه من خلال ما كتبه عن منهجه في الكشف عن مقاصد الشريعة في كتابه مقاصد الشريعة، إذ يقول: "علينا أن نرسم طرائق الاستدلال على مقاصد الشريعة بما بلغنا إليه بالتأمل، وبالرجوع إلى كلام أساطين العلماء. ويجب أن يكون الرائدُ الأعظم للفقيه في هذا المسلك هو الإنصاف، ونبذَ التعصب لبادئ الرأي، أو لسابق الاجتهاد، أو لقول إمام، أو أستاذ.

- **الطريق الأول:** وهو أعظمها، استقراء الشريعة في تصرفاتها، وهو على نوعين: أعظمهما

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٠-٤١.

استقراء الأحكام المعروفة عللُها، الآئل إلى استقراء تلك العلل المثبتة بطرق مسالك العلة، فإن باستقراء العلل حصولَ العلم بمقاصد الشريعة بسهولة، لأننا إذا استقرينا عللاً كثيرة متماثلة في كونها ضابطاً لحكمة متّحدة أمكن أن نستخلص منها حكمةً واحدة، فنجزم بأنها مقصد شرعي، كما يُستَنتج من استقراء الجزئيات تحصيلُ مفهوم كلّي حسب قواعد المنطق. ومثاله: أننا نعلم النهيَ عن أن يخطب المسلم على خِطبة مسلم آخر، والنهيَ عن أن يسوم على سومه، ونعلم أن علّة ذلك هو ما في ذلك من الوحشة التي تنشأ عن السعي في الحرمان من منفعة مبتغاة، فنستخلص من ذلك مقصداً هو: دوام الأخوة بين المسلمين، فنستخدم ذلك المقصد لإثبات الجزم بانتفاء حرمة الخطبة بعد الخطبة والسوم بعد السوم، إذا كان الخاطبُ الأول والسائمُ الأول قد أعرضا عما رغبا فيه.

والنوع الثاني من هذا الطريق: استقراء أدلة أحكام اشتركت في علّة، بحيث يحصل لنا اليقين بأن تلك العلّة مقصدٌ مرادٌ للشارع. ومثاله: النهي عن بيع الطعام قبل قبضه، علته طلب رواج الطعام في الأسواق.

- **الطريق الثاني:** أدلة القرآن الواضحةُ الدلالة التي يضعف احتمال أن يكون المراد منها غير ما هو ظاهرها بحسب الاستعمال العربي، بحيث لا يَشُك في المراد منها إلّا من شاء أن يُدخِل على نفسه شكًّا لا يعتدّ به. ألا ترى أنا نجزم بأن معنى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [سورة البقرة: ١٨٣]. أن الله أوجبه. ولو قال أحد: إن ظاهر هذا اللفظ أن الصيام مكتوب في الورق لجاء خطأً من القول. فالقرآن لكونه متواترَ اللفظ قطعيَّةُ يحصل اليقين بنسبة ما يحتوي عليه إلى الشارع تعالى، ولكنه لكونه ظنّيّ الدلالة يحتاج إلى دلالة واضحة يضعف تطرق احتمال معنى ثانٍ إليها. فإذا انضمَّ إلى قطعيّة المتن قوّة ظَنّ الدلالة تَسَنّى لنا أخذُ مقصد شرعي منه يرفع الخلافَ عند الجدل في الفقه، مثل ما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [سورة البقرة:٢٠٥]. وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [سورة النساء:٢٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [سورة الأنعام:١٦٤]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ [سورة المائدة:٩١]. وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [سورة البقرة:١٨٥]. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [سورة الحج:٧٨]. ففي كلّ آية من هذه الآيات تصريح بمقصد شرعي أو تنبيه على مقصد.

- **الطريق الثالث:** السنة المتواترة. وهذا الطريق لا يوجد له مثال إلّا في حالين:

١. **الحال الأول:** المتواتر المعنوي الحاصل من مشاهدة عموم الصحابة عملًا من النبي ﷺ فيحصل لهم علم بتشريع في ذلك يستوي فيه جميع المشاهدين.

٢. **الحال الثاني:** تواتر عملي، يحصل لآحاد الصحابة من تكرر مشاهدة أعمال رسول الله ﷺ بحيث يستخلص من مجموعها مقصداً شرعياً. ففي صحيح البخاري: عن الأزرق بن قيس قال: "كنا على شاطئ نهر بالأهواز، قد نضب عنه الماء. فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس، فقام يصلي وخلّى فرسه، فانطلقت الفرس. فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها، ثم جاء فقضى صلاته. وفينا رجل له رأي فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ ترك صلاته من أجل فرس. فأقبل فقال: ما عنّفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ. وقال: إن منزلي متراخٍ، فلو صليت وتركت الفرس لم آت أهلي إلى الليل. وذكر أنه صحب رسول الله ﷺ فرأى من تيسيره"(١). فمشاهدته أفعال رسول الله ﷺ المتعددة استخلص منها أن من مقاصد الشرع التيسير. فرأى أن قطع الصلاة من أجل إدراك فرسه ثم العود إلى استئناف صلاته أولى من استمراره على صلاته مع تجشّم مشقة الرجوع إلى أهله راجلاً. فهذا المقصد بالنسبة إلى أبي برزة مظنون ظناً قريباً من القطع، ولكنه بالنسبة إلى غيره – الذين يَرْوي إليهم خبرهُ – مقصد محتمل؛ لأنه يُتلقّى منه على وجه التقليد وحسن الظن به"(٢).

مما سبق تبين أن المنهج الذي سار عليه ابن عاشور في الكشف عن المقاصد الشرعية هو أحد ثلاثة: الاستقراء وهو أعظمها، و أدلة القرآن الواضحةُ الدلالة، والسنة المتواترة. ومن هنا يجدر القول بأنه سار على المنهج نفسه الذي اتبعه في الكشف عن مقاصد العقيدة؛ لأنهما متلازمتان كما سيأتي.

ومن خلال ما كتب السابقون(٣)، واستقرائي لبعض ما كتب ابن عاشور فإن الاستقراء هو أبرز المسالك التي سلكها للكشف عن المقاصد. وهو أحد الأدوات الإجرائية المهمة التي انبنى عليها توجهه المقاصدي، حيث يعتبر من أكثر الناس احتفاءً به، وتوظيفًا له، وتشهد لذلك مؤلفاته التي ضمّنها ببراعة استقرائه(٤)، ومن تلك الاستقراءات ما يأتي:

---

(١) رواه البخاري، في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ "يسروا ولا تعسروا"، الحديث رقم ٦١٢٧، ص١٠٦٧.

(٢) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مصدر سابق، ج٣/٥٤ وما بعدها.

(٣) أُلّفت مؤلفات خاصة في اعتماد الاستقراء في منهج ابن عاشور. ومن ذلك:

دور الاستقراء في إثبات مقاصد القرآن الكريم عند ابن عاشور. لنشوان عبده خالد قائد.

ومؤلفات أفردت الاستقراء عند ابن عاشور في باب أو فصل أو مبحث أو مطلب من مجمل مادتها العلمية. ومن ذلك:

- الاستقراء ودوره في معرفة المقاصد الشرعية، لنور الدين مختار الخادمي.
- طرق الكشف عن مقاصد الشريعة، لـ/د.نعمان جغيم.

(٤) نشوان عبده خالد قائد، دور الاستقراء في إثبات مقاصد القرآن الكريم عند ابن عاشور، ملخص بحث دكتوراه في =

- **أولاً**: اعتماده على الاستقراء في حصر المتشابهات في القرآن الكريم، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾ [سورة آل عمران:٧]. حيث استقرأها بقوله: "مراتب المتشابهات في القرآن: هو كونه دعوة، وموعظة، وتعليمًا، وتشريعًا باقيًا، ومعجزة، وخوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والتشريع، فجاء على أسلوب مناسب لجميع هذه الأمور"[(١)]. فقد ذكر جملة من المتشابهات بناء على الاستقراء.

- **ثانيًا**: استقراؤه لمواقع التزيين، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ ﴾ [سورة البقرة:٢١٢]. حيث يقول: "وقد استقريت مواقع التزيين المذموم فحصرتها في ثلاثة أنواع: **الأول**: ما ليس بزين أصلا لا ذاتا و لا صفة؛ لأن جميعه ذم وأذى، ولكنه زين للناس بأوهام وخواطر شيطانية وتخييلات شعرية كالخمر. **الثاني**: ما هو زين حقيقة لكن له عواقب تجعله ضرا و أذى كالزنا. **الثالث**: ما هو زين لكنه يحف به ما يصيره ذميماً كنجدة الظالم"[(٢)].

= قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣/١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٢/٢٩٥.

المطلب الثالث

العلاقة بين مقاصد الشريعة، ومقاصد العقيدة

الإيمان شطران: عقيدة نقية راسخة تسكن في القلب، وعمل يظهر على الجوارح، فإذا فقد أحد الركنين فإن الإيمان يزول أو يختل، إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جدا[١].

يقول محمّد قطب موضحا العلاقة بين العقيدة والشريعة: "الدين عقيدة وشريعة: عقيدة تحكم صلات القلب بالله. وشريعته تحكم واقع الحياة باسم الله، فيكون المتّجه في الحالتين إلى الله والمعبود واحد"[٢].

وإن العبادة الصحيحة لله تتمثل في جانبين متكاملين لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا يغني أحدهما عن الآخر، تقديم شعائر التعبد لله وحده دون شريك، واتباع ما أنزل الله وتحكيمه في واقع الحياة. فالصلاة لصنم أو شيء أو شخص، أو تقديم القرابين إليه، أو توجيه الدعاء إليه، مفسد للعقيدة ومفسد للعبادة، واتخاذ منهج للحياة غير المنهج الرباني هو كذلك مفسد للعقيدة ومفسد للعبادة على قدم سواء، وبهذه الطريقة تتوحد العبادة ويتوحد الاتجاه[٣].

كما أن الإيمان ينصبّ الغاية التي ينبغي أن يتّجه إليها كل عمل، ويمثّل القاعدة التي تندفع عنها طاقاته، فالدين واحد في معانيه، تتكامل فيه العقيدة والشريعة. وهو في حقيقته الواقعة العقيدة تدفع المؤمن إلى صالح الأعمال وتضبطه عن سيئاتها، وتخطّ له معالم تحدي الخير والشر في الحياة، والشريعة بمبادئها العامة وأحكامها الفرعية هي دليل العمل ونظامه تبيين اتجاهاته وأشكاله في الحياة. وبالشريعة يتعلم أي نحو مفصّل ينحو بعمله في واقع أحواله المعينة كما يتعرّف دقائق نظم السلوك وضوابطه. وما دام الإيمان واتباع الشريعة وجهتين للدين متلازمتين متكاملتين فإن الآثار الخيّرة الناتجة عنهما في الحياة الدنيا يمكن أن ترد بحق لأي منهما. فالإيمان سبب في منافع الدنيا ومتاعها، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة يونس:٩٨]. والشريعة طريق إلى المعيشة الهنيئة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه:١٢٣-١٢٤]. وإن هذا التلازم الوثيق

---

(١) عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٩هـ_١٩٩٩م، ص٢٠.

(٢) محمّد قطب، ماذا يعطي الإسلام للبشرية، دار الرعاية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٦.

بين الإيمان والتعاليم العملية ليبلغ ذروته في دين الإسلام الذي احتفظ بنسجه الرباني الموضوع وتكامله الموزون ولم تخالجه اختلافات الوضع واختلافاته. فعنصر الإيمان هو الروح الذي يحيا به نظام الشرع[(١)].

وإن نظرنا في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء آية ٩]. لوجدنا أن مقاصد القرآن تقوم على نواحٍ ثلاث: ناحية العقيدة، ناحية الأخلاق، ناحية الأحكام.

فالعقائد تطهّر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية وهي تشمل ما يجب الإيمان به في جانب الله من صفات الجلال والكمال، وما يجب الإيمان به في جانب الوحي والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين، وما يجب الإيمان به في حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء. والأخلاق تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة، وتقوّي عرى التآخي والتعاون بين بني الإنسان. أما الأحكام فهي ما يبينه الله في كتابه، أو بيّن أصوله من النظم التي يجب اتباعها في تنظيم علاقة الإنسان بربّه، أو علاقته بأخيه ... وما إلى ذلك ممّا يدخل في دائرة العبادات التي تغذّي الإيمان وتنمّي ثمراته الطيّبة[(٢)].

ويشبّه الدكتور عمر الأشقر العلاقة بين الإيمان والشريعة بالشجرة الطيبة، بقوله: "مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة معطاءة، تعطي أكلها كل خير بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغلت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل، و لا شك أن الجذور إذا قلعت تعفنت وفسدت الشجرة، وييست ولم يبق لها وجود. وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة.

أما إذا قطعت الساق والفروع أو قطع بعض منها فإن الشجرة تضعف وتهزل وتموت كليًا؛ لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها، وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها فإن الإيمان ينقص أو يزول"[(٣)].

هذا وإن للعقيدة مقاصد كما للشريعة مقاصد، فالعقائد هي محور الفهم والتفسير، ومجال التفكير

---

(١) صايت إلهام، مقاصد الإيمان باليوم الآخر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ١٤٣٢هـ_١٤٣٣هـ، ص٥.

(٢) محمود شلتوت، إلى القرآن الكريم، دار الشروق- بيروت، ١٩٨٣م، ص٥-٦.

(٣) عمر الأشقر، العقيدة في الله، مرجع سابق، ص٢٠ وما بعدها.

والتدبر والاتعاظ. ويمكن إبراز هذه العلاقة من خلال بيان أهمية معرفة المقاصد العقدية:

أولاً– أن معرفة المقاصد تسهم في ترسيخ العقيدة:

فإن المسلم حين يعلم المقاصد فإنه يعمل على ترسيخ العقيدة في قلبه وتعميق معانيها، مما يكوّن لديه القناعة الكافية في الالتزام بأحكامها التي تضمن له كل خير ومصلحة، وتدفع عنه كل شر و لا يتخلى عن حكم من أحكامها، ولا يخالف أمرًا من أوامرها [(١)].

ثانيًا– أن معرفة المقاصد تسهم في تحقيق العبودية:

فإضافة إلى ترسيخ العقيدة فإنها تعمل على تحقيق العبودية لله التي من أجلها خلق الإنسان، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]. ولا تتحقق العبودية إلا عن قناعة وعلم بمقاصدها، وأن الشارع لم يكلّف هذا العبد بما لا يطيق، وإنما كلّفه بما يحقق له المصلحة الدائمة في الدارين [(٢)].

ثالثًا– أن معرفة المقاصد تسهم في الوقوف ضد الغزو الفكري والعقدي:

فمعرفة المقاصد تعطي المسلم مناعة كافية، ضد الغزو الفكري والعقدي، والتيارات الهدامة المستوردة، التي يستتر أصحابها وراء دعايات كاذبة، ويبذلون جهدهم لإخفاء محاسن الشريعة، وتشويه معالمها، والافتراء عليها [(٣)].

فكل هذا دليل على أن العلاقة بين العقيدة والشريعة وبين مقاصدهما علاقة وطيدة لا يمكن الفصل بينهما، فالعقيدة هي الروح والشريعة هي الجسد [(٤)].

ونخلص مما سبق إلى أن مقاصد العقيدة لا تنفك عن مقاصد الشريعة أبدًا، بل قد يشتركان في مقصد واحد، كمقصد صلاح الفرد والمجتمع، فما أمرنا بالتزام الاعتقاد الحق، واتباع الشريعة السمحة؛ إلا لتحقيق صلاح الفرد في نفسه فيصلح مجتمعه.

---

(١) سميح عبد الوهاب الجندي، أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم التصور واستنباط الحكم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص١٠٢.

(٢) يوسف البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص١٢٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١٢٤. سميح الجندي، أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٠٣.

(٤) سلوى مسعودان، مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر وأثرها على السلوك، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسطنطينة، ١٤٣٣هـ_١٤٣٤هـ، ص٦.

ثم إن المنهج الذي سلكه العلماء في الكشف عن المقاصد الشرعية هو المنهج نفسه الذي سلكه ابن عاشور في تفسيره، وإن لم ينص على ذلك. وأسلكه في الكشف عن مقاصد العقيدة. فهما متلازمتان لا تنفكان عن بعضهما للعلاقة الواضحة بينهما، وما يكون من اتحاد المنهج في الكشف عنهما.

ومن الشواهد على ذلك أن آيات القرآن الكريم قد تدل على مقصد شرعي ومقصد عقدي في آنٍ واحد، كقوله تعالى: ﴿ **فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٨]. فإن من الممكن أن نستنبط من هذه الآية مقصد عقدي، هو: الزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على نعيم الآخرة، فلم يؤتهم الله من ثواب الدنيا؛ لأنه ناقصٌ قليل زائل، وليس المراد من ذلك أن من أراد الدنيا وحظوظها، حرم من حظوظ الآخرة، "فإن الأدلة الشرعية دلت على أن إرادة خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلا لإصلاح الدنيا والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة"(١).

فمن الآية السابقة استنبطنا مقصدين: أحدهما عقدي والآخر شرعي، مما يدل دلالة واضحةً على تلازمهما.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/١١٥.

الفصل الأول

مقاصد الإيمان باليوم الآخر في تفسير التحرير والتنوير

ويشتمل على ثمانية مباحث:

المبحث الأول: مقتضيات الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثالث: المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ.

المبحث الرابع: المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة.

المبحث الخامس: المقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به.

المبحث السادس: المقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء.

المبحث السابع: المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما.

المبحث الأول
مقتضيات الإيمان باليوم الآخر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الإيمان باليوم الآخر، وبيان مسائله.

المطلب الثاني: حكم الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثالث: ثمرات الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الأول
مقتضيات الإيمان باليوم الآخر

إن كل اعتقاد يعتقده المرء لابد وأن يكون له مقتضيات ولوازم لا تنفكّ عنه، والإيمان باليوم الآخر إنما هو اعتقاد بأن هناك يوما آخر غير هذا اليوم، وأن هناك حياة بعد الممات. وكل هذا الاعتقاد إنما يتضمن التصديق الجازم بكل ما أخبر به الله ﷻ عن ذلك اليوم، وتصديق النبي ﷺ فيما أخبر عنه مما يكون في الغيب بعد الموت من البعث والحشر والنشر والميزان والحوض والصراط، وفتنة القبر وعذابه والجنة والنار وما أعد الله لأهلهما فيهما.

ثم إن هذا الغيب ليتطلب من العبد بذل الجهد في طلب نعيم الآخرة، والوقاية من عذابها. وما يحصل ذاك إلا بأداء الفرائض والقيام بالواجبات التي أمر الله سبحانه إتيانها والقيام بها. فإن "مدار سعادة الدنيا والآخرة على تزكي النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة، وما يلزم من الأعمال الصالحة التي يترتب عليها رضا الله عنها لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها"[(١)]. كما أن "علّة الضلال والكفر ليست قلة الآيات، بل سبب ذلك الطغيان، والافتراء على الله، والكفر بالآخرة، والعمل السيئ ... والالتزام بشريعة الله هو مقتضى الإيمان، والانحراف عن شريعته شرك، والكفر موت، والإيمان حياة"[(٢)].

---

(١) مُحَمَّد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٧/٣٦٠.

(٢) سعيد حوّى، الأساس في التفسير، دار السلام-القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ، ج٣/١٧٦٦.

المطلب الأول
تعريف الإيمان باليوم الآخر وبيان مسائله

الإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت. وفي الواسطية يقول: "ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت"[(١)]. وهذا تعريف مجمل، إذ أن التعريف الأول أشمل، وفيه يقول الدكتور عبد الرزاق البدر: "وهذا من أجمع ما يكون في تعريف الإيمان باليوم الآخر؛ لشموله لكل ما يكون بدايةً من دخول القبر إلى افتراق الناس إلى فرقتين، فريق في الجنة وفريق في السعير"[(٢)].

كما يقول السعدي: "من أصول الإيمان: الإيمانُ باليوم الآخر، وهو الإيمان بكل ما أخبر الله ورسوله به بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه ومن صفات الجنة والنار وصفات أهليهما، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك جملة وتفصيلاً"[(٣)].

وبَيَّن -رحمه الله- أن اعتماد الإيمان باليوم الآخر هو على الإيمان بالغيب الذي أثنى الله على المؤمنين به. فقال: "ومن أنواع الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر وما وعد الله العباد من الجزاء، فدخل في هذا الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأهواله، ومن صفات النار وأهلها وما أعد الله لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها وما أعد الله فيها لأهلها فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته ومن السنة الصحيحة ودلالتها، فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب وفهمها على وجهها يكون إيمان العبد بالغيب"[(٤)].

فمن خلال التعريفات السابقة يتضح أن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة. فكل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت، من عذاب القبر ونعيمه، وكيفية البعث والنشور، وما يكون في يوم القيامة من أهوال تجعل الولدان شيبًا، وما يخص العباد من ثواب وعقاب ونعيم وعذاب.

كما أن الإيمان بأشراط الساعة داخل ضمن الإيمان باليوم الآخر؛ لأن تلك الأشراط ماهي إلا

---

(١) مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد العثيمين، شرح العقيدة الواسطية، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ، ج/ص١٠٥.

(٢) عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية، مطابع أضواء المنتدى، ص٧٩.

(٣) الخلاصة /٢٦، وانظر الفتاوى السعدية /١٦، وسؤال وجواب /١٥، وغيرها.

(٤) المواهب الربانية /٦٦.

أمارات وعلامات على دنوّ الساعة وقرب مجيئها. قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [سورة محمد:١٨] [١].

(١) هذه جملة المسائل التي يتضمنها الإيمان باليوم الآخر؛ وسيأتي بيانها من خلال المباحث التالية في الفصل نفسه.

المطلب الثاني
حكم الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر واجب، وهو ركن من أركان الإيمان الستة التي لا يصح الإيمان بدونها، وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به تعالى والإيمان باليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]. فإن الذي لا يؤمن باليوم الآخر لا يمكن أن يكون مؤمنًا بالله؛ فالإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل، فإذا كان لا يؤمن به، صار كمن حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية:٢٤].

ويؤكد ابن عاشور هذا المعنى بقوله أن الإيمان بالله هو مبدأ الاعتقادات كلها؛ إذ الإيمان بالله هو الأصل وبه يصلح الاعتقاد وهو أصل العمل، والإيمان باليوم الآخر هو الوازع والباعث في الأعمال كلها وفيه صلاح الحال العملي[(١)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٢٦٢.

المطلب الثالث

ثمرات الإيمان باليوم الآخر

أولاً- التصديق بكل ما جاء من عند الله، وطاعة الله ورسوله ﷺ:

لقد اصطفى الله محمدا ﷺ برسالته ونبوته، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء:١١٣]. وبناءً على هذا فقد أمره الله ﷻ باتباع ما أوحي إليه، وتبليغ ما أنزل إليه، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ [سورة المائدة:٦٧]. فمنزلة الرسول ﷺ من الدين هي البلاغ والبيان، فهو المبلغ عن الله دينه ووحيه، والهادي إلى سواء الصراط. فمن آمن به فقد آمن بالله،وقد أوجب الله على العباد طاعة هذا الرسول ﷺ واتباع أمره، والانتهاء بنواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [سورة الحشر:٧].

كما أوجب الله على المؤمنين ردّ قضاياهم عند التنازع إلى الله ورسوله، وجعل ذلك من مقتضيات الإيمان ولوازمه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [سورة النساء:٥٩].

وفي هذا يقول ابن كثير: "وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الشورى:١٠] ... فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر"(١) .

وكما أوجب الله على المؤمنين الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد أوجب عليهم تحكيم رسول الله ﷺ والتحاكم إليه، والتسليم لحكمه، وجعل ذلك من مستلزمات الإيمان في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ج٢/٣٠٤.

وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء:٦٥]. فقد "أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحَكِّمُوا رسولَه في كل ما شَجَرَ بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحَرَجُ والضِّيقُ عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم -أيضًا- بذلك حتى يسلموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦]. فأخبر سبحانه: أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومَن تخير بعد ذلك فقد ضَلَّ ضلالًا مبينًا"(١).

فالكتاب والسُّنة هما الأصل لشرع الله الذي لا نقص فيه ولا عيب، والاعتقاد بأنهما وحيٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن لوازم ذلك الإيمان التسليم لهما والانقياد. فهما الميزان الحق الذي نعرف به صواب الأقوال والمذاهب من خطئها، وليس العكس، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء:٨٢-٨٣].

■ ثانيًا- الخشية من الله:

فبما أن الإيمان باليوم الآخر إيمان بالغيب، فإن من مقتضياته: الخشية من الله وحده، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء:٤٩]. قال ابن جرير: "الذين يخافون ربهم بالغيب، يعني في الدنيا أن يعاقبهم في الآخرة إذا قدموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه فهم من خشيته، يحافظون على حدوده وفرائضه، وهم من الساعة التي تقوم فيها القيامة مشفقون، حذرون أن تقوم عليهم، فيردوا على ربهم قد فرّطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبة بما لا قِبَل لهم به"(٢).

(١) أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، وأحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ج٢/٩٣.

(٢) مُحَمَّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ _ ٢٠٠٠م، ج١٨/٤٥٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة فاطر:١٨]. توكيد للمعنى السابق، إذ قرن ﷺ الخشية بأداء الصلاة، وباقي الطاعات، دليلاً على الصلة الوثيقة بينهما، فإنه لا يكون إيمانٌ بغيبٍ بلا عملٍ صالح. إذ المدار على العمل خشية لله وتقربًا له. وعند تفسير الإمام الطبري لهذه الآية يقول: "إنما تنذر يا مُحَمَّد الذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به، وتصديقهم لك فيما أنباتهم عن الله، فهؤلاء الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ... وقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها على ما فرضها الله عليهم". إلى أن قال: "ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته. فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به ... وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، وبركم وفاجركم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدم من خير وشر على ما أهل منه"[(١)].

▪ثالثًا- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فإن العبد المؤمن إذا صلح في نفسه، وفرّ إلى الله بالأعمال الصالحة، التي تنجيه في الدنيا والآخرة، لم يهدأ له بال حتى يرى الناس متبعون لدين الله، مستقيمون على شرعه، وما ذاك إلا لإيمانه الصادق بما عند الله، ويقينه بأن هناك يوم غير اليوم الذي نحن فيه، فما يلبث إلا أن يدعو إلى الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا من تمكين الله لأوليائه، وتسخيرهم لعمارة الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ ﴾ [سورة النور:٥٥]. لكن هذا الوعد الإلهي الذي هو حق وصدق وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله وحكمته، والإيمان برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان يبعث ممارسة كل ما فيه خير وبر وصلاح، للفرد والجماعة، ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعا[(٢)]. "وإن الله لا يحفظ الأمم بذواتهم

---

(١) تفسير الطبري، ج٢٠/٤٥٦.

(٢) مُحَمَّد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م، ج٤/٢٨٨ وما بعدها.

وبركة أجسادهم، ولا بعباداتهم الشخصية القاصر نفعها عليهم، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وطاعة الأمة لهم"[(١)].

ثم تولى الله توضيح جملة من مقتضيات الإيمان والعمل الصالح حين قال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النور:٥٥-٥٦] ويلتقي مع هذه الآيات حول نفس المعنى قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [سورة الحج: ٤١]. فهذه هي الضمانات الكبرى والدائمة، لتمكين المؤمنين في الأرض. "ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التهيُّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك ، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [سورة النور: ٥٤]. وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة ، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات"[(٢)].

▪رابعًا- موالاة المؤمنين:

إن من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر هو موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة:٢٢]. فمن لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر عدم موالاة الكافرين، وقد نوّه الله ﷻ بالفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، ورتب الرضا وحسن الجزاء على ذلك.

ولتأكيد هذا المعنى يقول السعدي: "لا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج١٢/٢٠٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/٢٨٢.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، ... وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مواد لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى، لا تفيد شيئا ولا يصدق صاحبها"[(١)].

ونخلص مما سبق إلى أن "مقتضى الإيمان الصحيح هو الإنجاء من المهالك والإسعاد في الدنيا والآخرة، وبقاء الأثر والسمعة الطيبة والذّكر الجميل إلى آخر الدهر"[(٢)]. وأن من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر الجامعة: طاعة الرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتصديقه في كل ما أخبر به عن ذلك اليوم؛ لأنه غيب، ولا وسيلة إلى معرفة الغيب إلا عن طريقه ﷺ فهو المبلغ عن الله تعالى.

ثم إن هذا الإيمان ليتطلب استقامةً فردية بالتزام الطاعات، والأعمال الصالحة، واستقامةً جماعيةً تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهذا من الضمانات لتمكين هذه الأمة من الأرض وعمارتها. كما أن الإيمان الحقيقي بالآخرة، ليكون في موالاة المؤمنين المخلصين، والبراءة من الكافرين والمنافقين الآيسين من الآخرة ونعيمها.

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٨٤٨.

(٢) د.وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير الوسيط، دار الفكر- دمشق، الطبعة:الأولى،١٤٢٢ هـ، ج٣/٢١٧٧.

المبحث الثاني
المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مقصد تثبيت عقيدة الإيمان باليوم الآخر في النفوس.

المطلب الثاني: مقصد الإيمان بالغيب (تحقيق وقوع يوم القيامة).

المطلب الثالث: مقصد صلاح النفس والجماعة.

المطلب الرابع: مقصد تعمير العالم الدنيوي.

المطلب الأول

مقصد تثبيت عقيدة الإيمان باليوم الآخر في النفوس

إن عقيدةً كعقيدة الإيمان باليوم الآخر لتحتاج إلى تثبيت وتأصيل وغرس لجذورها في النفوس، وقد اتبع القرآن الكريم منهجًا واضحًا من أجل تثبيت هذه العقيدة.

وعماد هذا المنهج الرباني هو الترغيب فيما يكون عند الله لمن آمن باليوم الآخر فيرجو العبد ذلك الثواب، أو ترهيب لمن لم يؤمن وما يترتب على عدم الإيمان، فيخاف العبد ذلك العقاب. فيتوب ويؤوب ويؤمن.

وكثيرًا ما نجد هذه المقابلة بين الترغيب والترهيب في كلام الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [سورة الحجر:٤٩-٥٠]. فمن آمن باليوم الآخر والتزم هذه العقيدة يؤمن بأن الله سيغفر له ويرحمه، ومن تغطرس أو تكبر فليعلم بأن عذاب الله أليم عليه أن يتقيه ويخشاه.

وكقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [سورة النساء:١٣٤]. فرغبة ما عند الله في الآخرة، لا يعني ترك الدنيا وفضلها، فهذا حرمان إذ الكل من عند الله. "والمراد بالثواب في الآية معناه اللغوي دون الشرعي، وهو الخير وما يرجع به طالب النفع من وجوه النفع، مشتق من ثاب بمعنى رجع"(١).

يقول ابن عاشور في ذلك: " لما كان شأن التقوى عظيما على النفوس، لأنها يصرفها عنها استعجال الناس لمنافع الدنيا على خيرات الآخرة، نبههم الله إلى أن خير الدنيا بيد الله، وخير الآخرة أيضا، فإن اتقوه نالوا الخيرين.

ويجوز أن تكون الآية تعليما للمؤمنين أن لا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكل من فضل الله. ويجوز أن تكون تذكيرا للمؤمنين بأن لا يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة، إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله، على نحو قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٥/٢٢٣.

فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [سورة البقرة:٢٠٠-٢٠٢] أو هي تعليم للمؤمنين أن لا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإن في الحلال سعة لهم ومندوحة، وليتطلبوه من الحلال يسهل لهم الله حصوله، إذ الخير كله بيد الله، فيوشك أن يحرم من يتطلبه من وجه لا يرضيه أو لا يبارك له فيه"[١].

ومما يدل كذلك على اتباع القرآن لمنهج الترغيب والترهيب لتثبيت عقيدة الإيمان باليوم الآخر قوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٦٩]. "ففي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين؛ لأن الكناية عن خسرانهم خير الآخرة، مع إثبات كون خير الآخرة للمتقين تستلزم أن الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين، وهذه معان كثيرة جمعتها هذه الآية وهذا من حد الإعجاز العجيب"[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [سورة الشورى:٢٠]. يقول ابن عاشور: "معنى يريد حرث الآخرة يبتغي عملا لأجل الآخرة. وذلك المريد: هو المؤمن بالآخرة لأن المؤمن بالآخرة لا يخلو عن أن يريد الآخرة ببعض أعماله كثيرا كان أو قليلا، والذي يريد حرث الدنيا مراد به: من لا يسعى إلا لعمل الدنيا بقرينة المقابلة بمن يريد حرث الآخرة، فتعين أن مريد حرث الدنيا في هذه الآية: هو الذي لا يؤمن بالآخرة"[٣].

فمن خلال كلام ابن عاشور السابق نخلص إلى أن المقابلة بين الترغيب والترهيب من طريق الخوف والرجاء هو منهج ربانيّ يقصد إلى تثبيت عقيدة الإيمان باليوم الآخر في النفوس، ولم يكن في الأمر تعسفًا، وليس فيه مشقة على المرء، "فلا يتوهمن متوهم أن هذه الآية ونحوها تحجر تناول المسلم حظوظ الدنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف، ولا أنها تصد عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٥/٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٩/١٦٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٢٥/٧٤.

بكليهما، ولا أن الخلط بين الحظّين ينافي الإخلاص كطلب التبرد مع الوضوء وطلب الصحة مع التطوع بالصوم إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني"[١].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٥/٢٢٤.

المطلب الثاني

مقصد الإيمان بالغيب (تحقيق وقوع يوم القيامة)

إن عقيدة الإيمان باليوم الآخر في أصلها هي إيمان بغيبٍ موعود، وإن الغيب الذي يجب الإيمان به هو ما غاب عن الحس والمشاهدة من أمور الآخرة وما استأثر الله بعلمه مما أخبر به سبحانه أو أخبر عنه رسوله ﷺ. كالإيمان بالجن وبالملائكة وبنعيم القبر وعذابه.

وقد أثنى الله على عباده المؤمنين؛ من خلال ذكر صفاتهم فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة:٣-٤]. فذكره لإيمانهم بالغيب بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والجزاء بصيغة التجدد في قوله ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ دليل على تجدد إيمانهم بالغيب فإنهم لم يتصفوا بذلك إلا بعد أن جاءهم القرآن وعلمهم. وقد "خص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان؛ لأن الإيمان بالغيب أي ما غاب عن الحس هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى فسهل عليه إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة كما كان حال الماديين وهم المسمون بالدهريين الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [سورة الجاثية: ٢٤]. وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين ولذلك عبدوا الأصنام المجسمة ومعظم العرب كانوا يثبتون من الغيب وجود الخالق وبعضهم يثبت الملائكة ولا يؤمنون بسوى ذلك"[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ عبّر عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان؛ لأن هاته المادة تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال، ولأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة، غريبة بحسب المتعارف، وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها، كان الإيمان بها جديرا بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان، فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والتفكير فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ[(٢)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/ ص٢٢٨ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج١/ ص٢٣٧ وما بعدها.

ونخلص من هذا إلى أن الإيمان بالغيب أصل من أصول الإيمان، ولا يسمى المؤمن مؤمناً إلا إذا آمن به، وتيقن وقوعه وتحققه. وينبني على هذا الإيمان أن يكون العمل في الدنيا بما ينعّم الروح في الدنيا والآخرة، وينجّيها من الشقاء في الدنيا والآخرة. فلا يكفي مجرد الإيمان بلا عمل؛ لأن الذي يعلم يقينًا لقاء الله ويؤمن بحوادث الآخرة، لا يفرط في العمل الصالح الذي يهون عليه، وييسر حسابه، وينعمه وينجيه.

المطلب الثالث
مقصد صلاح النفس والجماعة

إن الإيمان باليوم الآخر ليُلبس صاحبه لباس التقوى، الذي يقصد إلى صلاح النفس والجماعة، لأن العبد إذا آمن باليوم الآخر عمل صالحًا وخاف الآخرة وسعى لها سعيها، كان في نفسه صالحًا. وصلاح العبد في نفسه هو صلاح لمجتمعه الذي يعيش فيه، فهو فرد من أفراده، فلو آمن مجموعة أفراد لتكون مجتمعًا مؤمنًا، صالحًا بصلاح أفراده. كمجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، إذ آمنوا بالله واليوم الآخر فصلحوا في أنفسهم، وصلح مجتمعهم.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]. فذكر سبحانه أصول الإيمان ومرتكزاته، بأنها من البر الذي هو سعة الإحسان وشدة الرضا، وقد أشار ابن عاشور إلى المعنى ذاته فيقول: "لقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال. فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة ويبذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحرارا. والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض"(١).

كما يبين أن الإيمان فيه صلاح للنفس وللغير، وأن الارتداد عن الدين فساد، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [سورة آل عمران:١٤٤]. " أي شيئا من الضر ولو قليلا، لأن الارتداد عن الدين إبطال لما فيه صلاح الناس، فالمرتد يضر بنفسه وبالناس، ولا يضر الله شيئا، ولكن الشاكر الثابت على الإيمان يجازى بالشكر لأنه سعى في صلاح نفسه وصلاح الناس، والله يحب الصلاح ولا يحب الفساد"(٢).

وكثيرًا ما يعمد ابن عاشور إلى بيان المقاصد التي ترسّخ العقيدة من خلال الإيمان بأن الشريعة سمحة، وأن الأوامر والنواهي الشرعية ما جاءت إلا لاستقامة حال الأمة، والعمل للنجاة في الدنيا والآخرة،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢/ ١٢٨وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٤/ ص١١٣.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٥]. "ليس المراد أن من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من ثواب الآخرة وحظوظها، فإن الأدلة الشرعية دلت على أن إرادة خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلا لإصلاح الدنيا والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة، قال الله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [سورة آل عمران:١٤٨]"(١).

وبناءً على ذلك فإن من مظاهر صلاح النفس والجماعة الطمأنينة بجزاء الله تعالى، إذ يجازي كلاً بحسب عمله، فيجعل العبد دائماً في عمل صالح إذا أشرك في نيته حظ الدنيا والآخرة، ومن جرد عمله من الآخرة نال حظ الدنيا فقط، وخسر حظّ الآخرة الذي فيه النجاة.

وخلاصة القول: أن الإيمان باليوم الآخر عند ابن عاشور هو الباعث الحقيقي على القيام بالأعمال كلها؛ لأن به عملياً صلاح الإنسان، وهو الذي يغرس في نفسه جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى تصير سجية فيه دون كلفة، ولا حاجة إلى رقيب أو حسيب، فإذا غاب هذا الاعتقاد ضعف الوازع، واستباحت النفس المعاصي في الخلوات، وانتهكت محارم الله(٢). وإن الطمأنينة بجزاء الله تعالى، والتحفيز للعمل الصالح، هما أبرز مظاهر مقصد صلاح النفس والجماعة.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/ ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١/ص٢٦٢ وما بعدها. عبد الرؤوف تاج الدين صوان، مقاصد العقائد عند الشيخ الطاهر بن عاشور، رسالة ماجستير من جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية – قسم العقائد والأديان، للعام الجامعي ١٤٣٧-١٤٣٨هـ.

المطلب الرابع
مقصد تعمير العالم الدنيوي

من مقاصد الإيمان باليوم الآخر تعمير العالم الدنيوي، وإنما يكون تعمير العالم الدنيوي ببذل الجهد في الطاعة والعمل الصالح، ليتحقق له النعيم الأبدي في الآخرة. وأكّد ابن عاشور على هذا المقصد، وبيّن أن الدنيا هي دار العمل الذي يتحقق به تعمير العالمين الدنيوي والأخروي، فيقول: "هل يخامركم شك في أن الشريعة ما طلبت من الناس الإيمان والإسلام لمجرد تعمير العالم الأخروي من جنة ونار، لأن الله تعالى قادر على أن يخلق لهذين الموضعين خلقا يعمرونهما إن شاء خلقهما، ولكن الله أراد تعمير العالمين الدنيوي والأخروي، وجعل الدنيا مصقلة النفوس البشرية تهيئها للتأهل إلى تعمير العالم الأخروي لتلتحق بالملائكة، فجعل الله الشرائع لكف الناس عن سيء الأفعال التي تصدر عنهم بدواعي شهواتهم المفسدة لفطرتهم، وأراد الله حفظ نظام هذا العالم أيضا ليبقى صالحا للوفاء بمراد الله إلى أمد أراده، فشرع للناس شرعا ودعا الناس إلى اتباعه والدخول إلى حظيرته ذلك الدخول المسمى بالإيمان وبالإسلام لاشتراط حصولهما في قوام حقيقة الانضواء تحت هذا الشرع، ثم يستتبع ذلك إظهار تمكين أنفسهم من قبول ما يرسم لهم من السلوك عن طيب نفس، وثقة بمآلي نزاهة أو رجس. وذلك هو الأعمال ائتمارا وانتهاء وفعلا وانكفافا. وهذه الغاية هي التي تتفاوت فيها المراتب إلا أن تفاوت أهلها فيها لا ينقص الأصل الذي به دخلوا فإن الآتي بالبعض من الخير قد أتى بما كان أحسن من حاله قبل الإيمان، والآتي بمعظم الخير قد فاق الذي دونه، والآتي بالجميع بقدر الطاقة هو الفائز، بحيث إن الشريعة لا تعدم منفعة تحصل من أفراد هؤلاء الذين تسموا بالمؤمنين والمسلمين ... فالأعمال إذن لها المرتبة الثانية بعد الإيمان والإسلام لأنها مكملة المقصد لا ينازع في هذين- أعني كونها في الدرجة الثانية وكونها مقصودة- إلا مكابر"[(١)].

فجعل الأعمال هي وسيلة التعمير، لا مجرد الإيمان والاعتقاد، فلا بد أن يظهر ذلك في عمل الجوارح، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [سورة البقرة:١٤٣]. "يعني الصلاة، فإن الله سمى الصلاة إيمانا، ولولا أن العمل من الإيمان لما سميت كذلك، فتبين أن الأعمال هي الغاية من الإيمان والإسلام"[(٢)]. وبها جميعًا يكون التعمير.

يقول ابن عاشور: "لقد كانت دعوة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه، ج١/٢٧٣.

ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [سورة البقرة: ١٢٦]. من جوامع كلم النبوءة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام ... ومقصد إبراهيم من دعوته هذه أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها فلا تضطرهم الحاجة إلى سكنى بلد آخر لأنه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد وخصال الحنيفية وهي خصال الكمال"(١).

وقد ختم الآية بقوله: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ففيه بيان للكافر بأن لا يغتر بنعيم الدنيا ويحسب أن الله راض عنه، إذ يزيده من النعيم، وهو لاهٍ في دنياه، عاصٍ في عمله، جاحد لدين الله، وكافر بشريعته.

فإن الرزق من أسباب التعمير، وبه يستتب الأمن ويعم الاستقرار لكنه بهذا تعمير دنيوي فقط، وهو محصلة الكافر من هذه الحياة، لذلك بيّن الله بأن مصيره النار في الآخرة بعد ذكره لدعوة إبراهيم عليه السلام. لكن المؤمن بالله واليوم الآخر لتتهيأ له أسباب التعمير الدنيوي، ويعمل هو عملا صالحًا فيه طاعة لمولاه وخالقه فيعمر العالَمين الدنيوي والأخروي بإيمانه وعمله، ويتحقق له مقصد التعمير لأنه آمن باليوم الآخر.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٧١٦ وما بعدها.

المبحث الثالث
المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ.

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: ماهية الإيمان بالموت والبرزخ.

المطلب الأول: مقصد الترغيب والإقبال على الآخرة.

المطلب الثاني: مقصد ابتلاء واختبار الناس.

المطلب الثالث: مقصد الحث بالمسارعة إلى التوبة.

تمهيد

ماهية الإيمان بالموت والبرزخ

إن الموت حتم لازم على كل المخلوقات، لا مناص منه و لا مفرّ، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [سورة آل عمران:١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص:٨٨]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [سورة الرحمن:٢٦-٢٧].

والموت حق على الإنس والجن، ففي «الصحيح» عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان يقول: " **أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ** "[١]. ولو نجا أحد من الموت لنجا منه محمد رسول الله أفضل الرسل وصفوة الله من خلقه ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [سورة الزمر:٣٠].

والموت خلق من خلق الله تعالى. والحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرِّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر، وقيل: الموت في كلام العرب يطلق على السكون، وكل ما سكن فقد مات.

وسمي النوم موتا؛ لأنه يزول معه العقل والحركة، تمثيلا وتشبيها، لا تحقيقا. كما في حديث دعاء الانتباه[٢]: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»[٣]. والمواتُ بالفتح: ما لا روحَ فيه[٤]. والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمِّه.

إذن؛ فمدار معنى الموت في اللغة بين السكون، وانقطاع الحياة، وزوال العقل والحركة، وهو مصدر

---

(١) رواه البخاري، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الحديث رقم: ٧٣٨٣، ص١٢٧٠.

(٢) عن حذيفة بن اليمان، قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه، قال: "باسمك أموت وأحيا" وإذا قام قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور". رواه البخاري، في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، الحديث رقم: ٦٣١٢، ص٦٣١٢.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٢/٩٠ وما بعدها.

(٤) الجوهري، الصحاح، مرجع سابق، ج١/٢٦٧.

المعنى الاصطلاحي وعليه مبني، فالموت هو "انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار"(١). وإلى هذا المعنى يشير ابن عاشور، ويبين الحكمة من الموت بقوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الواقعة:٨٦-٨٧]. "فيه إيماء إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان؛ لأنه لتخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلا إلى الحياة الأبدية الحق التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٥]. فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها، ولأبقيناها؛ لأن الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني"(٢).

● **البرزخ في اللغة والشرع:**

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [سورة الفرقان:٥٣]. أي: حاجزاً(٣).

والبرزخ في الشريعة: هو ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ. قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١٠٠] . قال مجاهد: هو ما بين الموت والبعث، وقيل للشعبي: مات فلان، ليس هو في دار الدنيا، ولا في الآخرة(٤).

وإن حقيقة الموت لقضية يكتنفها الغموض؛ كونها قضية غيبية مجهولة الكيفية والزمان والمكان، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [سورة لقمان:٣٤].

وإن معرفة مقاصد الإيمان بالموت والبرزخ لمهم جدا، يقول سيد قطب عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [سورة النجم:٤٤]. " أمات وأحيا.. أنشأ الموت والحياة، وهما أمران معروفان كل

---

(١) محمد بن شمس الدين القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: د.الصادق بن محمد إبراهيم، دار المنهاج _الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ج١/١١٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٣٤٦.

(٣) القرطبي، التذكرة، مرجع سابق، ج١/٤٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ج١/٤٧٧. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٣/٨.

المعرفة بوقوعهما المتكرر. ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء.. فما الموت؟ وما الحياة؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي؟ ما هي؟ ومن أين جاءت؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء؟ وما الموت؟ وكيف كان.. قبل دبيب الحياة. وبعد مفارقتها للأحياء؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل، بيد الله! أمات وأحيا.. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة. في عوالم الأحياء كلها. في اللحظة الواحدة. في هذه اللحظة. كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت. وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة. ودب فيها هذا السر من حيث لا تعلم ومن حيث لا يعلم أحد إلا الله! وكم من ميتات وقعت فإذا هي ذاتها بواعث حياة! وكم من هذه الصور يتراءى على مدار القرون، حين يستغرق الخيال في استعراض الماضي الطويل، الذي كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب. وندع ما يعلمه الله في غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال الإنسان! إنها حشود من الصور وحشود تطلقها هذه الكلمات القلائل، فتهز القلب البشري من أعماقه. فلا يتمالك نفسه ولا يتماسك تحت إيقاعاتها المنوعة الأصداء !"(١)

وقد تناول ابن عاشور قضية الموت من خلال تفسيره مؤكدا على بعض مقاصد الإيمان بالموت، ومن تلك المقاصد:

- مقصد الترغيب والإقبال على الآخرة.
- مقصد ابتلاء واختبار الناس.
- مقصد الحث بالمسارعة إلى التوبة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص٣٤١٦.

المطلب الأول

مقصد الترغيب والإقبال على الآخرة

الترغيب والترهيب من أساليب القرآن التي استخدمها وكررها أكثر من مرة؛ لتقريع الكافرين، وترغيب المؤمنين فيما عنده. وإن المرء إذا أدرك أنه في دار ممرّ وفناء، أقبل على الآخرة بقلبه وسعى إلى الطاعات سعيًا حثيثًا. "فالله سبحانه يرغبنا في الآخرة وذلك بخلق الموت والذي من خلاله يفهم طبيعة وحقيقة الحياة الدنيا؛ لأن عمره قصير وهناك حياة أخرى تنتظره"(١).

وليتحقق هذا المقصد أمرنا الله ﷺ بكثرة ذكر الموت؛ لما له من أثر على الروح المؤمنة في ردعها عن المعاصي، وكفها عن الآثام، وانعدام تعلقها بالحياة الدنيا وزخرفها واغترارها بها، يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [سورة لقمان:٣٣].

كما أن المتذكر للموت لكثير الإقبال على الله بالطاعات، جادّ في سيره إلى الله رغبةً فيما عنده، زاهد في الدنيا، متيقّن زوالها. وقد بيّن الله لعباده أنهم ملاقوه بأسلوب يجمع بين التحذير والترهيب فقال سبحانه: ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة:٢٢٣]. "والملاقاة: مفاعلة من اللقاء وهو الحضور لدى الغير بقصد أو مصادفة. ... وإنما أمرهم الله بعلم أنهم ملاقوه مع أن المسلمين يعلمون ذلك تنزيلا لعلمهم منزلة العدم في هذا الشأن، ليزاد من تعليمهم اهتماما بهذا المعلوم وتنافسا فيه ... وقد رتبت الجمل الثلاث الأول على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولا ثم يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعارا بأنها هي الاستعداد ثم ذكروا بأنهم ملاقو الله فجاء ذلك بمنزلة التعليل"(٢).

فمن صيغة التعليل في تفسير ابن عاشور السابق يتبين مقصد ملاقاة الله عز وجل والتي لا تحصل إلا بالموت، فترغيبًا للعمل الصالح يبشّر المؤمنين بأنهم ملاقو ربهم.

ومما يقول ابن عاشور في حديثه عن هذا المقصد ما أورده عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ

(١) صايت إلهام، مقاصد الإيمان باليوم الآخر، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢/٣٧٥.

ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد:٢١]. إن ذلك مسوق مساق الترغيب فيما به تحصيل نعيم الآخرة والتحذير من فواته وما يصرف عنه من إيثار زينة الدنيا، وقد عبر بالمسابقة كناية عن المنافسة، أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأخريات والخوالف[١].

فإن ما يتحصل عليه العبد من النعيم في الآخرة، لا طريق للوصول إليه إلا عن طريق الموت، وانتهاء الحياة الدنيا، فإذا علم العبد ذلك، وآمن به، سابق وأكثر من أسباب تحصيل ذلك النعيم من الإيمان والعمل الصالح.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٤٠٧.

المطلب الثاني
مقصد ابتلاء واختبار الناس

إن الابتلاء من أبرز مقاصد الإيمان بالموت والبرزخ، فالقبر أول منازل الآخرة، وفيه يكون سؤال الملكين، ويرى العبد مقعده من الجنة، أو مقعده من النار، وفي هذا السؤال تكمن حقيقة الابتلاء والاختبار. ثم "إن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية؛ لترتاض به نفوس أوليائه، وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية فتحمد عواقب البلوى، ولتتخبط نفوس المعاندين وينزوي بعض شرها زمانا"(١).

كما أن الابتلاء لا يكون إلا في طور العقل والتكليف، فلا يبتلى الأطفال وغير المميزون، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان:٢] فجملة نبتليه، أي مريدين ابتلاءه في المستقبل، أي بعد بلوغه طور العقل والتكليف؛ لأن الابتلاء ـأي التكليفـ الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير. وحقيقة الابتلاء: الاختبار لتعرف حال الشيء وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظيم؛ لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته(٢).

ولقد خلق الله السماوات والأرض وخلق الموت والحياة، وزيّن الأرض بما عليها؛ لابتلاء عباده واختبارهم، فيعلم من يريده ويخافه بالغيب ومن يريد الدنيا وزينتها، فيعلم الصادق من الكاذب. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢]. قال: ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ليدل على أن ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله وأن حكمته الابتلاء؛ ليظهر للرسول ﷺ وللناس

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/٤٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٩/٣٧٤ وما بعدها.

من ثبت على الإيمان من غيره، ولأن في الابتلاء أسرار عظيمة في المحاسبة بين العبد وربه سبحانه [(١)].

كما ورد هذا المعنى -الاختبار والابتلاء- في تفسير ابن عاشور في أكثر من موضع، فيقول عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك:٢]. فاللام في ليبلوكم لام التعليل، أي في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم. فقوله: ليبلوكم أيكم أحسن عملا تعليل لفعل "خلق". والبلوى: الاختبار. وإن معنى الابتلاء مشعر بترتب أثر له وهو الجزاء على العمل. فأيكم أحسن عملا، أي أحسن عملا من غيره، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها، فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوى؛ لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى؛ لأن إحصاءها والإحاطة بها أولى في الجزاء لما يترتب عليها من الاجتراء على الشارع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم، وذلك أولى بالعقاب عليه [(٢)].

فيبين الله ﷻ من خلال الآية السابقة أنه خلق الموت؛ لقصد الابتلاء واختبار العباد، فمن كان محسنًا فله إحسانه، ومن كان مسيئًا فعليه إساءته، ويؤكد ابن عاشور على هذا المقصد فيقول: " والمعنى: أنه خلق الموت والحياة؛ ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أمواتا يخلصون إلى يوم الجزاء فيجزون على أعمالهم بما يناسبها" [(٣)].

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٩/١٢ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٩/١٣.

المطلب الثالث
مقصد الحث بالمسارعة إلى التوبة

إن من مقاصد الإيمان بالموت والبرزخ مقصد الحث على المسارعة إلى التوبة، ذلك أن العبد إذا علم أن الموت لا محالة آتيه، سارع إلى تنقية عمله من الذنوب والمعاصي عن طريق تجديد التوبة إلى الله والعودة إليه.

والتوبة شعور وجداني بالندم على ما وقع، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل، كما يحققها الكف بالترك؛ فهي فعل وجودي يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابته إليه، والتزام طاعته؛ فمن ترك الذنب تركًا مجردًا ولم يرجع منه إلى ما يحبه الله ﷻ لم يكن تائبًا إلا إذا رجع وأقبل وأناب إلى الله ﷻ وحل عقد الإصرار وأثبت معنى التوبة في الجنان قبل التلفظ باللسان، وأدام الفكر فيما ذكره الله ﷻ من تفاصيل الجنة، ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتوعد به العاصين، وواظب على ذلك حتى يقوى خوفه ورجاؤه، فيدعو الله ﷻ رغبًا ورهبًا أن يقبل توبته، ويغسل حوبته، ويحط عنه خطاياه، وبهذا يكون قد حقق مدلول التوبة بالرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه؛ بأن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع، ويندم بقلبه ويستغفر بلسانه، ويمسك ببدنه، ويتقي الله – تعالى – ويعمل بطاعته على نور منه يرجو ثوابه ويخاف عقابه، ويرغب إلى خالقه وفاطره أن يقي نفسه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين(١).

وإن التوبة تتركب من علم وحال وعمل، فالعلم هو معرفة الذنب، والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر ويسمى ندما، والعمل هو الترك للإثم وتدارك ما يمكن تداركه وهو المقصود من التوبة، وأما الندم فهو الباعث على العمل(٢).

كما أن للتوبة ركنان: هما الاستغفار عن ما مضى، ونفي الإصرار على الذنب، وقد أشار إليهما ابن عاشور بقوله: "في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [سورة آل عمران:١٣٥]. إشارة إلى الندم،

---

(١) صالح بن غانم السدلان، التوبة إلى الله: معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها، دار بلنسية- الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٦ هـ، ص١١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٣٨.

وقوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [سورة آل عمران:١٣٥]. تصريح بنفي الإصرار، وهذان ركنا التوبة[(١)].

وأما عن أثر التوبة يقول مُحَمَّد رشيد رضا: "إنها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه، وما له من السلطان عليه في الحال، وكون مصيره إليه في المآل، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية، ويحدث في روحه انفعالا مما فعل، وندما على صدوره عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيئ ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [سورة هود:١١٤].

فمن علامة التوبة النصوح الإتيان بأعمال تشق على النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب، وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة، سواء كان الذنب مع الله - تعالى - أو مع الناس"[(٢)].

"والتوبة نوعان: واجبة، ومستحبة.

فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور. وهي واجبة على كل المكلفين كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله. والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات. فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين وإما الفاسقين. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة الواقعة:٧-١٢][(٣)].

كما أن التوبة من الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/٩٢.

(٢) مُحَمَّد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١/٢٦٥.

(٣) أحمد بن تيمية، التوبة ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، تحقيق: عبد الله حجاج، مكتبة التراث الإسلامي، ص١٣ وما بعدها.

يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء:١٧]. أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرما منه وجودا، لمن عمل السوء أي: المعاصي ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سد على نفسه باب الرحمة.

فقد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة يمحو بها ما سلف من سيئاته وما تقدم من جناياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء:١٧] (١). وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة النور:١٠]. "ذكر وصف الحكيم مع وصف تواب؛ إشارة إلى أن في هذه التوبة حكمة وهي استصلاح الناس" (٢).

وإن الواجب على العبد بعد التوبة أن يستزيد من فعل الطاعة؛ ليعوض ما فاته. ويؤكد ابن عاشور هذا المعنى فيقول: "إن التوبة ترفع المؤاخذة بما مضى، فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة؛ ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات فعمرها بالسيئات فإذا وردت عليها التوبة زالت السيئات وأصبحت تلك المدة فارغة من العمل الصالح" (٣).

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة التوبة:١٠٥]. أي إن خشيتم المؤاخذة فاعملوا الخير للمستقبل فسيرى الله عملكم ورسوله إن أحسنتم، والمقصود فتح باب التوبة لهم، والتنبيه إلى المكنة من استدراك أمرهم. وفي ذلك تهديد بالوعيد إن لم يتوبوا. إذ الإخبار برؤية الله ورسوله عملهم في المستقبل مستعمل في الكناية عن الترغيب في العمل الصالح، والترهيب من الدوام على حالهم. والمراد: تمكنهم من إصلاح ظاهر أعمالهم، ولذلك أردف بقوله: ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة، أي تصيرون بعد الموت إلى الله. فالرد بمعنى الإرجاع، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [سورة الأنعام:٦٢]. والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرف فيه لغير الله ولو في ظاهر الأمر. ولما كانت النفوس من خلق الله وقد أنزلها إلى عالم الفناء الدنيوي فاستقلت بأعمالها مدة العمر كان مصيرها بعد الموت أو عند البعث

---

(١) شحود، الاستعداد للموت، ١٤٦ وما بعدها.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/١٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١١/٢٥.

إلى تصرف الله فيها شبيها برد شيء إلى مقره أو إرجاعه إلى مالكه[(١)].

ونخلص من هذا إلى أن المسارعة إلى التوبة، استدراكٌ للعمل الصالح فيما بقي من العمر، قبل انقطاعه بالموت؛ وفي هذا ترغيب وتحضيض على التوبة، لأن مرجع الإنسان إلى ربه، وهذا من مقاصد الإيمان بالموت والبرزخ.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١١/٧.

المبحث الرابع
المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: ماهية الإيمان بأشراط الساعة.

المطلب الأول: مقصد إثبات صدق ودلائل نبوءة النبي ﷺ.

المطلب الثاني: مقصد إشباع الرغبة الفطرية في الإنسان.

المطلب الثالث: مقصد تعلم كيفية التعامل الصحيح مع وقائع الساعة.

تمهيد

ماهية الإيمان بأشراط الساعة

أولاً– تعريف أشراط الساعة:

أ. معنى الشَّرَط:

الشَّرَط بالتحريك هو العلامة، جمعه أشراط، وأشراط الشيء: أوائله؛ ومشاريط الأشياء: أوائلها كأشراطها. وأشراط كل شيء: ابتداء أوله. ومنه: الاشتراط الذي يشترط الناس بعضهم على بعض أي هي علامات يجعلونها بينهم. ومنه: شُرَط السلطان: نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده (١).

ب. معنى أشراط الساعة:

أشراط الساعة: هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها، قال الأصمعي: أشراط الساعة علاماتها. وقيل: هي أسبابها التي هي دون معظمها وقيامها، وقيل: أشراط الساعة ما تنكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة (٢).

والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة الناس عليها تنبيه الناس من رقدتهم وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها والله أعلم (٣).

ثانيًا– أقسام أشراط الساعة:

تنقسم أشراط الساعة إلى قسمين:

أ. أشراط صغرى:

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان ... ونحوها، وقد يظهر بعضها مصاحبًا للأشراط الكبرى أو بعدها (٤).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٧/٣٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ج٧/٣٣٠. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مرجع سابق، ج٢/٤٦٠.

(٣) القرطبي، التذكرة، مرجع سابق، ص١٢١٧.

(٤) يوسف الوابل، أشراط الساعة، دار ابن الجوزي، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ_١٩٩٥م، ص ٧٧.

ب. أشراط كبرى:

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، وهي علامة على انتهاء الدنيا وانقضائها، كخروج الدجال، ونزول عيسى وقتله الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها (١).

وقد قسم بعض العلماء أشراط الساعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام، وممن سار على هذا التقسيم الحافظ ابن حجر حيث قال: "ما أخبر النبي ﷺ بأنه سيقع قبل أن تقوم الساعة على أقسام:

أولها: ما وقع على وفق ما قال، أي ظهر وانقضى.

الثاني: ما وقعت مباديه ولم يستحكم، أي ظهر و لا زال يتتابع ويكثر.

والثالث: ما لم يقع منه شيء ولكنه سيقع " (٢).

وعلم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله تعالى، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧]. فيأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يخبر الناس أن علم الساعة عند الله وحده، فهو الذي يعلم جليّة أمرها، ومتى يكون قيامها، لا يعلم ذلك أحد من أهل السماوات والأرض، فإن علم الساعة مما استأثر الله بعلمه فلم يطّلع عليه ملكًا مقرّبًا ولا نبيّا مرسلا (٣). وقد تناول ابن عاشور الحديث عن الساعة مؤكدًا على بعض مقاصد الإيمان بالساعة وأشراطها، ومن تلك المقاصد:

-مقصد إثبات صدق ودلائل نبوءة النبي ﷺ.

-مقصد إشباع الرغبة الفطرية في الإنسان.

-مقصد تعلم كيفية التعامل الصحيح مع وقائع الساعة.

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٧، القرطبي، التذكرة، مرجع سابق، ص١٢١٧.

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩م، ج١٣/٨٣.
شمس الدين محمد السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين– دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م، ج٢/٦٦.

(٣) يوسف الوابل، أشراط الساعة، مرجع سابق، ص٥٧.

المطلب الأول

مقصد إثبات صدق ودلائل نبوءة النبي ﷺ

من أهداف ذكر النبوءات والأشراط والفتن والملاحم، ثم مجيئها على وفق ما أخبر به ﷺ أنها أمارات وعلامات وبراهين وحجج وأدلة دامغة، وشواهد ناطقة على صدق الرسول ﷺ في رسالته، وبلاغته عن ربه سبحانه؛ فيزدادوا بهذا النبي العظيم إيمانًا، ويقينًا بصدق رسالته، واستمساكًا بهذا الدين الذي حمله ﷺ للناس، وبلّغه على أرفع صور البلاغ المبين[(١)]. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب:٢٢].

فإن الله يظهر الآيات على يد رسوله ﷺ لتأييد صدقه، فالناس إذا رأوا أي خارق للعادة أظهره الرسول ﷺ صدقوا وأيقنوا. والله تعالى لا يغير نظام خلقته في هذا العالم إلا إذا أراد تصديق الرسول؛ لأن خرق العادة من خالق العادات وناظم سنن الأكوان قائم مقام قوله: صدق هذا الرسول فيما أخبر به عني[(٢)]. و لأن الوحي إلى النبي ﷺ بأن يتحداهم به قبل حصوله دليل على أنه مرسل من الله إذ لا قبل للرسول ﷺ بمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب[(٣)].

ومن دلائل صدق الرسول ﷺ إخباره بأشراط الساعة، فخبر انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [سورة القمر:١] . مما عُدّ في مباحث المعجزات، وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي ﷺ. إذ أن أحد أشراط الساعة المتحققة، هو معجزة.

فجعلت تلك المعجزة وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإدماج بمناسبة أن القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي فلما حدث تغير في نظامه لم يكن مألوفا ناسب تنبيه الناس للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم، وكان فعل الماضي مستعملا في حقيقته[(٤)].

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ:

---

(١) صايت إلهام، مقاصد الإيمان باليوم الآخر، مرجع سابق، ص٢٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٧/١٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٢٧/١٦٨.

«اشهدوا»[(١)]. وعنه كذلك أنه قال:" خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام "[(٢)].

ومن عجيب تهافت اعتقاد اليهود أنهم يثبتون أن مُحَّدا ﷺ مرسل من الله ويبغضونه. وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبيء عن تظاهر آرائهم على الخطأ والأوهام[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، في كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، الحديث رقم: ٣٦٣٦، ص٦١٠.

(٢) رواه البخاري، في كتاب التفسير، باب ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: هلكة، الحديث رقم: ٤٧٦٧، ص٨٣٦.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٦٢١.

المطلب الثاني
مقصد إشباع الرغبة الفطرية في الإنسان

إن التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري، فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة إلى معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني، أو تحدث للأمة التي هو منها، أو قد تحدث له، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء، بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة [(١)] والكهان والمنجمين، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب [(٢)].

وقد تعرض ابن خلدون لهذه الفائدة في مقدمة «تاريخه»، فقال: "اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوُّف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموتٍ وخيرٍ وشر، ولا سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها، والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام.
والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة [(٣)].

وغاية الناس من التطلع إلى معرفة الغيب هو الإسراع إلى الخيرات المستقبلة بتهيئة أسبابها وتقريبها، وإلى التجنب لمواقع الأضرار، فنفي الرسول ﷺ أن يملك لنفسه نفعا ولا ضرا في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [سورة الأعراف:١٨٨]. يعم سائر أنواع الملك وسائر أنواع النفع والضر، ومن جملة ذلك العموم ما يكون منه في المستقبل وهو من الغيب [(٤)].

---

(١) السحر في اللغة هو: كل ما لَطُفَ وخَفِيَ سببه، أما تعريفه في الشرع: فهو عبارة عن عزائم ورُقى وعُقد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو بالمرض، أو بالإخلال بعقله، أو يفرّق بين الزوجين، أو يأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق:٤. يعني: السواحر. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ج١/٣٤٣.

(٢) عمر بن سليمان الأشقر، القيامة الصغرى، دار النفائس–الأردن، مكتبة الفلاح–الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص١٣٢.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ص٤١١.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٩/٢٠٨.

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بدّ من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم وهم بهذه الفطرة _لوقف نشاطهم_ وأسنت حياتهم، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون، ويأملون ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحّت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه ويجهل، فيسقط ومصيره إلى الردى، ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشئ التكذيب بالساعة، فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها افنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال" (١).

وقد توهم المشركون ملازمة الاطلاع على الغيب لصفة النبوة، فيسألون الرسول ﷺ أمورًا من الغيب لتحدّيه، فسألوه عن الساعة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٨٧]. فالله سبحانه قد دل رسوله ﷺ كيف يرد عليهم بقوله: ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ ، وقوله: قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [سورة الأعراف:١٨٨]. "وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول ﷺ نحو معرفة الغيب؛ ليقلع من عقول المشركين توهم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة، إعلانا للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى يستيئسوا من تحديه بذلك، وإعلاما للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسه معرفة أحواله المغيبة، فضلا على معرفة المغيبات من أحوال غيره إلا ما شاء الله" (٢).

ونخلص من هذا إلى أن الرغبة في التطلع إلى المجهول فطرة وجبلّة، وإن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها" (٣). وإن الساعة من الغيب الموعود، وما غاية

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص٢٣٣١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٩/٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٩/١٦٨.

الناس من معرفة وقتها؛ إلا تهيئة أنفسهم والاستعداد لها، وتجنب الأسباب التي قد تهلكهم، لكن الله أخفى عنهم ذلك؛ ليبقى العبد يتقلب بين الخوف والرجاء، ولحكم يعلمها سبحانه.

المطلب الثالث

مقصد تعلم كيفية التعامل الصحيح مع وقائع الساعة

إن أشراط الساعة وعلاماتها غير محدودة الأزمنة في القرب والبعد من مشروطها [(١)]. ومن مقاصد الإيمان بالساعة أن يتعلم المرء كيف يتعامل معها، **قبل حدوثها** فينبذ الشرك ويستكثر من الأعمال الصالحة، ويجتنب الآثام لقرب يوم الجزاء، بدلالة أشراطه وعلاماته.

قال تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ [سورة الأنعام:١٥٨].

وقد جاء تفسير هذه الآية في السنة بطلوع الشمس من مغربها. فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾** "[(٢)] [الأنعام: ١٥٨]. والنفع المنفي هو النفع في الآخرة، بالنجاة من العذاب، لأن نفع الدنيا بكشف العذاب عند مجيء الآيات لا ينفع النفوس المؤمنة ولا الكافرة، لقوله تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ [سورة الأنفال: ٢٥]. فصفة: لم تكن آمنت من قبل تحذير للمشركين من التريث عن الإيمان خشية أن يبغتهم يوم ظهور الآيات، وهم المقصود من السياق. وصفة أو كسبت في إيمانها خيرا إدماج في أثناء المقصود لتحذير المؤمنين من الإعراض عن الأعمال الصالحة.

وآيات الله منها ما يختص بالمشركين وهو ما هددهم الله به من نزول العذاب بهم في الدنيا، كما نزل بالأمم من قبلهم، ومنها آيات عامة للناس أجمعين، وهو ما يعرف بأشراط الساعة، أي الأشراط الكبرى [(٣)].

وأثناء حدوث أشراطها يعرف المرء كيف يتعامل معها بالطريقة الشرعية فلا يلتبس عليه الأمر.

فمن ذلك: أن رسول الله ﷺ أخبر أن الدَّجَّال يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم من أيامه كسنة،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/١٧١.

(٢) رواه البخاري، في كتاب التفسير، باب ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾، الحديث رقم: ٤٦٣٥، ص٧٩٣.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٨-أ/١٨٣-١٩١.

ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا، وقد سأل الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ عن تلك الأيام الطويلة: أتكفي في الواحد منها صلاة يوم؟ فقال ﷺ: "لا، اقدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ"[(١)]. ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لاقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام.

وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى عليه السلام بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى، ولا يقبل منهم إلا الإيمان، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى بن مريم وحين ذاك توضع الجزية، ويقتل كل من رفض الإيمان، ولو بذل الجزية[(٢)].

كما أن الرسول ﷺ نصّ على صفات معينة لأشخاص معينين، كالمهدي مثلاً، وهذا يفيدنا في معرفة المهدي الحقيقي، والحكم على الدجّالين المدّعين المهديّة فلا نتورط في فتنتهم.

ونقل الشيخ محمّد رشيد رضا -رحمه الله- عن الألوسي -رحمه الله- قوله: "وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك"[(٣)].

وقال أيضاً في نفس المصدر: "يجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم؛ فيلتزموا فيها الحقَّ، ويتحروا الخيرَ، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدالَ، والقيل والقال"[(٤)].

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، الحديث رقم: ٧٢٩٩، ص١٣١٨.

(٢) عمر الأشقر، القيامة الصغرى، ص١٣٢.

(٣) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٩/٣٩٣.

(٤) المرجع نفسه، ج٩/٣٩١.

المبحث الخامس
المقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: ماهية الإيمان بالبعث، وبيان ما يتعلق به.

المطلب الأول: مقصد معرفة الله ﷻ.

المطلب الثاني: مقصد الاعتراف بكمال علم الله تعالى وقدرته على البعث.

المطلب الثالث: مقصد التعريف بحكمة الله وهدفية الحياة.

تمهيد

ماهية الإيمان بالبعث، وبيان ما يتعلق به

- **تعريف البعث لغة وشرعًا:**

البعث في اللغة: يأتي على ثلاثة معاني هي: الإرسال ، والإثارة ، والقوم المبعوثين.

قال الخليل بن أحمد: "البعث: الإرسال ، كبعث الله من في القبور . وبعثت البعير: أرسلته وحللت عقاله. ويوم البعث: يوم القيامة [(١)] .

وقال ابن فارس: "البعث هو الإثارة يقال: بعثت الناقة إذا أثرتها" [(٢)] .

وقال ابن منظور: والبعث أيضا الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [سورة البقرة:٥٦] ، أي: أحييناكم . وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث [(٣)] .

أما تعريف البعث شرعا فهو: إعادة بناء الأجساد بعد فنائها ، وإعادة الحياة لها بعد سلبها منها [(٤)] .

أو هو: إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها، فيخرجون من الأجداث أحياء مهطعين إلى الداعي كما ذكر الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [سورة القمر: ٧] [(٥)] .

قال ابن كثير: "البعث هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة" [(٦)] .

وقد ثبت البعث في الكتاب والسنة فالذي خلق اليوم الآخر وخلق الجنة والنار قد أخبرنا عما أعد

---

(١) الفراهيدي، العين، مرجع سابق، ج٢/١١٢.

(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج١/ ٢٦٦.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٢/١١٦ وما بعدها.

(٤) عبد الرحمن بن حسن الميداني، العقيدة الإسلامية، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ص٦٥٠.

(٥) عبد العزيز بن محمد السلمان، موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، الطبعة الثلاثون، ١٤٢٤هـ، ج١/٢٣.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٥/٣٩٥.

لعباده المؤمنين، وتوعد به الكافرين، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [سورة الحج:٦- ٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [سورة الذاريات:٥- ٦]، وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة:١-٤]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧] .

كما بيّن الرسول ﷺ كثيراً من تفاصيل أحداث اليوم الآخر كالبعث والحشر والموقف والحساب والصراط والميزان والجنة والنار. ومن ذلك: ما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ، قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤]» (١) .

وقول الرسول ﷺ: « تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً»، قَالَتْ عَائِشَةُ:«فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ » (٢) .

وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، في ذكر النفخات التي تسبق قيام الناس من القبور، وفيه: « ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ »، قال: « لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (٣) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ كذلك، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ،**

---

(١) رواه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، الحديث رقم:٣٣٤٩، ص٥٥٩.

(٢) رواه البخاري، في كتاب الرقاق، باب الحشر، الحديث رقم:٦٥٢٧، ١١٣٠.

(٣) رواه البخاري، في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، الحديث رقم:٤٩٣٥، ص٨٨٠.

فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى مُتَعَلِّقٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَذَلِكَ كَانَ أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ»(١).

وقوله ﷺ في وصف الصراط: "ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟. قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبَق بعمله، ومنهم المجازى حتى ينجّى ... إلخ"(٢).

---

(١) رواه البخاري، في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، الحديث رقم:٤٨١٣، ص٨٤٨.

(٢) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، الحديث رقم: ١٨٢، ص١٣٣.

المطلب الأول:

مقصد معرفة الله ﷻ

معرفة الله ﷻ واجبة بالشرع تمسكًا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء:١٥]. وواجبة بالعقل، من خلال النظر في الآفاق وفي الأنفس[(١)]، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت:٥٣]. وهذه المعرفة العقلية هي التي تكون لكل أحد، المؤمن والكافر؛ لأنها معرفة مستقرة في الفطر. أما المعرفة الشرعية فإنها معرفة الله تعالى بما يليق به؛ فتنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة. وإنما يتم ذلك بتنزيهه عما لا يليق به[(٢)].

وهذه المعرفة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل، وبشارة الناس وإنذارهم، فمن عرف أن مرده إلى الله، وعرف أن الله شديد العقاب، التزم الصراط المستقيم، وسار على النهج الذي بيّنه له المرسلون. وهذه هي ــأي المعرفة الشرعيةــ التي أشار إليها ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٨٠-١٨٢]. بقوله: "فهذه المقاصد الثلاثة – تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما أنعم به على المؤمنين من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم – هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل"[(٣)].

كما أن سورة الإخلاص تسمى بسورة المعرفة؛ لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة الله إلا بمعرفتها[(٤)].

وبناءً على ذلك فإن المعرفة الشرعية ترتكز على المعرفة العقلية، بدلالة سورة الناس، إذ يذكر ابن عاشور مراتب النظر في معرفة الله تعالى فيقول: "إن الناظر يعلم بادئ ذي بدء بأن له ربا يسبب ما يشعر به من وجود نفسه، ونعمة تركيبه، ثم يتغلغل في النظر فيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق، ثم

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٣/١٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٣٠/٦١٠.

يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم"[١] .

ويذكر في هذا الإمام الغزالي: "وأما الطبقة العليا من نَمَطِ اللُّباب فهي السوابقُ والأصولُ من العلوم المهِمَّة، وأشرَفُها العلمُ باللهِ واليوم الآخر لأنه علم المقْصِد، ودونَهُ العلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك، وهو معرفةُ تزكية النفس، وقطعُ عقبات الصفات المهلِكات، وتَحْلِيَتُها بالصفات المنَجِّيَات، والعلم الأعلى الأشرفُ عِلمُ معرفة الله تعالى، فإن سائر العلوم تُرادُ له ومن أجله وهو لا يُراد لغيره، وطريق التدريج فيه التَّرَقِّي من الأفعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات، ويتلوه في الشَّرف عِلمُ الآخرة وهو علم المعَاد وهو متصل بعلم المعرفة، وحقيقته معرفة نسبة العبد إلى الله تعالى عند تحقُّقِهِ بالمعرفة، أو مصيرِهِ محجوباً بالجهل"[٢] .

وخلاصة القول أن معرفة الله تعالى هي أحد مقاصد الإيمان بالبعث؛ وأعني المعرفة الشرعية؛ لأن العبد إذا عرف أن الله يبعث من في القبور، عرف المترتب على ذلك البعث من حساب وجزاء، وهذا من حكمة البعث، فيلزم العمل الصالح، ولا يحيد عن الصواب، بل يعتلي في مراتب الإيمان إلى أن يصل مرتبة الإحسان بأن يعبد الله كأنه يراه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/٦٣٣.

(٢) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، تحقيق: مُحَمَّد رشيد القباني، دار إحياء العلوم-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨م، ص٤١ وما بعدها.

المطلب الثاني
مقصد الاعتراف بكمال علم الله تعالى وقدرته على البعث

قدرة الله تحيط بالعباد، فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم، إن هلكوا في أجواز الفضاء، أو غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار، أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨].

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى منهم أحد، ولا يضلُّ منهم أحد، ولا يشذُّ منهم أحد، لقد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى، وعَدَّهم عداً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم: ٩٣-٩٥] . وقال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف: ٤٧] [١] .

أما عن تعلق علم الله بقدرته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [سورة النحل: ٧٠]. فيه "دلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه، وقدم وصف العليم لأن القدرة تتعلق على وفق العلم، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة، فضعيف القدرة يناله تعب من قوة علمه لأن همته تدعوه إلى ما ليس بالنائل" [٢] .

وما أنكر أهل الضلالة البعث إلا لجهلهم بقدرة الله تعالى، ويؤكد ذلك ابن عاشور فيقول: "جهلهم بمدى قدرة الله تعالى هو الذي جرأهم على إنكار البعث واستحالته " [٣] .

ووجه الشبه بين حال زمن لبث هؤلاء الضالين في القبور وبين لبثهم ساعة من النهار، في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [سورة يونس: ٤٥]. هو التحقق والحصول، بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا فكأنهم لم يفنوا. وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم. والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين

---

(١) عمر بن سليمان الأشقر، القيامة الكبرى، دار النفائس–الأردن، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م، ص٤٨.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٤/٢١٣.
(٣) المصدر نفسه، ج١٤/١٥٥.

إحالتهم البعث بشبهة أن طول اللبث وتغير الأجساد ينافي إحياءها ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [سورة النازعات: ١٠-١١] (١).

وكثيراً ما نجد القرآن يذكر الحجج على عظيم قدرة الله على خلق الأمور العظيمة، كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في سياق الاستدلال على وقوع البعث والحشر. ويسمي تلك الحجج آيات كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩٨] (٢).

وتتجلى مظاهر قدرته ﷻ في ثلاثة أمور:

أولاً– الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

قد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: ٦٦-٦٧] (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة:٦٢]. أعقب دليل إمكان البعث المستند للتنبيه على صلاحية القدرة الإلهية، وهو تشبيه النشأة الثانية بالنشأة الأولى المعلومة عندهم بالضرورة، فنبهوا ليقيسوا عليها النشأة الثانية في أنها إنشاء من أثر قدرة الله وعلمه، وفي أنهم لا يحيطون علما بدقائق حصولها (٤).

وفي قصة أصحاب الكهف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [سورة الكهف:١٩].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١١/١٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٧/٢١١.

(٣) القيامة الكبرى، عمر الأشقر، ص٦٧.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٣١٨.

إشارة إلى أن في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة. أي كما أنمناهم قرُونا بعثناهم (١).

وقد أعد الله لهم من الأحوال ما به رشدهم. فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم، وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة، وأن أنامهم نوما طويلا ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحق وشاهدوه منصورا متبعا، وجعلهم آية للناس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث (٢).

ثانيًا- أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء:٩٩]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: ٥٧].

فلما كانوا مقرين بأن الله هو خالق السماوات والأرض أقيمت عليهم الحجة على إثبات البعث؛ بأن بعث الأموات لا يبلغ أمره مقدار أمر خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى (٣).

وفي ذلك قال شارح الطحاوية: " أخبر تعالى أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتها وعظم شأنها وكبر أجسامها، وسعتها وعظيم خلقها أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى" (٤). "وإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ – وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك " (٥).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٥/٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١٥/٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٤/١٧٦.

(٤) عبد الله بن جبرين، شرح العقيدة الطحاوية، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net، الدرس العاشر.

(٥) أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- =

ثالثًا– قدرته جلّ شأنه على تحويل الخلق من حال إلى حال:

إن شيئًا أراد الله تكوينه لا يتوقف إلا على أن تتعلق قدرته بتكوينه. وليس إحياء الأموات إلا من جملة الأشياء، وما البعث إلا تكوين، فما بعث الأموات إلا من جملة تكوين الموجودات، فلا يخرج عن قدرته (١).

والبعث في متناول قدرة الله تعالى، فهو قادر على تغيير أحوال ما هو أعظم حالا من الإنسان، وذلك بتغيير أحوال الأرض وأفقها بين ليل ونهار في كل يوم وليلة تغييرا يشبه طروء الموت على الحياة في دخول الليل في النهار، وطروء الحياة على الموت في دخول النهار على الليل، وهو قادر على أعظم من ذلك بما سخره من سير الشمس والقمر (٢). قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان:٢٩]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥-٩٦]. من الحبة الجامدة الصماء يُخرج الله نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء.

كما أن تقلب العباد: موت فحياة، ثم حياة فموت، دليل عظم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٨] (٣).

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى مظاهر قدرته الثلاثة السابقة في موضع واحد في كتابه الكريم في معرض الرد على مكذبي البعث فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ

المدينة النبوية، ١٤١٦هـ_١٩٩٥م، ج٣/٢٩٩.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٤/١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٢١/١٨٤.

(٣) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص٦٩ وما بعدها.

نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ
وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٧٨-٨٣].

المطلب الثالث

مقصد التعريف بحكمة الله وهدفية الحياة

لم يكن حديث القرآن عن البعث لإثبات إمكانية وعدم استحالة فحسب، وإنما سبق لتحقيق أنه لا بد منه؛ لأنه من مستلزمات حكمة الله، وتثبيتًا للحكمة [(١)] ، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل:٣٨].

وهذه هي الحقيقة التي يقررها بقوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص:٢٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩٢]. وهكذا يؤكد القرآن أنه لو لم يكن بعث وحساب فإن هذا يكون عبثًا لا يقتصر على حياة الإنسان وحده، بل يمتد كذلك إلى خلق السماوات والأرض فيصبح عبثًا، وباطلاً وقائمًا على غير الحق [(٢)] . وبيان كونه عبثاً؛ أنه لو خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كل جزائه لكان ذلك إضاعة لحق المحسن وإغضاء عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطا للعبث [(٣)] .

وإنما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص:٢٧]. على كفار قريش الذين كانوا ينكرون البعث، فلما استقر أن نظام السماء والأرض وما بينهما كان جاريا على مقتضى الحكمة وكامل النظام، فعليهم أن يتدبروا فيما خفي عنهم من وقوع البعث والجزاء فإن جميع ما في الأرض جار على نظام بديع إلا أعمال الإنسان، فمن المعلوم بالمشاهدة أن من الناس صالحين نافعين، ومنهم دون ذلك إلى صنف المجرمين المفسدين، وأن من الصالحين كثيرا لم ينالوا من حظوظ الخيرات الدنيوية شيئا أو إلا شيئا قليلا هو أقل مما يستحقه صلاحه وما جاهده

---

(١) ابن القيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص٢٤٢.

(٢) محمد قطب، ركائز الإيمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص٣٨٩.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/١٣٤.

من الارتقاء بنفسه إلى معارج الكمال. ومن المفسدين من هم بعكس ذلك[(١)].

وإن من أغراض سورة الذاريات أنها احتوت على تحقيق وقوع البعث والجزاء. والاستدلال على وحدانية الله وعلى إمكان البعث وعلى أنه واقع لا محالة بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه[(٢)].

وفائدة هذا أن لا ينسوا الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته[(٣)].

فبدلالة الآيات السابقة لم نخلق عبثًا، وإنما نحن هنا لغاية تعمير العالمين الدنيوي والأخروي، بالعمل الصالح، فمن علم أن مرده إلى الله تيقن أنه خلق ووجد لعبادة الله وحده، ليتحقق له مقصد هدفية الحياة.

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٦/٣٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢٧/٢٥٢.

المبحث السادس
المقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

تمهيد: ماهية الإيمان بالحساب والجزاء.

المطلب الأول: مقصد معرفة الناس جزاء أعمالهم.

المطلب الثاني: مقصد الشعور بالمسؤولية.

المطلب الثالث: مقصد بيان عدل الله ﷻ.

تمهيد

ماهية الإيمان بالحساب والجزاء

إن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بجزاء الأعمال، وأن كل إنسان لا بد أن يوفى جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ؛ لأن يوم القيامة هو اليوم الفاصل بين هذه الحياة الدنيا، وبين الحياة الآخرة، ولأن من حكمة البعث بعد الموت -كما سبق بيانه- هو أن يجازي كل عامل وفق عمله في دنياه، ولأن أعمال الخلائق تختلف اختلافاً كثيراً من إنسان لآخر، ومن أمة لأخرى ولذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [سورة الليل:٤]. فالله ـ جل وعلا ـ سيظهر أعمال كل إنسان نصب عينيه فاقتضى الحال أنه لا بد أن يكون جزاء كل إنسان من جنس عمله[(١)].

ويراد بالحساب والجزاء أن يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال. والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين[(٢)]. "والدين هو الجزاء، فيقال كما تدين تدان أي: كما تجازي تجازى"[(٣)].

إذن فالفرق بين الجزاء والحساب أن الجزاء هو ما يترتب على أعمال العباد من ثواب أو عقاب يوم القيامة، أي هو نتيجة وثمرة أعمال العبد. أما الحساب فهو الوقوف بين يدي الله قبل الانصراف من أرض المحشر؛ لتعريفهم بأعمالهم خيرًا كانت أو شرًا، إلا من استثنى الله منهم وهم الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

ولقد ورد ذكر الجزاء، وإثبات الحساب والحث على الإيمان بهما بالمعنى السابق في كثير من الآيات

---

(١) ناصر بن علي عايض الشيخ، مباحث العقيدة في سورة الزمر، مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ_١٩٩٥م، ص٦٠٦.

(٢) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٣) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج٢/٦٠٠.

القرآنية، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة القصص:٨٤]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة النور: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [سورة الغاشية:٢٥-٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة:١٧]. وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ:٢٦]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

فالواجب على كل مسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله ـ تعالى ـ سيجازي المكلفين من عباده بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران:١٨٥].

والعباد يعيشون في هذه الدنيا متفاوتين تفاوتاً عظيماً في الأرزاق، والآجال، والأعمال، وفي السعادة والشقاوة، فمنهم الظالم العنيد، ومنهم المظلوم المغلوب، ومنهم الذليل، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض، ومنهم الغني الثري، ومنهم الفقير، ومنهم العزيز ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسيء، فاقتضت حكمة الله وعدله أنه لا بد من أن يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ولو أنهم يموتون عند انقضاء الآجال ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة، مجانباً للعدل والرحمة، ولذلك قضى الله ﷻ بالبعث والجزاء وحكم بهما فهما كائنان لا محالة، ولذلك أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله مُحَمَّداً ﷺ أن يقسم على وقوعهما، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل:٣٨] (١).

(١) ناصر الشيخ، مباحث العقيدة في سورة الزمر، مرجع سابق، ص٦٠٩.

المطلب الأول

مقصد معرفة الناس جزاء أعمالهم

إن معرفة الناس جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ليعدّ من مقاصد الإيمان بالحساب والجزاء، وهذا من حكمة البعث؛ لأن التكذيب بذلك اليوم ليوقع العبد في أوحال المعاصي، فلا يحسب أنه خلق عبثًا، وإن الله ليطلعه على عمله ويقرره عليه، فيحكم على نفسه بالنجاة أو الهلاك، وهذا من إعذار الله لخلقه. وإلى هذا المعنى يشير ابن عاشور فيقول: "التكذيب بيوم الجزاء هو منشأ الإقدام على السيئات والجرائم ، إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم. فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح وناهية عن الفساد. ورتب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة. كل على حسب عمله: فلو أهمل الخالق تقويم مخلوقاته وأهمل جزاء الصالحين والمفسدين، لم يكن ذلك من حكمة الخلق"[(١)] ، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة المؤمنون:١١٥-١١٦].

ويقول ابن جرير: عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر:٧]. "أي: ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيئ وإيمان وكفر أيها الناس، إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم، فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، فيجازيكم على كل ذلك جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بما يستحقه. يقول ﷻ: "فاتقوا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاه منكم فتهلكوا، فإنه لا يخفى عليه عمل عامل منكم"[(٢)] .

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا – تبارك وتعالى– أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه[(٣)] . قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [سورة الإسراء:١٣-١٤]. وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/١٩٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج٢١/٢٤.

(٣) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص١٩٨.

وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف:٤٩]. وأخبر سبحانه عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [سورة المدثر:٤٢-٤٦]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون"[١].

إذن، فحكمة البعث -كما سبق بيانه- هي أن يلقى كل عامل جزاء عمله، "ولم يكن هذا العالم صالحًا لإظهار ذلك؛ لأن الله تعالى وضع نظامه على قاعدة الكون والفساد، قابلا لوقوع ما يخالف الحق، ولصرف الخيرات عن الصالحين وانهيالها على المفسدين والعكس؛ لأسباب وآثار هي أوفق بالحياة المقررة في هذا العالم، فكانت الحكمة قاضية بوجود عالم آخر متمحّض للكون والبقاء، وموضوعا فيه كل صنف فيما يليق به لا يعدوه إلى غيره إذ لا قبل فيه لتصرفات وتسببات تخالف الحق والاستحقاق"[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلَّت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب. فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة"[٣].

ونخلص من هذا إلى أن مقصد معرفة الناس جزاء أعمالهم هو أحد مقاصد الإيمان بالحساب والجزاء، إذ أن حقيقة الحساب هي تقرير العباد على أعمالهم، وعرضها عليهم قبل أن ينالوا الجزاء بالثواب أو العقاب.

فمن آمن بذلك نجده مقبلاً على الخير بقلبه وجوارحه؛ ليقينه بأن عمله معروض عليه، بدلالة قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [سورة النور:٢٤-٢٥].

---

(١) القرطبي، التذكرة، مرجع سابق، ص٧١٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١١/٩٢.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج٤/٣٠٥.

المطلب الثاني
مقصد الشعور بالمسؤولية

يترتب على قاعدة الحساب جزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، " فالباري ﷻ يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة "[(١)]. فهم لا يسألون سؤال استفهام؛ لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟[(٢)]. قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة[(٣)].

وفي كثير من الآيات القرآنية يحمّل الله كل إنسان مسؤولية نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة يونس:١٠٨]. وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [سورة الصافات:٢٤]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [سورة الأنعام:١٠٤]. أي فلا ينالني من ذلك شيء فلا يرجع لي نفعكم ولا يعود علي ضركم ولا أنا وكيل على نفعكم وتجنب ضركم فلا تحسبوا أنكم حتى تمكرون بي بالإعراض عن الهدى والاستمرار في الضلال[(٤)]. لأنه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقق أن النبي ﷺ غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضره ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضر عنها حتى يتمطوا ويشترطوا، وأنه ناصح لهم ومبلغ ما في اتباعه خيرهم والإعراض عنه ضرهم[(٥)]. وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [سورة الانفطار:١٩]. فلا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى، أي لنفعها[(٦)].

وكما سبق فإن الله تعالى يحمل كل عبد مسؤولية نفسه ولا يحمله وزر غيره، فكل نفس بما كسبت

---

(١) القرطبي، التذكرة، مرجع سابق، ص٥٦٤.
(٢) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص١٩٣.
(٣) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، مرجع سابق، ج١٧٤/٢.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤٢٠/٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٣٠٩/١١.
(٦) المصدر نفسه، ج١٨٤/٣٠.

رهينة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٦٤].

وهذا مما اتفقت الشرائع السماوية على تقريره، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣٦-٤١]. ففي تسمية الإثم وزرًا؛ "لأنه يتخيل ثقيلا على نفس المؤمن. فمعنى لا تزر وازرة لا تحمل حاملة، أي لا تحمل نفس حين تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها، فالمعنى لا تغني نفس عن نفس شيئا تحمله عنها، أي كل نفس تزر وزر نفسها، فيفيد أن وزر كل أحد عليه وأنه لا يحمل غيره عنه شيئا من وزره الذي وزره وأنه لا تبعة على أحد من وزر غيره من قريب أو صديق، فلا تغني نفس عن نفس شيئا، ولا تتبع نفس بإثم غيرها، فهي إن حملت لا تحمل حمل غيرها"(١).

وفي ذلك يقول القرطبي: "فلا تحمل حاملة ثقل أخرى، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [سورة الشرح:٢] وهو هنا الذنب، ... والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم. وقيل: إنها نزلت رداً على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه، وبجريرة حليفه"(٢).

وأما قول أن الإنسان لا يحمل شيئاً من أوزار الآخرين بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة النحل: ٢٥]. فإن في هذه النصوص دلالة على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه(٣).

ومن خلال ما سبق يتضح بأن مقصد شعور العبد بالمسؤولية، هو أحد مقاصد الإيمان بالحساب

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨_أ/٢٠٨.

(٢) محمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن_ تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية _ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ_١٩٦٤م، ج٧/١٥٧.

(٣) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص١٩٧-١٩٨.

والجزاء، فإن العبد إذا آمن بالله وحده، وعلم أن مصيره إليه، وستعرض أعماله عليه؛ لتقريره عليها، كما أنه ليس مسؤولاً عن عمل غيره، وليس محاسبًا بما فعل غيره، اهتمّ بعمله، وحرص على فعله هو، وتحمل مسؤولية نفسه، دون أن يلتفت إلى غيره وأعمالهم فهو ليس محاسبًا على فعلهم.

المطلب الثالث

مقصد بيان عدل الله ﷻ

الإيمان بالحساب والجزاء مقصد مهم من مقاصد الإيمان باليوم الآخر، وإن هذا المقصد ليستنبط أهميته من أجل بيان العدل الإلهي في الكون، فالله سبحانه هو الحقّ، يُوَفِّي عباده يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢٨١].

وإلى ذلك أشار ابن عاشور بقوله: "ومن الحق استحقاق كلا الفريقين لما عومل به عدلا من الله، ولذا قال وما الله يريد ظلما للعالمين أي لا يريد أن يظلم الناس ولو شاء ذلك لفعله، لكنه وعد بأن لا يظلم أحدا فحق وعده ... فكل ما يعد ظلما في مجال العقول السليمة منتف أن يكون مراد الله تعالى"[(١)].

ولما كان كل ما في السماوات والأرض ملكاً لله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٩]. فهو يريد صلاح حالهم، ولا حاجة له بإضرارهم إلا للجزاء على أفعالهم. فلا يريد ظلمهم، وإليه ترجع الأشياء كلها فلا يفوته ثواب محسن ولا جزاء مسيء[(٢)].

ويؤكد المعنى نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ [سورة يونس:٤]. حيث يصرّح بأن في الآية " إبداء لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا، إذ لو أرسل الناس على أعمالهم بغير جزاء لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا من المحسنين"[(٣)].

ولو عذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالماً لهم، لأنهم عبيده، وملكه، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء. ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة؛ لإقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/٤٧.

(٢) المصدر نفسه، الجزء والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، ج١١/٩١.

سجلاتهم التي حوت أعمالهم، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧] [1].

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفاً إياه بعدل الله: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: ١٦]. وقال الحق في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ [سورة النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [سورة النساء: ٧٧]. وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨]. فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفّي كل عبدٍ عمله، وأنه لا يضيع منه، ولا ينقص منه مقدار الذرة، وهي الهباءة التي في أشعة الشّمس إذا دخلت من الطاق، ولا مقدار الفتيل ولا النقير، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة، والنقير: النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة [2].

ثم إن في إقرار الحساب والجزاء تحقيق للعدل الإلهي الذي يقتضي ألا تسوية بين المحسنين و المسيئين، ولا بين المسلمين والمجرمين، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة غافر: ٥٨-٥٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة القلم: ٣٥-٣٦]. وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢١]. رد لتوهم مجترحو السيئات أن يكون لهم عند الله مثل ما للذين آمنوا؛ لأنهم بتوهمهم خالفوا في

(١) عمر الأشقر، القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص١٨٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٥ وما بعدها.

إدراك قانون العل صريح النقل، وبديهة العقل[١] .

إذن، فإن من مظاهر عدل الله ﷻ ما تطرقت إليه في المطلب السابق هو ألا تزر وازرة وزر أخرى، وما بيناه في هذا المطلب ألا تسوية بين المحسنين والمسيئين، فكل يجازى بعمله، وكل نفس بما كسبت رهينة.

(١) عبدالرحمن الميداني، العقيدة الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٠٢.

المبحث السابع
المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ماهية الجنة والنار، وبيان ما يتعلق بهما.

المطلب الثاني: مقصد الإنذار بعذاب يوم القيامة.

المطلب الأول
ماهية الجنة والنار، وبيان ما يتعلق بهما

إن الجنة والنار وما يتعلق بهما من نعيم أو عذاب، ليُعتبر من أمور الآخرة الغيبية، والتي يجب الإيمان بها كما أخبر الله تعالى في كتابه، وبيّن ذلك الرسول ﷺ.

تعريف الجنة، وأسماؤها:

الجنة: من الاجتنان، وهو الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها(١). فهي الدار التي أعدها الله لعباده المتقين، الطائعين لما أمر، والكافّين عمّا نهى عنه، والمستقيمين على شرعه، فيها من النعيم الكامل الذي لا يعتريه نقص، ولا يشوبه كدر، ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يقول الله تعالى في الحديث القدسي «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» ثم قال ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٧]»(٢).

وفي تعريفها يقول ابن عاشور: "الجنة دار ثواب لصالحي الإنس والجن"(٣). وفي موضع آخر يقول: "الجنة منتهى مراتب ارتقاء الأرواح الزكية"(٤).

وللجنة باعتبار ذاتها مسماها واحد، أما باعتبار صفاتها، فلها عدة أسماء(٥)، منها:.

أولاً– الجنة وهو الاسم العام لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم الذي تقرّ به الأعين. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ ﴾ [سورة الزمر:٧٣].

ثانيًا– دار السلام ، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ ﴾ [سورة الأنعام:١٢٧]. وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [سورة يونس:٢٥]. وهي أحق بهذا الاسم فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج١٣/ ١٠٠.
(٢) رواه البخاري، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، الحديث رقم: ٣٢٤٤، ص٥٤١.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج٢٧/٢٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٢٧/١٠١.
(٥) ينظر: ابن القيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مطبعة المدني–القاهرة، ص٩٤.

ومكروه وهي دار الله واسمه ﷻ السلام الذي سلمها وسلم أهلها ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [سورة يونس:١٠]. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [سورة الرعد:٢٣-٢٤].

ثالثًا– دار الخلد، فأهلها لا يخرجون منها أبدا، ولا ينقطع عنهم نعيمها. قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [سورة هود:١٠٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [سورة ص:٥٤]. وقال سبحانه: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [سورة الرعد:٣٥]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [سورة الحجر:٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [سورة الفرقان:١٥-١٦].

رابعًا– دار المقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ [سورة فاطر: ٣٤-٣٥]. أي: "دار الإقامة التي لا نقلة معها عنها ولا تحول"[(١)].

خامسًا– جنة المأوى . قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النجم:١٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النازعات:٤٠-٤١] . "وجنة المأوى: الجنة المعروفة بأنها مأوى المتقين"[(٢)].

سادسًا– جنات عدن، قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة مريم:٦١]. وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [سورة فاطر:٣٣]. وقال تعالى ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [سورة الصف:١٢].

سابعًا– دار الحيوان. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [سورة العنكبوت:٦٤]. "والمراد الجنة عند أهل التفسير قالوا وأن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان لهي دار الحياة التي لا موت فيها"[(٣)].

---

(١) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج٢٠/٤٧٤.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/١٠١.

(٣) ابن القيم، حادي الأرواح، مرجع سابق، ص٩٨.

وقال القرطبي: "حيوان: عين في الجنة"(١).

ثامنًا- الفردوس. قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:١٠-١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [سورة الكهف:١٠٧]. "والفردوس: اسم من أسماء الجنة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنات، وأصل الفردوس: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر"(٢).

تاسعًا- جنات النعيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة لقمان:٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة القلم:٣٤]. "فأضاف الجنات إلى النعيم؛ لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه"(٣).

عاشرًا- المقام الأمين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ [سورة الدخان:٥١-٥٢]. والمقام الأمين، هو الجنة، "قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب"(٤). وفي قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة الدخان:٥٥]. "جمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا"(٥).

الحادي عشر- مقعد الصدق، وقدم الصدق قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة القمر:٥٤-٥٥]. "فمقعد صدق ، أي مقعد كامل في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج١٣/٣٦٢.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٨/٢١.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق، ص٤٤٧.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٧/٢٤٠.
(٥) ابن القيم، حادي الأرواح، مرجع سابق، ص١٠١.

جنسه مرضي للمستقر فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال"(١) .

والعبد المؤمن يدخل الجنة بفضل الله ورحمته، ولا يدخلها أحد بعمله، فالأعمال الصالحة هي من موجبات ومسببات دخول الجنة. روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لن يدخل أحد منكم عمله الجنة" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة "(٢) .

وأما ما ورد في مثل قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٧]. فإنه دليل على أن الأعمال سببًا لدخول الجنة، وليست ثمنًا لها. ومن هنا فلا تعارض بينها وبين ما دل عليه الحديث. والله أعلم.

تعريف النار، وأسماؤها:

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيها أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين(٣) . وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٢]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة التوبة: ٦٣]. وقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [سورة الزمر: ١٥]. وعلى كل ما فيها من صنوف العذاب، وما يعتري أهلها من ألم وشقاء في الدنيا والآخرة، إلا إنها خالدة وأهلها فيها خالدون. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة:٣٩]. وقال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٢٢٥.

(٢) رواه مسلم، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالى، الحديث رقم: ٢٨١٦، ص١٢٧٣.

(٣) عمر بن سليمان الأشقر، الجنة والنار، دار النفائس-الأردن، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص١١.

هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة الزخرف:٧٤]. وقد ذم الله ﷻ مصير أهل النار، ومقامهم فيها، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٦] . وقال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة الزمر:٧٢]. وقال تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [سورة ص:٥٦]. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة المجادلة:٨]. نعوذ بالله من سوء المآل.

وقد وصف الله هذه النار بعدة أوصاف، فهي نار تلظى، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [سورة الليل:١٤]. ونار موقدة، قال تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [سورة الهمزة:٦]. ونار حامية، قال تعالى: ﴿نَارًا حَامِيَةً ﴾ [سورة الغاشية:٤]. كما ذكر سبحانه بأن لها سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [سورة الحجر:٤٤].

ولهذه النار عدة أسماء وردت في القرآن الكريم، وكلها تدل على شدة الحرارة، فمن أسمائها:

أولا– لظى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [سورة المعارج: ١٥–١٨].

ثانيًا– الحطمة، قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [سورة الهمزة:٤–٦].

ثالثاً– جهنم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [سورة آل عمران:١٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ ﴾ [سورة النساء: ١٤٠].

رابعًا– الجحيم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [سورة المائدة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [سورة الشعراء:٩١]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [سورة النازعات:٣٧–٣٩].

خامسًا– سقر، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [سورة القمر:٤٨].

وقال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [سورة المدثر:٢٦-٢٧].

سادسًا– السعير، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الشورى:٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الملك:٥].

سابعًا– الهاوية، قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [سورة القارعة:٩-١١].

وبعد ما تبيّن للعبد دار المؤمنين ودار المكذبين والضالين في الآخرة، فإن عليه أن يسير على الطريق المستقيم، وينهج نهج الشريعة الإسلامية، ومن علم أن مصير الناس يوم القيامة، فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، فأنّى له أن يؤثر الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، بل يعترف بقوة الله تعالى وقدرته، وأنه شديد العقاب؛ لأنه إذا اعترف بذلك ما استهان بيوم القيامة، ولحذّر المكذبين بوقوعه.

المطلب الثاني
مقصد الإنذار بعذاب يوم القيامة

إن المتأمل لآيات الله ﷻ، وما ورد فيها من ذكر لرحلة اليوم الآخر، وما فيها من أهوال تشيب لوصفها الرؤوس، فبعد أن يصف البعث ويثبت قدرته سبحانه، يذكر ما يصير بعد البعث من أحداث متتالية، كتطاير الصحف، وكالحوض والميزان والصراط، انتهاءً بالجنة مقام المتقين، والنار مثوى المكذبين.

والله ﷻ عندما يبين عدم نفع الأموال ولا الأولاد يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة الممتحنة:٣]. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران:١٠]. فإنما "قصد منه عظة المسلمين ألا يغتروا بحال الذين كفروا فتعجبهم زينة الدنيا، وتلهيهم عن التهمّم بما به الفوز في الآخرة فإن التحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات"[١].

ومن ذاق نعيم الدنيا دون أن يلتفت للأخرى، كان له الحسرة والندامة، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ [سورة الطلاق: ٩]. "وعاقبة الأمر: آخره وأثره. وهو يشمل العاقبة في الدنيا والآخرة كما دل عليه قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [سورة الطلاق:١٠]"[٢]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة البقرة:٢١١]. "فكون الله شديد العقاب أمر محقق معلوم فذكره للتهديد، فدل على معنى: فالله يعاقبه، ومعنى شدة عقابه: أنه لا يفلت الجاني وذلك لأنه القادر على العقاب، ... وإظهار اسم الجلالة هنا ؛ لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة"[٣].

وقد قابل الله سبحانه بين شدة عقابه، وغفرانه للذنب في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة غافر:٣]. يقول ابن عاشور: "ووقوعه مع شديد العقاب ومزاوجتها بوصفي غافر الذنب وقابل التوب ليشير إلى التخويف بعذاب الآخرة من وصف

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣/١٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٨/٣٣٥.
(٣) المصدر نفسه، ج٢/٢٩٣.

شديد العقاب، وبعذاب الدنيا من وصف ذي الطول ... وأعقب ذلك بما يدل على الوحدانية وبأن المصير، أي المرجع إليه تسجيلا لبطلان الشرك وإفسادا لإحالتهم البعث. وأتبع ذلك بجملة إليه المصير إنذارا بالبعث والجزاء؛ لأنه لما أجريت صفات غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب أثير في الكلام الإطماع والتخويف فكان حقيقا بأن يشعروا بأن المصير إما إلى ثوابه وإما إلى عقابه فليزنوا أنفسهم ليضعوها حيث يلوح من حالهم"(١).

وقد أطنب ﷺ في ذكر النار، فتارةً يبيّن أهلها ومن هم وقودها، قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة:٢٤]. فبين أن النار للكافرين، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:١٤٥]. ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:١٠٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي تبين بأن النا مثوى للمتكبرين الضالين والمكذبين. كما بين سبحانه عدد أبوابها في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [سورة الحجر: ٤٣-٤٤]. وتارةً يصف شدة حرّها وعظم دخانها، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة:٤١-٤٤]. "وقد تضمنت هذه الآية ذكر ما يتبرد به في الدنيا، من الكرب والحر، وهو ثلاثة: الماء، والهواء، والظل، فهواء جهنم: السموم، وهو الريح الحارة الشديدة الحر، وماؤها: الحميم الذي قد اشتد حره، وظلها: اليحموم، وهو قطع دخانها"(٢).

وتارةً يذكر خزنتها، فيقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر: ٤٩]. وعدة هؤلاء الخزنة تسعة عشر كما ورد في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [سورة المدثر:٢٦-٣٠]. وفي مواضع كثيرة يذكر صورًا من عذابها. كإنضاج الجلود في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٤/٨١.

(٢) عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب، التخويف من النار والتعريف بدار البوار، تحقيق: بشير مُحَمَّد عيون، مكتبة المؤيد- الطائف، دار البيان-دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ص١١٠.

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء:٥٦]. وصبّ الحميم على رؤوسهم، قال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ [سورة الحج:١٩-٢٠]. وسحبهم على وجوههم في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [سورة غافر:٧٠-٧٢]. إلى غير ذلك من صور العذاب التي بينها الله في كتابه بصور تقرع القلوب، أجارنا الله منها ومن لفحها، وثبتنا على الصراط المستقيم إلى أن نلقاه.

وكثيرا ما يذكر الله ما حلّ بالأمم السابقة من العذاب الدنيوي، ومصائرهم في الآخرة؛ تهديدًا لكل من كذب بوقوع هذا اليوم، ففي هذه الآية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ [سورة الحاقة:٤]. "تذكير بما حل بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضا بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليهم مثل ما حل بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث وعلى هذا يكون قوله ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [سورة الحاقة:١]. إلخ توطئة له وتمهيدا لهذه الموعظة العظيمة استرهابًا لنفوس السامعين"[(١)].

إذن، لو نظرنا إلى الآيات السابقة، لوجدنا أن المقصد منها إنما هو الإنذار بعذاب يوم القيامة، وتهديد المكذبين بوقوعه، وإن هذا المقصد ليعدّ من أغراض سورتي الحاقة والغاشية كما بيّن ذلك ابن عاشور في تفسيره[(٢)].

ومن الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في تبيين هذا المقصد هي:

١. ذكر أوصاف يوم القيامة، وتفصيل أهواله. مما يوقع في قلب العبد رهبة ذلك اليوم.

٢. ذكر ما يترتب على الكفر بذلك اليوم من جزاء، وبيان المصير الذي يؤول إليه الكاذبين. مما يدفع بالعبد إلى الإيمان ونبذ الكفر؛ فيكون له حسن الجزاء، ونعم المصير.

٣. ذكر قصص الأمم السابقة، وما حلّ بهم من العذاب الدنيوي، وبيان مصائرهم في الآخرة؛ تهديدًا لكل من كذب بوقوع هذا اليوم من بعدهم. "وسميت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارع؛ لما فيها من زجر

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٩/١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٩/١١١. و ج٣٠/٢٩٣.

الناس عن أعمال"[١].

فكل هذه الأساليب إنما تقصد إلى تهويل يوم القيامة والإنذار بعذابه، وتهديد المكذبين بوقوعه.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق،ج٢٩/١١٥.

الفصل الثاني

مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر في تفسير التحرير والتنوير.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثاني: المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر.

المبحث الثالث: مقصد معرفة الله وتوحيده.

المبحث الرابع: مقصد التوكّل على الله.

المبحث الخامس: مقصد الصبر.

المبحث الأول
مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف القضاء والقدر.

المطلب الثاني: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

المطلب الثالث: لوازم الإيمان بالقضاء والقدر.

المطلب الأول

تعريف القضاء والقدر

أولاً- تعريف القضاء لغةً وشرعًا:

القَضاءُ: أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته[(١)]، والقضاء ورد بمعانٍ متعددة مرجعها إحكام الأمر وتمامه، ومن هذه المعاني:

- الأمر، قال تعالى:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٢٣]. قضاء دينيا وأمر أمرًا شرعيًا[(٢)].

- الفراغ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [سورة القصص:٢٩]. أي: فرغ من الأجل الأوفى والأتم[(٣)].

وقد يكون بمعنى الصنع والتقدير، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [سورة فصلت:١٢]. أي صنعه وقدَّره. ومنه القضاء والقدر.

- الحكم والعمل، قال تعالى:﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [سورة طه:٧٢]. والقضاء بمعنى الحكم وهو التقدير[(٤)].

- الإعلام، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء:٤]. ومعنى قضينا أعلمنا وأخبرنا[(٥)].

- الموت والقتل، قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [سورة القصص:١٥].

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٥/٩٩.

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق، ج١/٤٥٦.

(٣) الحسين بن محمد البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ، ج٣/٥٣٣.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٥/٢٨.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج١٠/٢١٤.

▪الأداء والإنهاء، قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ [سورة الحجر:٦٦]. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠]. أي: أديتموها وفرغتم منها(١).

هذه هي أهم معاني القضاء في اللغة، وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة(٢).

ثم إن القضاء شرعًا كما يعرفه ابن عاشور: "هو حكم الله بحصول الأشياء، أو حصول أحوالها، أو بإيجاد الاستطاعات أو سلبها، ليترتب عليها حدوث الأفعال أو تركها، وهو من متعلقات إرادة الله"(٣).
كما يعرفه الأشقر بأنه: "العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل"(٤).

ومن خلال هذا العرض يتبين ما بين المعنى اللغوي والشرعي من رابط قوي، فتقدير الله للأمور، وكتابته لذلك، وكونها تجري بحكمة ودقة على حسب ما أرادها سبحانه وقضاها، كل هذه المعاني يوحي بها المعنى اللغوي بمختلف معانيه الواردة(٥).

ثانيًا – تعريف القدر لغةً وشرعًا:

القدر أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. فالقدر: مبلغ كل شيء. يقال: قدره كذا، أي مبلغه. وكذلك القدر. وقدرت الشيء أقدره وأقدره من التقدير، وقدرته أقدره. والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها(٦). وقدر الرزق: قسمه. والقدر: الغنى، واليسار، والقوة(٧). **ويؤكد ابن عاشور هذه المعاني عند تعريفه للقدر بقوله:** "القدر بفتح الدال: إيجاد الأشياء على صفة مقصودة وهو مشتق من القدر بسكون الدال وهو الكمية المحددة المضبوطة ... ولما كان من لوازم هذا

---

(١) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج٢/٢٩٥.

(٢) انظر في مادة (قضى): ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج١٥/١٨٧. الجوهري، الصحاح، مرجع سابق، ج٦/٢٤٦٣. الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج٣٩/٣١٢، وغيرها.

(٣) مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشركة التونسية للتوزيع– تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب– الجزائر، الطبعة الثانية، ص٧٥.

(٤) عمر بن سليمان الأشقر، القضاء والقدر، دار النفائس– الأردن، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م، ص٢٤.

(٥) عبد الرحمن بن صالح المحمود، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، مدار الوطن للنشر– الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ_١٩٩٧م، ص٣٦.

(٦) ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٥/٦٢.

(٧) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص٤٦٠.

المعنى أن يكون مضبوطا محكما كثرت الكناية بالقدر عن الإتقان والصدور عن العلم"[١].

ويعرفه في موضع آخر بقوله: "القدر: بتحريك الدال مرادف القدر بسكونها وهو تحديد الأمور وضبطها. والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة"[٢].

كما يأتي القدر بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [سورة الفجر:١٦]. وعليه فسّر قوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنبياء:٨٧]. أي: لن نضيق عليه في بطن الحوت[٣]. إلى غير ذلك من الاشتقاقات والمعاني التي أوردتها كتب اللغة[٤].

أما في الشرع فيعرفه ابن عاشور بأنه: "تقدير الله جميع الأشياء وما يتعلق بها من أحوالها تقديرًا في الأزل على حدود لا تتجاوزها وقت ظهورها، وهو راجع إلى معنى العلم والإرادة"[٥].

كما يذكر السفاريني بأن القدر عند السلف هو: "ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"[٦].

وإن لفظي **القضاء والقدر** مما ورد في الكتاب والسنة، فهما مصطلحان شرعيان، إلا أن القدر هو ما يسبق وقوع المقَدَّر، فإذا وَقَعَ المقَدَّرْ صار قَضَاءً[٧]. ويتضح مما سبق بأن القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[٨].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤٢/٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢١٧/٢٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٣٦٦/٥.

(٤) انظر في مادة: "قدر": ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٧٤/٥ وما بعدها. ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٦٢/٥-٦٣. الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج٣٧٣/١٣ وما بعدها.

(٥) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مصدر سابق، ص٧٥.

(٦) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، مرجع سابق، ج/٣٤٨.

(٧) صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، دروس مفرغة، ٥٨٠.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج١٨٦/١٥. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مرجع سابق، ج٧٨/٤.

المطلب الثاني
مراتب الإيمان بالقضاء والقدر

إن **الإيمان بالقضاء والقدر ليقتضي الإيمان بمراتبه الأربع**، العلم والكتابة، والمشيئة والخلق. والتي لا يتمّ إيمان أحد إلا بالإيمان بها، ولذلك تسمى أركان الإيمان بالقضاء والقدر، وهي:

■ **المرتبة الأولى– علم الله الشامل المحيط:**

يجب الإيمان بعلم الله ﷻ، "المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار علم دق ذلك وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب"(١).

وقد كثر تقرير هذا الأصل العظيم في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٣٠] . وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [سورة لقمان:٣٤]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحشر:٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٢١٦]. فعواقب الأمور علمها عند الله(٢).

■ **المرتبة الثانية– كتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى قيام الساعة:**

يجب الإيمان بالركن الثاني من أركان الإيمان بالقضاء والقدر وهو: أن الله قد كتب مقادير المخلوقات

(١) حافظ بن أحمد الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم — الدمام، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ج٣/٩٢٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج١/٤٢٨.

في اللوح المحفوظ، فكل ما جرى وما هو جاري وما سيجري فهو مكتوب عند الله.

وإن هاتين المرتبتين ــ العلم والكتابة ــ اتفق عليها الرسل والأنبياء من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة[(١)]. وكثيراً ما يقرن الله ﷻ بين مرتبتي العلم والكتابة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يونس:٦١]. وفي هذا دليل على إحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وبكل ما في العوالم علويها وسفليها، فإن ما شأنه أن يبعد ويخفى عليكم من أعمالكم لا يغيب عن علم ربكم، فإنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة، إلا وهو معلوم ومحصي عنده ومرقوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها[(٢)].

▪المرتبة الثالثة– مشيئة الله النافذة، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن:

إن كل ما يجري في هذا الكون، إنما هو بمشيئة الله النافذة، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة الإنسان:٣٠]. ففي الآية السابقة علل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة الله، بأن الله عليم حكيم، "أي عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير، حكيم بدقائق ذلك مما لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكنه عقول الناس، لأن هنالك تصرفات علوية لا يبلغ الناس مبلغ الاطلاع على تفصيلها ولكن حسبهم الاهتداء بآثارها وتزكية أنفسهم للصد عن الإعراض عن التدبر فيها"[(٣)]. وفي إثبات أن الله مريد لما يخلقه جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة هود:١٠٧]. وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [سورة الأنعام:١٢٥]. يبين الله سبحانه أنه الذي يريد الهداية والإضلال. فهذه هي الإرادة الكونية الشاملة.

---

(١) محمد ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة-بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ص٢٩.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج١١/٣٣٨ وما بعدها.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٩/٤١٣.

■المرتبة الرابعة– الخلق والتكوين:

ومقتضاها "الإيمان بأن الله ﷻ خالق كل شيء فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله ﷻ خالقها وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه"(١).

فالله خالق كل شيء، وكل شيء مما في هذا الكون مخلوق له ﷻ، قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الرعد:١٦]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ [سورة الأنعام:١٠٢]. إلى غيرها من الآيات التي تدل على أن الله هو الهادي والمضل، والناصر، والهازم لأعداء الدين، وكل ذلك مما يدل على هذه المرتبة، مرتبة الخلق.

ومن هنا يتبين بأن الإيمان بالقضاء بالقدر إنما هو المحك الحقيقي للإيمان الصحيح بالله تعالى، إذ أن الإيمان بالله ﷻ إيمان بربوبيته، عن طريق معرفته سبحانه المعرفة الصحيحة، ولا سبيل إلى معرفته ﷻ إلا عن طريق الإيمان بأسمائه وصفاته، فهو الخالق لكل شيء، والعالم العلم الشامل المحيط، والمريد لما يشاء، فلا يصير أمر دون تقديره ومشيئته، ﷻ، وإنما هذه هي الأسس والأركان التي يقوم عليها الإيمان بالقضاء والقدر.

---

(١) الحكمي، معارج القبول، مرجع سابق، ج٣/٩٤٠.

المطلب الثالث
لوازم الإيمان بالقضاء والقدر

■أولاً– الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم أداء عبودية الله وحده، والخلوص من الشرك:

فالإيمان بالقدر مما نتعبد الله به، و"إن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته. ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه. أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم"[(١)].

فمقتضى الإيمان بالقدر توحيد الله ﷻ، وصرف كل أنواع العبادة له وحده، والخلوص من الشرك، وإن المؤمن بالقدر ليدرك أن جميع الكائنات مأمورة بأمر الله، محكومة بقدره، فلا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، فضلاً عن غيرها، كما يعلم علم اليقين بأن أزمّة أمور العباد بيد الله، يصرفها كما يشاء، فيهب لمن شاء، متى ما شاء، ولا رادّ لقضائه، و لا معقّب لحكمه.

يقول ابن عاشور: "وحقيقة القدر الاصطلاحي خفية فإن مقدار تأثر الكائنات بتصرفات الله تعالى وبتسبب أسبابها ونهوض موانعها لم يبلغ علم الإنسان إلى كشف غوامضه ومعرفة ما مكن الله الإنسان من تنفيذ لما قدره الله، والأدلة الشرعية والعقلية تقتضي أن الأعمال الصالحة والأعمال السيئة سواء في التأثر لإرادة الله تعالى وتعلق قدرته إذا تعلقت بشيء، فليست نسبة آثار الخير إلى الله دون نسبة أثر الشر إليه إلا أدبا مع الخالق لقنه الله عبيده، ولولا أنها منسوبة في التأثر لإرادة الله تعالى لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأن للخير إلها وللشر إلها، وذلك باطل"[(٢)].

فإذا أيقن العبد أن هذه الأمور إنما تجري بقدر الله، وأن الناس لا يملكون من أمرهم شيئًا، لم يعد يبالي بالناس، ولا يسع إلى إرضائهم، أو طلبهم، ولا يرتقب على عتبات الصالحين. ولا يلتفت لغير الله، وإنما ينقاد إلى إيثار الخالق على المخلوقين، موجّهاً وجهه لله، ومسلّمًا أمره له، مؤتمرًا بأمره، ومنتهيًا بنهيه، وذلك هو الفلاح في الدنيا والآخرة.

■ثانيًا– الإيمان بالقضاء والقدر يقتضي العلم بحكمة الله ﷻ:

إن الإيمان بعلم الله الشامل المحيط، ليقتضي العلم بحكمة الله ﷻ فيما يقضيه ويقدره على عباده، سواءً وافق ذلك القضاء ما يرغبه العبد أم لم يوافقه، فيعلم أن وراء كل أمر مقدور من هو أعظم وأعلم

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج١٠/١٧٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٢١٩.

وأحكم من تفكيره وتوقعاته.

فكثيرًا ما تقع لنا أمور نكرهها، وهي خير لنا، أو تبدو لنا أمورًا في ظاهرها مصلحةً لنا فنحبها، ولكن الحكمة الإلهية لا تقتضيها، فالعالم بالإنسان، والمدبر لأمره هو أعلم بما يناسبه في لحظته وعاقبة أمره. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة:٢١٦].

وفي هذا يقول ابن عاشور: "ومما يستلزمه معنى القدر أن كل شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته؛ لأنه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه" [(١)].

ونخلص مما سبق إلى أن الإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر، وإذا برئ الإنسان من ذلك كان إنسانا سويا متزنا بالغا منتهى السمو والرفعة [(٢)].

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة الحديد:٢٢-٢٣]. فمقتضى الإيمان بالقضاء والقدر هو الإيمان بأركانه وأسسه ومراتبه الأربع: الإيمان بعلم الله المحيط الشامل، وخلقه وتكوينه، ومشيئته وإرادته النافذة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ما يجري للعباد إنما هو مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، لا يضل ربي و لا ينسى.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٧/٢١٨.

(٢) عمر العرباوي الحملاوي، كتاب التوحيد المسمى (التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد)، مطبعة الوراقة العصرية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص٢٠٤.

المبحث الثاني
المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الاهتداء واستقامة السلوك.

المطلب الثاني: تحقيق الأنس بالله، وسعادة الدارين.

المطلب الأول
الاهتداء واستقامة السلوك

إن المؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتحقق توحيده، ويزيد إيمانه، فيسير على هدى من ربه. يعمل ويجد ويسعى ويبذل الأسباب ويفوض أمره إلى الله، ويتوكل عليه، فإن نال مناه شكر الله، وزاد في تقاه، وإن لم يتحقق مراده صبر، وآمن بما عند الله.

وتعدّ الهداية من المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر، وهي "الدلالة على المقصود النافع"[(١)]، ومن مظاهرها الاهتداء واستقامة السلوك. ويؤكد ذلك ابن عاشور بقوله: "والهدى الشرعي هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل. وأثر هذا الهدى هو الاهتداء فالمتقون يهتدون بهديه والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون، وهذا معنى لا يختلف فيه"[(٢)].

كما يبين أن للمشيئة الإلهية آثار هي مجموع أمور تتظاهر وتتجمع فتحصل منها مشيئة العبد. فإذا توجهت إلى العبد عناية من الله ولطف، "صار العبد إلى صلاح بعد أن كان مغمورا بالفساد فتتهيأ للعبد حالة جديدة مخالفة لما كان حافا به، مثل ما حصل لعمر بن الخطاب من قبول عظيم الهدى وتوغله فيه، في حين كان متلبسا بسابغ الضلالة والعناد. ومثل هذا يكون تكرمة من الله للعبد وعناية به، وإنما تحصل هذه العناية بإرادة من الله خاصة"[(٣)].

ومن بدهيات الإيمان بالقدر الإيمان بأن ما جرى وما سيجري في هذا الكون إنما هو بقدر الله عز وجل، وأن قدر الله سر مكتوم، لا يعلمه إلا هو، ولا يُطلع عليه أحد من خلقه إلا من ارتضى من رسول الله فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا. قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [سورة الجن:٢٦-٢٧].

ومن هذا المنطلق نجد المؤمن بالقدر لا يعتمد على الدجالين والمشعوذين، ولا يذهب إلى الكهان والمنجمين والعرافين، فلا يعتد بأقوالهم، ولا ينطلي عليه زيفهم ودجلهم، فيعيش سالما من زيف هذه الأقاويل، متحررًا من جميع هذه الخرافات والأباطيل[(٤)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١١/١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١/٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٩/٤١٥.

(٤) انظر: مقبل الوادعي، الجامع الصحيح في القدر، ص١١ وما بعدها.

كما أن الإيمان بالقدر، ليورث في قلب العبد الرضا والتسليم، والفرح والسرور؛ لأن المقدور حتى وإن خالف توقع العبد ومراده، فإنه يتيقن بأن الله لم يرد به إلا خيرًا، فالله حكيم رحيم عليم بعباده ومصالحهم، فلا يجزع ولا يسخط، فيكون مسرورًا في الدنيا أولاً، وفي الآخرة آخرًا؛ لرضاه عن الله وقدره.

والجامع لهذا كله، أن الإيمان بالقدر من الاهتداء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [سورة محمد:١٧]. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن:١١]. فبعد ذكره أن المصيبة من أمر الله المقدور، اشترط الإيمان، ليتحصّل العبد على الهدى. وفي قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]. أي تبين الهدى الموصل إلى سعادة الدارين. من الغي والضلال المفضي بالعبد إلى الشقاء والخسران[(١)].

فالله سبحانه عَلَّقَ سعادة الدارين بمتابعته وجعل شقاوة الدارين في مخالفته[(٢)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣/٢٨.

(٢) محمد ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة-بيروت، مكتبة المنار الإسلامية-الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م، ج١/٣٥.

المطلب الثاني
تحقيق الأنس بالله وسعادة الدارين

الأُنْسُ بالله ﷻ والاشتياق إلى عبادة الرب ﷻ والإسراع في ذلك، من البشائر التي يبشر الله بها عباده، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [سورة العنكبوت:٦٩]. فهذه الآية تدل -مع العلم المحيط- على العناية بمن تعلقت به تلك المعية وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته وتوفيقه (١).

وإن الأنس بالله أحد منازل إياك نعبد وإياك نستعين، كما يقول ذلك ابن القيم: "من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة الأنس بالله. وهو روح القرب ولهذا صدر منزلته بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦]. فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف: يوجب قربه من الرب ﷻ. وقربه منه يوجب له الأنس والأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة" (٢).

وإن المؤمن بالقدر لأشد الناس استئناسًا بربه؛ لأنه يتقلب بين جملة من العبادات القلبية، أبرزها الرضا والتسليم، والفرح والشكر، وكلها من ثمرات الإيمان بالقدر.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

وإن من التسليم لحكم الله وشرعه، ترك المحرمات، والإئتمار بأمر الله، والانتهاء بنهيه، وليس في ذلك مشقةً إلا ما يكون في أول الطريق من ابتلاء الله له؛ أهو صادق في تركها أم لا. فإن صبر على تلك المشقة، وصدق في ترك ذلك الهوى والمحرم، استحال ذلك الصبر إلى لذّة ونعيم، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، "والعوض أَنْوَاع مُخْتَلفَة وأجلّ مَا يعوض بِهِ الْأنس بِاللَّه ومحبته وطمأنينة الْقلب بِهِ وقوته ونشاطه وفرحه وَرضَاهُ عَن ربه تَعَالَى" (٣).

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، أبو عبد الله، دار طيبة – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، ص٥١.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/٣٨١.

(٣) ابن القيم، الفوائد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، ١٠٧.

وعلى العاقل أن يسعى في فكاك نفسه، وفي خلاصها من العذاب، وفي تحصيل السعادة الأبدية التي لا تشبهها أي سعادة يعرفها الإنسان في هذه الدنيا، فإن الإنسان إذا عمل بتقوى الله وبطاعته وبرضاه، وقبل الله منه ذلك، فإنه يكون جاراً لله جلَّ وعلا في الجنة، وملائكة الله تخدمه، وتدخل عليه مُسلّمة وتقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [سورة الرعد:٢٤] (١). قال تعالى عن أولئك المؤمنين: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ [سورة الغاشية:٨-١٠]. فالمراد بالسعي: العمل الذي يسعاه المرء ليستفيد منه. والرضا: ضد السخط، أي هي حامدة ما سعته في الدنيا من العمل الذي هو امتثال ما أمر الله به على لسان رسوله ﷺ (٢).

وعلى العكس من ذلك، يقول تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [سورة محمد: ٢٧-٢٨]. فكان اتباع الكافرين ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم (٣).

والسلف الصالح رضوان الله عليهم، عرفوا تلك المعاني وآمنوا بها، وأيقنوا بما عند الله من خير فعملوا له، وإن اليقين متى وصل إلى القلب، امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم، فامتلأ محبة لله وخوفاً منه، ورضىً به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه (٤). وأخبارهم مليئةً بمظاهر القرب من الله، التي تستوجب الاستئناس به، فكان استشعار قلوبهم لعبودية ربهم، وفقرهم وحاجتهم إليه، ولحقيقة الألوهية وعظمة الخالق، وخشيته وتعظيمه، أعظم باعث لهم على الأنس بالله، وإيثار مرضاته، والاشتغال بما يقربهم منه، ويحببهم إليه عن الاشتغال بفضول حظوظ النفس، فزهدوا فيما لا يحتاجون إليه من المباحات. فاطمأنت قلوبهم بطاعة الله، وأنست نفوسهم، وذلت ألسنتهم لذكره، وخضعت جوارحهم لاتباع شرعه، فهم أولياء الله وخاصته وصفوته من خلقه (٥).

---

(١) عبد الله الغنيمان، شرح فتح المجيد، مرجع سابق، ج٤٦/١٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/٢٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٦/١١٩.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/٣٧٥.

(٥) عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ج١/٢١٤-٢١٥.

ومن الذين اطمأنت نفوسهم لأمر الله، ورضوا بقضائه، أم موسى عليه السلام، إذ أمرها الله بأن تلقي بموسى في اليم، ومع أن فؤادها أصبح فارغًا إلا أنها سلمت لله أمرها وفوضته إليه، فألقت ابنها، ثم انطلقت ميمّمة وجهها للذي رزقها بهذا الابن، فما كان من الله إلا أن سخر الكون كله لأجلها وقلبها، فحرم المراضع على موسى، ورده على أمه كي تقر عينها ولا تحزن. فإنها لما آمنت بقضاء الله وقدره لم يخلفها ذلك الإيمان إلا خيرًا. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [سورة طه:٤٠]. وهذا "يفيد أن ما حصل لموسى من الأحوال كان مقدرا من الله تقديرا مناسبا متدرجا، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدرها الله وحددها تحديدا منظما لأجل اصطفائه وما أراد الله من إرساله، فالقدر هنا كناية عن العناية بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير. فهذا تقدير خاص، وهو العناية بتدرج أحواله إلى أن بلغ الموضع الذي كلمه الله منه"[(١)].

وبعد ذكر ابن عاشور لهذه القصة استخرج منها عبرًا فيها تذكير للمؤمنين، وموعظة للمشركين. فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدره هو كائن لا محالة ، وأن الحذر لا ينجي من القدر. والإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦][(٢)]. وإلا فأيّ أمٍّ تقوى على إلقاء فلذة كبدها في البحر العظيم، ولكنه الإيمان والتسليم.

ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، ولكن قدر الله عليها أن تحمل بابنٍ بلا أب، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم:٢٣]. يقول القرطبي:" تمنت مريم – عليها السلام – الموت من جهة الدين لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنا وذلك مهلك"[(٣)]. "فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها. وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى فلذلك كانت في مقام الصديقية"[(٤)].

وهذه الصدّيقة بنت الصدّيق في حادثة الإفك، إذ بهتها المنافقون، وافتروا عليها، وأرادوا النيل من عرض رسول الله ﷺ، فكيف لي بعائشة رضي الله عنها وهي توقن براءتها، وزوجها رسول الله ﷺ إذ طعن في حبيبته.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٦/٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٠/٨٧.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج١١/٩٢.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٦/٨٥.

لم يهدأ لهما بال، ولم تكتحل عيناهما بالنوم شهرًا، إلى أن نزل في تبرئتها قرآن يتلى إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة النور: ١١]. "فبعد إزالة خاطر أن يكون ذلك شراً للمؤمنين أثبت أنه خير لهم فأتى بالإضراب لإبطال أن يحسبوه شراً ، وإثبات أنه خير لهم لأن فيه منافع كثيرة؛ إذ يميز به المؤمنون الخلص من المنافقين ، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم ، وتتبين منه براءة فضلائهم ، ويزداد المنافقون غيظاً ويصبحون محقرين مذمومين ، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين ، فإنهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلا أذى المسلمين ، وتجيء منه معجزات بنزول هذه الآيات بالإنباء بالغيب"(١) .

فالحاصل أن الإيمان بالقدر ليورث في قلب المؤمن أنسًا بالله، يغنيه عمن سواه، ومن كان لله طائعًا فهو به مستأنسًا صافي السريرة مطمئنًا، ومن كان لله عاصيًا فهو مستوحشًا، قلقًا.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٨/١٧٢.

المبحث الثالث
مقصد معرفة الله وعبادته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مقصد معرفة الله تعالى.

المطلب الثاني: مقصد تحقيق العبودية لله تعالى.

المطلب الأول

مقصد معرفة الله تعالى

معرفة الله ﷻ هي أصل الإيمان، ومنبع العرفان، وهي من أسمى المعارف وأجلها، وهي أساس الحياة الروحية كلها. فمن معرفة الله تفرعت المعرفة بالأنبياء والرسل، وما يتصل بهم من حيث عصمتهم، ووظيفتهم، وصفاتهم، والحاجة إلى رسالاتهم، وما يلحق بذلك من المعجزة والولاية، والكرامة، والكتب السماوية.

وعنها تشعبت المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة: من الملائكة والجن والروح. وعنها انبثقت المعرفة بمصير هذه الحياة، وما تنتهى إليه من الحياة البرزخية، والحياة الأُخروية: من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب، والجنة، والنار[(١)].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "ألا وإن أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هذه الدنيا هو معرفة الله ﷻ، والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته في خلقه، والوقوف على سننه وأسراره فيها، وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال، وفي النظام الذي قامت به من آيات الكمال، التي هي مجلى صفات بارئها، وهو منتهى الجمال والجلال والكمال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال"[(٢)].

- **طرق معرفة الله تعالى:**

أ. معرفة الله فطرية، واجبة بالشرع، ممكنة بالعقل:

معرفة الله فطر الله عليها خلقه وكذلك الإقرار بربوبيته. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]. إلا أن هذه المعرفة ليست معرفة كافية، بل تحتاج إلى معرفة مكتسبة وهي ما يحصله الإنسان بتعلم دين الله عز وجل والنظر في آياته الشرعية والكونية، فيحصل له بذلك معرفة جديدة تنمو وتزداد كلما ازداد نظراً وعلما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر:٢٨]. فالعلم بالله ومعرفته يزيد من خشيته ومراقبته جل وعلا. وهذا يدل على أن معرفة الله منها

(١) سيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي- بيروت، ص١٩.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج٩/١٣١.

ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب[(١)].

ومن هنا فإن معرفة الله تعالى ممكنة عقلاً، واجبة شرعًا، وهي أول واجب لله تعالى، وأول نعم الله تعالى الدينية والدنيوية، وأعظمها: أن أقدر عبده على معرفته بالنظر، والبحث في الآيات الكونية، من خلال دلائل الألوهية، وإثبات القدرة والعلم والمشيئة والإرادة، فأعطاه عقلًا يفهم به، ويدرك ما حوله من مخلوقات يبحث عن موجدها، ويستطيع به أن يتيقن وجود خالقه ومالكه وإلهه، وأنه واحد، ثم أرسل إليهم رسلًا من أنفسهم، يعلمونهم أسمائه وصفاته، ويقيمون شرعه من أمر ونهي[(٢)]. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [سورة يونس:١٠١].

ب. طرق معرفة الله تعالى:

إن معرفة الله ﷻ واجبة بالشرع ، ممكنة بالعقل كما سبق بيانه، وحتى نتوصل إلى هذه المعرفة الواجبة لا بد وأن نتبع طرقًا كطريق معرفة أسماء الله وصفاته. ودلالات تدلنا عليها، هي على الإجمال لا تخرج عن ثلاث دلالات: دلالة النفس، ودلالة الآفاق، ودلالة الوحي والرسل والمعجزات[(٣)].

١. دلالة النفس:

إن دلالة النفس هي من أبلغ الأدلة والطرق الموصلة إلى معرفة الله تعالى، فلو تأمل إنسان نفسه، وخلقه وتكوينه، لكفاه ذلك ليعترف بأن له خالقٌ خلقه فسواه فعدله، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات:٢١]. وهذه الآية أصل في الباب. ونقل ابن كثير في تفسيره قول قتادة: "من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة"[(٤)].

وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [سورة عبس:١٧-

---

(١) يحيى بن أبي الخير العمراني، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ج٣/٨١٠.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ج١/١٠٠. السفاريني، لوامع الأنوار البهية، مرجع سابق، ج١/١١٣وما بعدها. عبد الباقي ابن فَقِيه فُصَّة، العين والأثر في عقائد أهل الأثر، تحقيق: عصام رواس قلعجي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ص٢٩.

(٣) محمد القاسمي ابن الوزير، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص٤٥-٦٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٧/٣٩١.

١٩]. وأبسط آية فِي ذَلِك آيَة الْحَج إذ جمعت شتات الموضوع ويبين مراحل خلق الإنسان مما يدعوه إلى التأمل في نفسه وخلقه، فيعرف الله وحده. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [سورة الحج:٥-٧]. ولا شك في أن خلق الروح في بدن الإنسان، من أعظم الأدلة التي يتوصل بها الإنسان إلى معرفة الله وأنها على مثال يقرب الفهم ويحقق المعرفة. فمن عرف نفسه فقد عرف ربه [(١)].

٢. دلالة الآفاق:

أما دلَالَة الْآفَاق فهي التي لا يمكن للعبد أن يفلت من تأملها، ولا حول ولا قوة له في تدبيرها، ولا تصريفها، وإنما الملكوت كله، ومقاليد الأمور كلها بيد خالق الكون ومصرفه ومدبره ﷻ، فيقول سبحانه: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [سورة الزمر:٦٣-٦٤]. فبعد ذكره سبحانه بأن مقاليد السماوات والأرض واقعة تحت ملكه وتصرفه، يذكر بأنها طريق إلى معرفته سبحانه، المعرفة التي تقتضي عبوديته وتوحيده، فلم يشاركه في الصنع والتقدير أحد، فيلزم ألاّ يشاركه في العبودية أحد.

فما يحدث في هذا العالم إنما هو بتدبير الله ﷻ، وما يعقل ذلك إلا عاقل سليم الفطرة، فيعرف أن الذي سخر الأفلاك، وصرف الرياح، وأجرى السحاب، وأمطر السماء، وأنبت الزرع، قادرٌ على تدبير أمره، وفق حكمٍ إلهية قد يعلمها وقد يجهلها، لكن يكفيه أن يسلم قلبه لله، وينقاد له بالطاعة والعبودية والله يجزيه أحسن التدبير والتقدير.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ

---

(١) مُحَمَّد أبو بكر بن العربي، النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم، تحقيق: الدكتور عمار طالبي، مكتبة دار التراث، مصر، ص١١٩.

خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [سورة النور:٤٣]. يقول ابن عاشور: "أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيرا لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف. وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي"[1].

وفي سؤال موسى لفرعون: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣]. أجاب موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء:٢٤]. فكان جوابه بيانا لحقيقة رب العالمين ... فبذكر السموات والأرض وبعموم ما بينهما حصل بيان حقيقة المسئول عنه، ومرجع هذا البيان إلى أنه تعريف لحقيقة الرب بخصائصها؛ لأن ذلك غاية ما تصل إليه العقول في معرفة الله أن يعرف بآثار خلقه، فهو تعريف رسمي في الاصطلاح المنطقي[2].

وَقد جمع الله تَعَالَى ذكر دلالتي النفس والآفاق فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [سورة فصلت:٥٣]. أي: أننا سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا، ليعرفوا الله حق المعرفة. وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات:٢٠-٢١]. أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[3].

٣. دلالة الوحي والرسل والمعجزات:

إن هذه الدلالة هي من أقوى الدلالات على معرفة الله ﷻ، وعلى إثرها تقام الحجة على المكلفين،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق ، ج١٨/٢٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١٩/١١٧.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٧/٤١٩.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥]. وأما وجه كونها أقوى الدلالات؛ فلأنها تجمع بَين أَمريْن واضحين لم يكن نزاع المبطلين إِلَّا فيهمَا أَو فِي أَحدهمَا، وهما الْحُدُوث الضَّرُورِيّ والمخالفة للطبائع والعادات وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَاهُ الله خَلِيله عَلَيْهِ السَّلَام حِين سَأَلَ الله طمأنينة قلبه [(١)]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٦٠]. وَهو الَّذِي احْتج بِهِ مُوسَى عليه السلام على فِرْعَوْن وَسَماهُ شَيْئا مُبينًا. إذ قَالَ فِرْعَوْن: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢٩]. قَالَ مُوسَى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [سورة الشعراء:٣٠-٣٣]. فدلالة المعجزة على صدق الرسل دليل صحيح ولكنها ليست هي الدليل الوحيد لصدق الرسل، فإنه يمكن الاستدلال على صدق الرسول بالنظر في أحواله ودعوته، لهذا آمنت خديجة وأبو بكر وغيرهم من الصحابة من دون طلب معجزة أو ظهورها لهم، وقد استدل هرقل على صدق الرسول ﷺ بالسؤال عن أحواله ودعوته [(٢)]. "فهؤلاء لم يتلبثوا بالإيمان الذي يدعوهم إليه الأنبياء، كما تلبث قوم، واستكبر آخرون بل بادروا، وسارعوا إليه؛ لأنهم إنما يدعونهم إلى ما اهتدوا إليه مع زيادة صالحة تزيدهم معرفة بالله – تعالى – وبصيرة في عالم الغيب، والحياة الآخرة اللتين دلهم الدليل على ثبوتهما دلالة مجملة مبهمة، والأنبياء يزيدونها بما يوحيه الله إليهم بيانا وتفصيلا، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالآيات بيان أنه كان في كل أمة أولو ألباب هذا شأنهم مع أنبيائهم [(٣)]. وحكى الله ذلك عنهم فقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [سورة آل عمران:١٩٣].

فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الوصول إلى معرفة الله على التفصيل إلا منه جل وعلا وذلك بطريق الوحي [(٤)]. يقول الإمام أحمد: الدال هو الله، والدليل هو القرآن والمبين هو الرسول ﷺ والمستدل

---

(١) القاسمي، إيثار الحق على الخلق، مرجع سابق، ص٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: ابن أبي العز، شرح الطحاوية، مرجع سابق، ص١٥٨. ج١/١١٨. الإرشاد، للجويني، ص ٢٧٨.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج٤/٣٠٢.

(٤) العمراني، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، مرجع سابق، ج١/٦٦.

أولو العلم، هذه قواعد الإسلام والنظر هو الفكر لمعرفة مطلوب من تصور أو تصديق، والعلم وهو حكم الذهن الجازم المطابق الموجب، فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهو الدليل عليه وبه يهتدي في ظلمات الجهل والشبه والشكوك ولهذا سمى الله كتابه نوراً؛ لأنه يهتدى به في ظلمات الجهل والوهم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة:١٥-١٦] [(١)].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء:١٦٥]. فهذه الآية ملجئة جميع الفرق إلى القول بأن بعثة الرسل تتوقف عليها المؤاخذة بالذنوب، وظاهرها أن سائر أنواع المؤاخذة تتوقف عليها، سواء في ذلك الذنوب الراجعة إلى الاعتقاد، والراجعة إلى العمل، وفي وجوب معرفة الله.

فأما جمهور أهل السنة، الذين تترجم عن أقوالهم طريقة الأشعري، فعمموا وقالوا: لا يثبت شيء من الواجبات، ولا مؤاخذة على ترك أو فعل إلا ببعثة الرسل حتى معرفة الله تعالى، واستدلوا بهذه الآية وغيرها: مثل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥]. وبالإجماع. وفي دعوى الإجماع نظر، وفي الاستدلال به على أصل من أصول الدين نظر آخر.

فإن المعتزلة قد أثبتوا الحسن والقبح الذاتيين في حالة عدم إرسال رسول فقالوا: إن العقل يثبت به وجوب كثير من الأحكام، وحرمة كثير، لا سيما معرفة الله تعالى، لأن المعرفة دافعة للضر المظنون، وهو الضر الأخروي، من لحاق العذاب في الآخرة، حيث أخبر عنه جمع كثير، وخوف ما يترتب على اختلاف الفرق في معرفة الصانع قبل المعرفة الصحيحة من المحاربات، وهو ضر دنيوي، وكل ما يدفع الضر المظنون أو المشكوك واجب عقلا، كمن أراد سلوك طريق فأخبر بأن فيه سبعا، فإن العقل يقتضي أن يتوقف ويبحث حتى يعلم أيسلك ذلك الطريق أم لا، وكذلك وجوب النظر في معجزة الرسل وسائر ما يؤدي إلى

---

(١) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار طيبة، المملكة العربية السعودية-الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م. ص٤٥.

ثبوت الشرائع[(١)].

فإن النظر والتأمل والفكر من وسائل المعرفة وطرائقها، قال تعالى عن الغافلين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٩]." أي لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله.. فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي: عن آيات الله في الأنفس والآفاق التي تهدي إلى معرفة العبد نفسه وربه"[(٢)].

ومن هنا فإن المقصد من معرفة الله عز وجل، هو عبادته وتوحيده، فينقاد العبد إلى مولاه، ويسلم أمره إلى بارئه، وينقي قلبه من شوائب الشرك ومظاهره، وإن العبد ليصل إلى معرفة الله التي تقتضي عبوديته وتوحيده عن طريق الوحي والرسل ومعجزاتهم، وكذلك عن طريق التأمل والتفكر في النفس والآفاق. وَقد نبه الله ﷻ على هَذِه الدلالات الثَّلَاث فِي أول سُورَة الْأَنْعَام، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١-٥].

٤. معرفة الله بأسمائه وصفاته.

معرفة الله بأسمائه وصفاته، هي أساس المعرفة، والتي يترتب العلم بالله على العلم به وبصفاته. وإنّ من أهم ما يتضمنّه الإيمان بالله تعالى، التعرف عليه سبحانه بأسمائه وصفاته معرفة تثمر الخشية والعمل بآثارها على منهاج أهل السنة والجماعة.

وللمعرفة بالله وسيلتان: إحداهما: العقل والنظر فيما خلق الله من أشياء:

الإسلام أراد للعقل أن ينهض من عقاله، ويفيق من سباته، فدعا إلى النظر والتفكير، وعَدّ ذلك

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦/٤٠-٤٤.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج٩/٤٢٦.

من جوهر العبادة. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ . وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [سورة يونس:٣٦]. يقول ابن عاشور: "والحق: هو الثابت في نفس الأمر. والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دل عليها الدليل العقلي مثل وجوده وحياته، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة"(١) .

وثانيهما: معرفة أسماء الله وصفاته.

فالأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرَّف الله بها إلى خلقه، وهي النوافذ التي يطل منها القلب على الله مباشرة، وهي التي تحرك الوجدان، وتفتح أمام الروح آفاقًا فسيحة تُشاهَد فيها أنوار الله وجلاله.

ثم إن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، فهي زبدة دعوة الرسل، وخلاصتها، وعندها تلتقي جميعها مع اختلاف مناهجها وشرائعها، لأن جميع الرسل إنما أرسلوا ليعرفوا الناس ربهم وخالقهم فيعبدوه في ضوء تلك المعرفة(٢) .

فهذا نبي الله شعيب عليه السلام يعجب ويستنكر على قومه، فيقول: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [سورة هود:٩٢]. فقوله: "وراءكم إغراقا في معنى النسيان؛ لأنهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته"(٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سورة سبأ:٤٦]. فإن "اللام للتعليل، أي أن تقوموا لأجل الله ولذاته، جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة، أو لأجل معرفة الله والتدبر في صفاته"(٤) .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١١/١٦٦.

(٢) محمد أمان جامي علي، الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية– المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٢/١٥١.

(٤) المصدر نفسه، ج٢٢/٢٣٢.

وإن مما يُبين أهمّيّة موضوع أسماء الله الحسنى أموراً كثيرة منها [١] :

اشتمال السور القرآنية على أسماء الله وصفاته، بل إن سورًا من القرآن الكريم لم تشتمل على غيرها، فهذه سورة الإخلاص تسمى بسورة المعرفة؛ لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة الله إلا بمعرفتها [٢] . وسورة الناس لخصت هذا المقصد "فرتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرجا فإن الله خالقهم، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانا بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض. وفي هذا الترتيب إشعار أيضا بمراتب النظر في معرفة الله تعالى فإن الناظر يعلم بادئ ذي بدء بأن له ربا يسبب ما يشعر به من وجود نفسه، ونعمة تركيبه، ثم يتغلغل في النظر فيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق، ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم" [٣] .

فكل من عرف الله تعالى حق المعرفة وملأ قلبه من نور محبته سيكون أهلا لسعادة لا تنتهي، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفد، وسينالها إما فعلا وواقعا أو استعدادا وقابلية، بينما الذي لا يعرف خالقه حق المعرفة، يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين ويظل يعاني من الآلام والأوهام ما لا يحصر [٤] . لأن معرفة الله تعالى بما يليق به تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة. وإنما يتم ذلك بتنزيهه عما لا يليق به [٥] . قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الصافات:١٨٠-١٨٢]. فأشار قوله: سبحان ربك إلخ إلى تنزيهه، وأشار وصف رب العزة إلى التوصيف بصفات الكمال، فإن العزة تجمع الصفات النفسية وصفات المعاني والمعنوية لأن الربوبية هي كمال الاستغناء عن الغير، ولما كانت النفوس وإن تفاوتت في مراتب الكمال لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين يبلغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى وذلك بواسطة الرسل إلى الناس وبواسطة المبلغين من الملائكة إلى الرسل. وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة. وتلك نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى على

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ – السنة ٣٣ –١٤٢١هـ، ص١٤٨.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/٦١٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٣٠/٦٣٣.

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي، حقيقة التوحيد أو التوحيد الحقيقي، دار سوزلر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص١٣٧ وما بعدها.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/١٩٩.

ذلك لأن الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل وإنعامه بالفواضل وأعظمها نعمة الهداية بواسطة الرسل فهم المبلغون إرشاد الله إلى الخلق، وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل[(١)].

وبعد: فإن هذه المعرفة الإلهية لتعتبر نقطة استناد للإنسان أمام تقلبات الحياة ودواماتها، وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه. إذ الإنسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كل أمره نظام وحكمة وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء وركن إلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئا من المصائب، فإنه سينهار حتما من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات أليمة تذكره بعذاب جهنم وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كله[(٢)].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/١٩٩.

(٢) النورسي، حقيقة التوحيد، مرجع سابق، ص١٧٠ وما بعدها.

المطلب الثاني

مقصد تحقيق العبودية لله تعالى

لقد قضى رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا وهو يدعو إلى معرفة الله وتوحيده ولم يدع إلى غير التوحيد، بل كان أصحابه يقتلون ويضربون وهو لا يملك إلا أن يصبرهم، وكذلك الأنبياء والرسل فقد اتفقت رسالتهم على الدعوة إلى توحيد الله ﷻ [(١)].

ومسائل معرفة الله ووجوب توحيده، وإسلام الوجه له وحده لا شريك له، ومسائل ربوبيته، واختصاصه بالخلق والإيجاد والتدبير، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام، كصمديته تعالى، ونفي الكفو والصاحبة والولد، وغناه بذاته، ومباينته لمخلوقاته، وعموم قدرته، وإحاطة سمعه وبصره، وعلمه بجميع المعلومات والمبصرات والمسموعات، ونحو ذلك من أصول الدين؛ فكل الرسل متفقة عليه، وجميع الكتب داعية إليه، والعقول الصحيحة حاكمة به، فكل اجتهاد خالفه باطل مردود، لا يسوغ العمل به في شريعة من الشرائع، ولا عند فقيه من الفقهاء [(٢)].

وإن الإيمان بالقضاء والقدر، ليقتضي العبودية لله تعالى وتوحيده، والمعرفة بالله تزيد وتنقص كالإيمان. نص عليه الإمام أحمد ﷺ فقد روى الخلال بسنده عن أبي بكر الْمَرُّوذِي قال: "قلت لأبي عبد الله في معرفة الله ﷻ في القلب يتفاضل فيه قال: نعم، قلت: ويزيد، قال: "نعم" [(٣)]. فمن عرف الله بعضًا عبده جزءًا، ومن عرفه حقًا عبده كُلاً.

وفي «تفسير القرطبي» عن أبي عبد الله سعيد بن يزيد الساجي: "خمس خصال بها تمام العلم، وهي: معرفة الله ﷻ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فقدت واحدة، لم يرفع العمل" [(٤)].

---

(١) مُحَمَّد بن عبد الوهاب التميمي، أصول الإيمان، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ص٥-٦.

(٢) محمود شكري الألوسي، غاية الأماني في الرد على النبهاني، تحقيق: الداني بن منير آل زهوي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية– الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ص٧٨-٧٩.

(٣) أبو بكر أحمد الخَلَّال البغدادي، السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م، ج٣/٥٨٠. السفاريني، لوامع الأنوار البهية، مرجع سابق، ج١/١١٣ وما بعدها. العمراني، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، مرجع سابق، ج٣/٧٦٢.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج٢/٢٠٨.

فمعرفة الله تثمر في القلب إجلال الله وإكباره، ليعطيه حقه من إخلاص العبادة بمنتهى الذل ومنتهى الحب، رغبة ورهبة، وإنه ليلزم من معرفة الله تعالى، معرفة كونه واحدًا أحدًا، لا شريك له أبدًا، وقد ثبت ذلك عقلاً وشرعًا. فأما في الشرع فيقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء:٤٢]. وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء:٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [سورة المؤمنون:٩١].

يقول ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنفال:٦٥]. "والمراد نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم. وإنما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم: لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرة، فيحسبون أن كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلّين، ولأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح، والمؤمنون يعولون على نصر الله، ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنهم موقنون بالحياة الأبدية المسرة بعد الموت"[(١)].

وإن هودًا عليه السلام وبّخ قومه على ما فتنوا بالإعجاب به، فقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [سورة الشعراء:١٢٨-١٣٠]. فما فاتح قومه بذلك إلا لما رأى منهم تمحضا للشغل بأمور دنياهم، وإعراضا عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة، وإشراكا مع الله في إلهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت هماتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب.

فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين، وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله فانقلبت أعمالهم دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع. فصار وجودها شبيها بالعبث؛ لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٠/٦٨.

عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته[(١)].

ثم إن الله قد رتب الفلاح على تزكية العبد نفسه، والتزكية هي: الارتياض على قبول الخير والمراد تزكى بالإيمان[(٢)]. قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤-١٥]. يقول ابن عاشور: "وقدم التزكي على ذكر الله والصلاة لأنه أصل العمل بذلك كله. فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها ... وعليه تكون كلمة اسم ربه مرادا بها ذكر أسماء الله بالتعظيم، مثل قول لا إلا الله، وقول الله أكبر، وسبحان الله، ونحو ذلك. ويجوز أن يكون من الذكر بضم الذال وهو حضور الشيء في النفس الذاكرة والمفكرة فتكون كلمة اسم مقحمة لتدل على شأن الله وصفات عظمته فإن أسماء الله أوصاف كمال. وتفريع فصلى على ذكر اسم ربه على كلا الوجهين لأن الذكر بمعنييه يبعث الذاكر على تعظيم الله تعالى والتقرب إليه بالصلاة التي هي خضوع وثناء.

وقد رتبت هذه الخصال الثلاث على الآية على ترتيب تولدها. فأصلها: إزالة الخباثة النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس بالمضمرات الفاسدة وهو المشار إليه بقوله: تزكى، ثم استحضار معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله: وذكر اسم ربه ثم الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله: فصلى والصلاة تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥][(٣)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٩/١٦٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٣٠/٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٣٠/٢٨٨.

المبحث الرابع
مقصد التوكّل على اللّه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ماهية التوكل على الله.

المطلب الثاني: التوكل مع اتخاذ الأسباب.

المطلب الأول
ماهية التوكل على الله

التوكل على الله أصل لجميع مقامات الدين من الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، ومنزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[١].

وإنه أقوى السبل عند الله وأحبها إليه، وقد خاطب الله بالتوكل أقرب الخلق إليه، وأكرمهم عليه وهم المؤمنون، وأمرهم به، وجعله شرطاً في صحة إيمانهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال:٢]. فالتوكل فرض من الفرائض ومن شروط الإيمان، وهو مقام عظيم من مقامات الأبرار[٢].

كما أنه نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ لأن الدين استعانة وعبادة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]. فالإنابة هي العبادة، والتوكل هو الاستعانة، لأنه" انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله راجيا الإعانة ومستعيذا من الخيبة والعوائق، وربما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك"[٣].

وأخبر سبحانه عن رسله أن ملجأهم ومعاذهم في جميع أحوالهم هو التوكل على الله، بل شرطوا هذا التوكل بالإيمان، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة يونس: ٨٤-٨٥]. فنداء موسى: يا قوم، إنما هو تطميناً لقلوبهم وإزالة للخوف عنهم، وسماهم قومه من حيث إيمانهم به، وشَرَط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام أي الاستسلام لقضائه وقدره، والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله أي يجعلوها له سالمة

---

(١) محمد بن إبراهيم التويجري، موسوعة فقه القلوب، بيت الأفكار الدولية، ج٢/ ص١٨٥١.

(٢) عبد الهادي بن محمد العجيلي، تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق: حسن بن علي العواجي، مكتبة أضواء السلف، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ج٢/٣٥١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/١٥١.

خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط[(١)].

كما أن التوكل على الله عبادة قلبية، يجب صرفها إلى الله وحده دون سواه؛ لأن الله هو الحقيق بأن يعبد وأن يتوكل عليه في كل مهم. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة هود:١٢٣]. والمراد أن يعبده دون غيره ويتوكل عليه دون غيره بقرينة وإليه يرجع الأمر كله، وبقرينة التفريع؛ لأن الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكل إلى غيره، فلذلك لم يؤت بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما[(٢)]. وهذا التوكل إفراد لله بالتوجه إليه في كل ما تعجز عنه قدرة العبد، فإن التوجه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد؛ لأن المشركين يتوكلون على آلهتهم أكثر من توكلهم على الله[(٣)].

وإنما استحق الله وحده التوكل عليه، والتوجه إليه؛ لأنه حي لا يموت، واسع العلم والقدرة. قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [سورة الفرقان:٥٨-٥٩]. فعدوله سبحانه عن لفظ الجلالة إلى هذين الوصفين ــالحي الذي لا يموتــ بعد أمره بالتوكل؛ لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم، فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه. فالتعريف في الحي للكامل، أي الكامل حياته؛ لأنها واجبة باقية مستمرة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت، ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام. وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء. وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم.

وأجريت هذه الصلة بأوصاف الله، فهو الحي الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض وما بينهما؛ لاقتضائها سعة العلم وسعة القدرة وعظيم المجد، فصاحبها حقيق بأن يتوكل عليه ويفوض أمر الجزاء إليه.

---

(١) مُحَّد صديق خان القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدًا – بَيروت، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، ج٦/١٠٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٢/١٩٥

(٣) المصدر نفسه، ج٢٥/١٠٩.

وهذا تخلص إلى العود إلى الاستدلال على تصرف الله تعالى بالخلق [(١)].

ثم إن هذا التوكل لينشأ من علم العبد أن الأمور كلها بيد الله، والخلائق كلها في قبضة الله، وهي موكولة إليه سبحانه.

وأن العبد لا يملك منها شيء، فهو لا يجد بداً من اعتماده عليه، وتفويض أمره إليه. فحقيقة التوكل أنه طلب نصر الله وتأييده في الأمر الذي يرغب حصوله، وذلك داخل في الاستعانة وهو يستلزم الصبر على الضر؛ لاعتقاد أنه زائل بإذن الله [(٢)]. ومن هنا كان التوكل مقصدًا عقديًا من مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر.

يقول السعدي: "وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة.

فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو مشرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به، وكل إليه وخاب أمله" [(٣)].

وبحسب معرفة العبد بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، يصح له مقام التوكل، فمن كان بالله أعرف كان توكله على ربه أقوى. فمن عرف أن الله هو الرزاق، لم يسوؤه تأخير رزقه، ومن عرف بأن الله جبار، لا يضيره كسر قلبه، ومن عرف بأن الله تواب لم يستحي من تكرار طرق بابه، فمعرفة العبد ربه بأسمائه وصفاته هي أول درجة يضع فيها العبد قدمه في مقام التوكل [(٤)].

ومما سبق يتضح بأن التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١٩/٥٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج٩/٥٩.

(٣) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ، ص١٣٤.

(٤) التويجري، موسوعة فقه القلوب، مرجع سابق، ج٢/ ص١٨٥١.

تركه من أمور دينه أو دنياه. بل إن الله يحب المتوكلين عليه بدلالة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]. فالتوكل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه. وهذا أدب عظيم مع الخالق يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله[١].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/١٥٢.

المطلب الثاني
التوكل مع اتخاذ الأسباب

إن الإيمان بالقدر يتفق مع الأسباب، فمباشرة الأسباب والاجتهاد في الأعمال النافعة يحقق للعبد تمام الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله قدر المقادير بأسبابها وطرقها، وتلك الأسباب والطرق هي محل حكمة الله، فقضاء الله وقدره وحكمته متفقة. كل واحد منها يمد الآخر ولا يناقضه.

وأقدار الله كلها تابعة لحكمته، فكما أن أفعاله تعالى محكمة في غاية الإحكام والانتظام ما ترى في خلق الرحمن من خلل ولا نقص ولا فطور ولا اختلال ولا في شرعه من عبث وسفه ومنافاة للحكمة والمصلحة والإحسان، فكذلك أفعال المكلفين دينيها ودنيويها، ظاهرها وباطنها كلها تجري على وفق الحكمة والغايات الحميدة، وأنه كلما عظم المقصود وكثرت منافعه ومصالحه لم يمكن إدراكه إلا بسلوك الطرق المفضية إليه.

ثم إن المؤمن بالقدر لتجري عليه المقادير، ويعمل على سنة القدر ونظامه، ويتبع النافع في أحكامه وإبرامه، ويسعى لنيل رضا الله سبحانه، والفوز بجناته والنجاة من نيرانه، وهو أعظم المقاصد. وقد جعل الله لهذه الغاية طرقًا وأسبابًا توصل إليها، فجعل له الإيمان وشعبه الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله وإخلاص الدين له، ولزوم الاستقامة والتقوى. فمن لم يسلك هذا الطريق، فمحال أن يصل إلى رضوان ربه وثوابه، واتكال الأحمق على القدر بدون جد واجتهاد، قدح في القدر والشرع جميعاً[(١)].

فالقدر في دائرة الاعتقاد، والشرع في دائرة العمل. وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها ــ كتوسلنا للنسل بالزواج وللزرع بالحرث، والعلم بالتعلم وهكذا مع الإيمان بالقدر. ولا يجوز أبدا ترك العمل الممكن المعلوم الذي أمر به الشرع اتكالا على القدر المغيب المجهول عندنا مع إيماننا به ــ ونؤمن بسبق قدر الله تعالى فلا يكون إلا ما قدره منها، فمن سبقت له السعادة يسر لأسبابها، ومن سبقت له الشقاوة يسر لأسبابها، ومن مقتضى ذلك الإيمان القوة والحركة والعمل فليتحرك الإنسان وليعمل بما يقوى عقله وقلبه وبدنه؛ فيقوى العقل بالعلم والتفكير، والقلب بالإيمان واليقين، والبدن بالنظافة

---

(١) ينظر: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الفتاوى السعدية، مكتبة المعارف_الرياض، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ_١٩٦٨م، ٣٢-٣٥، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة: السنة الحادية عشرة- العدد الرابع- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٨٦-٨٨.

والرياضة، ومن كان كذلك فهو أحب الى الله والناس من المؤمن الضعيف[(١)].

ويتبين من هذا أن الله أراد من عباده أن يتخذوا من قانون السببية أصلا يتعاملون على أساسه، ولا بد أن يرسخ في قلوبهم أن الأسباب من خلق الله، وأننا مأمورون بالأخذ بها.

فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام حين أمر بنيه بقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف:٦٧]. ووصيته لهم إنما هي تبيين للأخذ بالأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله. فالحاجة التي في نفس يعقوب إنما هي تعليم بنيه الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، وتنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم إن هم دخلوا من باب واحد. وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها؛ لأن الله أمر بذلك[(٢)].

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ بالتوكل عليه وحده، مع اتخاذ الأسباب، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة الأنفال:٦١]. فما أمره بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، إلا ليكون النبي ﷺ معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى، ومفوضا إليه تسيير أموره، فتكون مدة السلم مدة تقو واستعداد، وليكفيه الله شر عدوه إذا نقضوا العهد. ولذلك عقب الأمر بالتوكل بتذكيره بأن الله السميع العليم، وذلك يفيد قصر معنى الكمال في السمع والعلم. وذاك يفضي إلى الأمر بقصر التوكل عليه لا على غيره. وفي الجمع بين الأمر بقصر التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو: دليل بين على أن التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء، فتعاطي الأسباب فيما هي من مقدور الناس، والتوكل فيما يخرج عن ذلك[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠]. يقول ابن عاشور: "لا يجهل مؤمن أن الله إذا قدر نصر أحد فلا راد لنصره، وأنه إذا قدر خذله فلا ملجأ له من الهزيمة، فإن مثل هذا المعنى محقق في جانب

---

(١) عبد الحميد محمد بن باديس، العقائد الإسلامية في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية: محمد الصالح رمضان، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقه بو داود وشركاؤهما، الجزائر، الطبعة الثانية، ص٩٢ وما بعدها.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/١٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠/٥٩.

الله لا يجهله معترف بإلهيته، مؤمن بوحدانيته، وهل بعد اعتقاد نفي الشريك عن الله في ملكه مجال لاعتقاد وجود ممانع له في إرادته، فيتعين أن يكون هذا الخبر تقريرا لتسلية المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة، حتى لا يحزنوا على ما فات؛ لأن رد الأمور إلى الله تعالى عند العجز عن تداركها مسلاة للنفس، وعزاء على المصيبة، وفي ضمن ذلك تنبيه إلى أن نصر الله قوما في بعض الأيام، وخذله إياهم في بعضها، لا يكون إلا لحكم وأسباب، فعليهم السعي في أسباب الرضا الموجب للنصر، وتجنب أسباب السخط الموجب للخذل، وعليهم التطلب للأسباب التي قدر لهم النصر لأجلها في مثل يوم بدر، وأضدادها التي كان بها الخذل في يوم أحد، وفي التذييل من أمره بالتوكل تذييل قصد به الأمر بالتوكل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر الله تعالى: من أسباب عادية وهي الاستعداد، وأسباب نفسانية وهي تزكية النفس واتباع رضى الله تعالى"[(١)].

وقد نسب الله أولئك المؤمنين المتوكلين إلى نفسه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [سورة الإسراء:٦٥]. وما بلغوا هذه الدرجة إلا لأنهم عبدوا الله وعملوا صالحًا، وتوكلوا عليه وحده دون سواه.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل:٩٨-١٠٠]. ففي قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾ تعليل وبيان، فأما كونها تعليلا فلزيادة الحث على الامتثال؛ للأمر بأن الاستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعيذ؛ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكل على الله، فالإلتجاء إليه توكل عليه.

وأما كونها بيانا فلما تضمنته من ذكر التوكل على الله ليبين أن الاستعاذة إعراب عن التوكل على الله تعالى لدفع سلطان الشيطان ليعقد المستعيذ نيته على ذلك. فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان، والتوكل. فالمعنى أن الإيمان مبدأ أصيل لتهوين سلطان الشيطان في نفس المؤمن فإذا انضم إليه التوكل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل[(٢)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/١٥١ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج١٤/٢٧٨ وما بعدها.

كما أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يبرر خطأ الإنسان، كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ . فإن الإنسان يتحمل مسؤولية عمله، فالله الذي خلق الفعل خلق إيجاد، لكنه خلق وأوجد في الإنسان الاختيار.

فمن الخطأ أن "يحتج بالقدر في الذنوب_ بمعنى لا يلقى الانسان التبعة على القدر ويقول أنا مسير لا مخير. وكثيرا ما يقول الانسان الشر في ذلك، فيعوقه عن النهوض وتنمية الإرادة والعزيمة والقدرة؛ لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية"(١) .

قال شارح الطحاوية: "وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام. وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان:٧]"(٢) .

فمن ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال؛ لأن الالتفات إلى الأسباب وحدها شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب. والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة.

فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله. كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد. ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم(٣) .

ومن هنا فإن الأخذ بالأسباب سنة من السنن الإلهية، ومن نفى الأسباب فالبهائم أفقه منه؛ لأنها تسعى في السبب بالهداية العامة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ

---

(١) ابن باديس، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص٩٦.

(٢) ابن أبي العز، شرح الطحاوية، مرجع سابق، ص٢٤٥.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج٨/٥٢٨ وما بعدها.

قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٩]. يقول ابن القيم: "لا تقوم عبودية الأسباب إلى على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية"[١].

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢/١٢٠. التويجري، موسوعة فقه القلوب، ج٢/١٨٥٥.

المبحث الخامس
مقصد الصبر

وفيه تمهيد ومطلبان:

تمهيد: ماهية الصبر.

المطلب الأول: الصبر على الابتلاء وأقدار الله المؤلمة.

المطلب الثاني: الصبر على الطاعة، واجتناب المعصية.

تمهيد

ماهية الصبر

إن الصبر من أجل مقامات الإيمان، وإن أخصّ الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياماً وتحققاً به، ثم إن الخاصة أحوج إليه من العامة[(١)]. وقد ذكره الله ﷻ في كتابه في نحو تسعين موضعاً، فتارة يأمر به، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [سورة البقرة: ١٥٣]. وسبب الأمر بالاستعانة بالصبر؛ "لأن الصبر ملاك الهدى فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين قويم الفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق"[(٢)].

وتارة يثني على أهله، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]. وهذا في القرآن كثير. وأوجب محبته لأهل الصبر، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٦]. كما أوجب معيته لهم، وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الأنفال:٤٦]. "فقوله: إن الله مع الصابرين إيماء إلى منفعة للصبر إلهية، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلها"[(٣)].

وأمر المؤمنين بالتواصي به، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [سورة البلد:١٧]. "وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر وتواصيهم بالمرحمة؛ لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها؛ لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر. والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح: ٢٩][(٤)].

---

(١) ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/١٥١. محمد ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار السلفية، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ، ص٢٦٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٧٧ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج١٠/٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٣٠/٣٦١.

كما وعدهم ربهم بأوفى الجزاء بلا حساب، قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل:٩٦]. وقال تعالى: قال ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر:١٠].

وقد قرنه الله ﷻ بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه باليقين وبالإيمان، والتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة. كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٤]. "وحسبك بمزية الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر:١-٣]"[(١)].

وقد جمع الله سبحانه بين وصفي الصبار والشكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة سبأ:١٩]. لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فيطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها فاضطربت نفوسهم وعمهم الجزع فخرجوا من ديارهم وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لا قوه في ذلك من المتالف والمذلات[(٢)]. ولا جرم أن الاستعانة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [سورة البقرة:٤٥]. راجعة لأمرين: الصبر والشكر. ومعظم الفضائل ملاكها الصبر إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الخلال، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة وكبح زمام النفس عن الإسامة في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالا أو عما يورث نقصانا فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر[(٣)].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٧٧-٤٨٠.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٢/١٨٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١/٤٧٧-٤٨٠.

- **تعريف الصبر:**

الصبر في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قتل فلان صبرا. إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [سورة الكهف: ٢٨]. أي احبس نفسك معهم. فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش[(١)].

وحقيقة الصبر كما يقول ابن عاشور: أنه منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيه أو من محاولة تحصيله إن كان صعب الحصول فيترك محاولة تحصيله لخوف ضر ينشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور، أو لرغبة في حصول نفع منه، كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في الثواب والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك[(٢)].

كما يعرف الصبر الجميل بأنه: "الصبر الحسن في نوعه ، والذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي اصبر صبرا محضا، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها"[(٣)].

والصبر عرفه الغزالي: بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة وهو تعريف خاص بالصبر الشرعي، وأما الصبر من حيث هو- الذي هو وصف كمال- فهو عبارة عن احتمال النفس أمرا لا يلائمها إما لأن مآله ملائم، أو لأن عليه جزاء عظيما فأشبه ما مآله ملائم، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر، فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم[(٤)].

ومن الصبر المصابرة والاصطبار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]. فأمر الله تعالى المؤمنين بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة وهي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشد الصبر ثباتا في النفس وأقربه إلى التزلزل، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يمل قرنه فإنه لا يجتني من صبره

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/١٥٥.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣٠/٥٣٢ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج١٢/٢٣٩. ج٢٩/١٥٨.

(٤) أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، ج٤/٦٣. ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق ج١/٤٧٧ وما بعدها.

شيئا، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرا [(١)].

والاصطبار افتعال من الصبر، وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل. قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ [سورة القمر:٢٧]. فالاصطبار شدة الصبر على الأمر الشاق، وهو التلذذ بالبلوى، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [سورة مريم:٦٥]. فاصطبر: أي اثبت للعبادة؛ لأن العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض، فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها وفيها أصناف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه، فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعداتك [(٢)].

- أقسام الصبر [(٣)]:

لقد تبين أن الصبر أصل مقامات الإيمان، وهو أصل لكمال العبد الذى لا كمال له بدونه. وهو على هذا ثلاثة أقسام: إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها، وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها، وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها، وإن أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله وابتلائه.

يقول ابن تيمية: "الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل؛ فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية" [(٤)].

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاما وفعلا، فتلزم النفس الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحج فتحج. ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٤/٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١٦/١٤٢. ابن القيم، طريق الهجرتين، مرجع سابق، ص٢٦٥.

(٣) ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/١٦٣ وما بعدها. ابن القيم، طريق الهجرتين، مرجع سابق، ص٢٦٧. محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، محرم ١٤٢٤هـ، ج٢/١١٠ وما بعدها.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج١٧/٢٩-٣٠. أحمد بن تيمية، الحسنة والسيئة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص٧٣ وما بعدها.

كفّا فقط؛ أي: إلزاما للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلا ولا تركا، وإنما هو من قدر الله المحض.

وقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة؛ فقد كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس. وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلا قريب أو صديق أو عزيز عليه جدا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

المطلب الأول
الصبر على الابتلاء وأقدار الله المؤلمة

إن الصبر على الابتلاء، والرضا به واليقين بأن ما عند الله من خير وأجر للصابرين هو أبقى، ليعتبر لبّ الإيمان بالقضاء والقدر. ثم إن البلاء هو الاختبار بالخير أو الشر قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء:٣٥]. وهو مجاز مشهور حقيقته بلاء الثواب، وهو تخلقه وترهله. ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر إعناتا للنفس، وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح. فيطلق غالبا على المصيبة التي تحل بالعبد؛ فهي من لوازم الابتلاء، لأن بها يختبر مقدار صبر العبد وأناته، ومقدار ثباته [(١)].

والمصائب من القدر، والقدر راجع إلى حكمة الله – جل وعلا –، وحكمة الله – جل وعلا – هي وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، فالحكمة بعامة مرتبطة بالغايات المحمودة من وضع الأمر في موضعه، فمن وضع الأمر في غير موضعه فقد ظلم، ومن وضع الأمر في موضعه عدل، وقد يكون غير حكيم، أي قد يكون عادلا ولكن غير حكيم، فإذا وضع الأمر في موضعه الموافق للغاية المحمودة منه فذاك هو الحكيم، والله – جل وعلا – منفي عنه الظلم ومثبت له كمال العدل سبحانه حيث يضع الأمور في مواضعها، ومثبت له – جل وعلا – كمال الحكمة حيث إن وضعه الأمور في مواضعها موافق للغايات المحمودة منها، فنعلم بذلك أن المصيبة إذا أصابت العبد فإن الخير له فيها، إما أن يصبر فيؤجر، وإما أن يتسخط فيؤزر على ذلك، وهذا في حق الخاسرين، فالله – جل وعلا – له الحكمة من الابتلاء بالمصائب؛ لهذا يجب على العبد أن يعلم أن ما جاء من عند الله هو قدر الله – جل وعلا – وقضاؤه الموافق لحكمته فيجب الصبر على ذلك [(٢)].

وعلى العبد أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما تختبر صبره وثباته، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة التغابن:١١]. والقصد من هذا تعليم المسلمين الصبر على ما يغلبهم من مصائب الحوادث لكيلا تفل عزائمهم، ولا يهنوا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٩٣. ج٤/١٩٠.

(٢) صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، دار التوحيد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، ص٣٩١ وما بعدها.

ولا يلهيهم الحزن عن مهمات أمورهم، وتدبير شؤونهم كما قال تعالى: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ ﴾ [سورة الحديد:٢٣]. والمؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى، فهو مجاف لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة. ولذلك أعقبه هنا بقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة، ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب؛ لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات(١).

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٥٥-١٥٧]. فعطف: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم ﴾ على قوله: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [سورة البقرة:١٥٣]. ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينجر لهم من ذلك ثواب، ولذلك جاء بعده وبشر الصابرين.

ووصف الله أولئك الصابرين بالاهتداء، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ لعدم انزعاجهم وتضجرهم من المصائب، ولم تكن لهم تلك المصائب حاجبا عن التحقق في مقام الصبر؛ لعلمهم أن الحياة لا تخلو من الأكدار.

وقد يجعل الله سبب المصيبة عقوبة لعبده في الدنيا على سوء أدب أو نحوه للتخفيف عنه من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات النفس، ولها أحوال ودقائق لا يعلمها إلا الله تعالى وقد يطلع عليها العبد إذا راقب نفسه وحاسبها، ولله تعالى في الحالين لطف ونكاية يظهر أثر أحدهما للعارفين(٢).

وإن في قصة أيوب مجملها ومفصلها ما إذا سمعه العقلاء المعتبرون بالحوادث، والقائسون على النظائر

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٨/٢٧٩ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه، ج٢/٥١ وما بعدها.

استدلوا على أن صبره قدوة لكل من هو في حرج أن ينتظر الفرج، وقد ذكر الله من الأنبياء من ابتلي من قومه فصبر، ومن ابتلي من غيرهم فصبر، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأسباب الداعية إليه. فكان في ذلك آيات للعابدين، أي الممتثلين أمر الله المجتنبين نهيه، فإن مما أمر الله به الصبر على ما يلحق المرء من ضر لا يستطيع دفعه لكون دفعه خارجا عن طاقته(١).

وقد اختبر الله مقدار صبر قوم موسى، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [سورة إبراهيم:٦]. والبلاء هنا المصيبة بالشر، سمي اختبارًا؛ لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل(٢).

كما أن الصبر على الزوجة المؤذية أو المكروهة إذا كان لأجل امتثال أمر الله بحسن معاشرتها، يكون جعل الخير في ذلك جزاء من الله على الامتثال. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء:١٩](٣).

وإن مما يعين على الصبر على البلاء هو ثلاثة أمور(٤):

أولاً: ملاحظة حسن الجزاء. وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخفف حمل البلاء، لشهود العوض. فإن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما يتحمله المرء باختياره وغير اختياره.

ثانيًا: انتظار الفرج، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة. فلولا قوة الرجاء بما عند الله من تفريج لما ابتهلت إليه المرأة الحامل لحظة ولادتها، ولكنه اليقين بأن لا يقدر على كشف الضر سواه، وتظل ترتقب صوت بكاء وليدها، فإن هي سمعته حمدت الله وشكرته، فكان عاقبة صبرها على الحمل والوهن تسعة أشهر، فرجًا تنساب نسماته وهي تتحسس أنفاس وليدها في أحضانها.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢٣/٢٧٢ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج١٣/١٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٤/٢٨٧.

(٤) ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/١٦٥ وما بعدها. ابن القيم، طريق الهجرتين، مرجع سابق، ص٢٧٦ وما بعدها.

ثالثًا: تهوين البلية في النفس وذاك بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه - بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه -كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضي. وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما في الدنيا. والثاني يوم الجزاء.

المطلب الثاني
الصبر على الطاعة، واجتناب المعصية

ذكر الله في قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [سورة آل عمران:١٧]. أصول فضائل صفات المتدينين: وهي الصبر الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي. والصدق الذي هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة. والقنوت، وهو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية (١).

وإن الصبر مقصد من مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر، ومن الأدلة على ذلك ما ذكره ابن القيم (٢):

أولاً– علم العبد بقبح المعصية ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق والده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

ثانيًا– الحياءُ من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع وكان حياً حييّاً استحى من ربه أن يتعرض لما يسخطه.

ثالثًا– مراعاة نعم الله عليه وإحسانه إليه، فإن المعاصي نار النعم تأْكلها كما تأْكل النار الحطب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد:١١]. وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

رابعًا– الخوف من الله وخشية عقابه. وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [سورة فاطر:٢٨].

خامسًا– محبة الله سبحانه، وهي أقوى الأمور التي تعين على الصبر عن مخالفته ومعاصيه. فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٣/ ١٨٥.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ص٢٧٠ وما بعدها.

سادسًا– شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأمور التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقرها، وتسوى بينها وبين السفلة.

سابعًا– قوة العلم بسوءِ عاقبة المعصية، وقبح أثرها والضرر الناشئ منها، كسواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله.

فإن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن أذنب ذنباً آخر نكت فيه نكتة أُخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه، فذلك هو الران، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين:١٤]. ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة.

ثامنًا– قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، ويدرك أنه عابر سبيل إلى الآخرة، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها. فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

تاسعًا– مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأُ من هذه الفضلات، فإنها تطلب لها مصرفاً فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام. ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

عاشرًا– وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوى سراج الإيمان في القلب، وأَضاءَت جهاته كلها به، وأشرق نوره في أرجائه، سرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته. فهو كل وقت يترقب داعيه، ويتأهب لموافاته. والله يختص برحمته من يَشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

يقول ابن عاشور: "وإنك إن تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر فإن فيه مخالفة

النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحس الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحدا من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة. فإذا صار الصبر خلقا لصاحبه هون عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرع عنه بالصبر فإنه خلق يفتح أبواب النفوس لقبول ما أمروا به من ذلك"(١).

والصبر على الطاعة ينشأُ من معرفة هذه الأمور السابقة، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، وإن الإيمان والمحبة من أَقوى أسبابها، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وقد وقع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة هود:١١٤-١١٥]. فإن المأمورات لا تخلو عن مشقة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كل بما يناسبه(٢).

وذكر ابن القيم أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: "دوام الطاعة. والإخلاص فيها. ووقوعها على مقتضى العلم. وهو تحسينها علما. فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة. فإن العبد إن لم يحافظ عليها دواما عطلها، وإن حافظ فيها دواما عرض لها آفتان: إحداهما: ترك الإخلاص فيها. بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله، وإرادته والتقرب إليه. فحفظها من هذه الآفة: برعاية الإخلاص.

الثانية: ألا تكون مطابقة للعلم بحيث لا تكون على اتباع السنة. فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة. كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة"(٣).

قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [سورة البقرة:٤٥]. والمراد بالخاشع هنا: الذي ذلل نفسه وكسر سورتها وعودها أن تطمئن إلى أمر الله وتطلب حسن العواقب وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير. وكأن المراد بالخاشعين هنا الخائفون الناظرون في العواقب فتخف عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة مع ما في الصبر

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١٢/١٨٢.
(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج٢/١٦٥.

من القمع للنفس وما في الصلاة من التزام أوقات معينة وطهارة في أوقات قد يكون للعبد فيها اشتغال بما يهوى أو بما يحصل منه مالا أو لذة(١).

والجهاد يستدعي الصبر، لأن الصبر هو سبب النجاح في الجهاد، وجالب الانتصار. وقد تسبب في هزيمة المسلمين يوم أحد ضعف صبر الرماة، وخفتهم إلى الغنيمة، وفي الجهاد يتطلب صبر المغلوب على الغلب حتى لا يهن ولا يستسلم. قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران:١٤٢]. أفتحسبون أن تدخلوا الجنة في حال انتفاء علم الله بجهادكم مع انتفاء علمه بصبركم!(٢).

وكذلك الصوم فإنه جُنّة. وقد حاول أساطين الحكمة النفسانية الإقلال منه، فمنهم من عالج الإقلال بنقص الكميات وهذا صوم الحكماء، ومنهم من حاوله من جانب نقص أوقات التمتع بها وهذا صوم الأديان وهو أبلغ إلى القصد وأظهر في ملكة الصبر، وبذلك يحصل للإنسان دربة على ترك شهواته، فيتأهل للتخلق بالكمال فإن الحائل بينه وبين الكمالات والفضائل هو ضعف التحمل للانصراف عن هواه وشهواته(٣).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١/٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤/١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢/١٦٠.

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وعونه نبلغ الغايات، فله الحمد بأن يسر لي إتمام هذا البحث، والله أسأل أن يجعله عملا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

وفي نهاية دراستي لهذا الموضوع وبحثي في فصوله ومباحثه، ألخّص النتائج التي توصلت إليها في النقاط التالية:

٨. استنباط المقاصد العقدية للإيمان باليوم الآخر من خلال تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور، وهي:

- **أولاً– المقاصد العقدية العامة للإيمان باليوم الآخر:**

– مقصد تثبيت عقيدة الإيمان باليوم الآخر في النفوس من خلال المقابلة بين الترغيب والترهيب.

– مقصد الإيمان بالغيب (تحقيق وقوع يوم القيامة)، فلا يسمى المؤمن مؤمناً إلا إذا آمن به، وتيقن وقوعه وتحققه.

– مقصد صلاح النفس والجماعة، فإن العبد إذا آمن باليوم الآخر عمل صالحًا وخاف الآخرة وسعى لها سعيها، فكان في نفسه صالحًا. وصلاح العبد في نفسه هو صلاح لمجتمعه الذي يعيش فيه، فهو فرد من أفراده، فلو آمن مجموعة أفراد لتكون مجتمعًا مؤمنًا، صالحًا بصلاح أفراده. كمجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، إذ آمنوا بالله واليوم الآخر فصلحوا في أنفسهم، وصلح مجتمعهم.

– مقصد تعمير العالم الدنيوي، وإنما يكون التعمير ببذل الجهد في الطاعة والعمل الصالح، ليتحقق للعبد النعيم الأبدي في الآخرة، فيعمر العالَمين بإيمانه وعمله.

- **ثانيًا– المقاصد العقدية للإيمان بالموت والبرزخ:**

– مقصد الترغيب والإقبال على الآخرة، فإن ما يتحصل عليه العبد من النعيم في الآخرة، لا طريق للوصول إليه إلا عن طريق الموت، وانتهاء الحياة الدنيا، فإذا علم العبد ذلك، وآمن به، سابق وأكثر من أسباب تحصيل ذلك النعيم من الإيمان والعمل الصالح.

– مقصد ابتلاء واختبار الناس، فالله سبحانه خلق الموت؛ لقصد الابتلاء واختبار العباد، فمن كان محسنًا فله إحسانه، ومن كان مسيئًا فعليه إساءته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢].

- مقصد الحث على المسارعة إلى التوبة، وفيه استدراكٌ للعمل الصالح فيما بقي من العمر، قبل انقطاعه بالموت؛ وفي هذا ترغيب وتحضيض على التوبة، لأن مرجع الإنسان إلى ربه.

- **ثالثًا- المقاصد العقدية للإيمان بأشراط الساعة:**

- مقصد إثبات صدق ودلائل نبوة النبي مُحَّد ﷺ. فإن الله يظهر الآيات على يد رسوله ﷺ لتأييد صدقه، والناس إذا رأوا أي خارق للعادة أظهره الرسول صدقوا وأيقنوا.

- مقصد إشباع الرغبة الفطرية في الإنسان، وإن الساعة من الغيب الموعود، وما غاية الناس من معرفة وقتها؛ إلا تهيئة أنفسهم والاستعداد لها، وتجنب الأسباب التي قد تهلكهم، لكن الله أخفى عنهم ذلك؛ ليبقى العبد يتقلب بين الخوف والرجاء.

- مقصد تعلم كيفية التعامل الصحيح مع وقائع الساعة. أولا قبل حدوثها فينبذ الشرك ويستكثر من الأعمال الصالحة، ويجتنب الآثام لقرب يوم الجزاء، بدلالة أشراطه وعلاماته. وأثناء حدوث أشراطها بأن يعرف المرء كيف يتعامل معها بالطريقة الشرعية فلا يلتبس عليه الأمر. كوصف الدجال والمهديّ.

- **خامساً- المقاصد العقدية للإيمان بالبعث وما يتعلق به:**

- مقصد معرفة الله تعالى المعرفة الشرعية؛ لأن العبد إذا عرف أن الله يبعث من في القبور، عرف المترتب على ذلك البعث من حساب وجزاء، فيلزم العمل الصالح، ولا يحيد عن الصواب، بل يعتلي في مراتب الإيمان إلى أن يصل مرتبة الإحسان بأن يعبد الله كأنه يراه.

- مقصد الاعتراف بكمال علم الله وقدرته على البعث، وتتجلى مظاهر ذلك في ثلاثة أمور:

١. الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى.

٢. أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه.

٣. قدرته ﷻ على تحويل الخلق من حال إلى حال.

- مقصد التعريف بحكمة الله وهدفية الحياة. فالله لم يخلق عباده عبثًا، وإنما خلقوا لغاية تعمير العالمين الدنيوي والأخروي بالعمل الصالح.

- **سادسًا- المقاصد العقدية للإيمان بالحساب والجزاء:**

- مقصد معرفة الناس جزاء أعمالهم. وهذا من حكمة البعث؛ لأن التكذيب بذلك اليوم ليوقع العبد في أوحال المعاصي، وإن الله ليطلعه على عمله ويقرره عليه، فيحكم على نفسه بالنجاة أو الهلاك، وهذا من إعذار الله لخلقه.

- مقصد الشعور بالمسؤولية. فإن العبد إذا آمن بالله وحده، وعلم أن مصيره إليه، وأن أعماله ستعرض عليه؛ لتقريره عليها، كما أنه ليس مسؤولاً عن عمل غيره، وليس محاسبًا بما فعل غيره، اهتمّ بعمله، وحرص على فعله هو، وتحمل

- مقصد بيان عدل الله عز وجل. فالله سبحانه هو الحقّ، يُوَفِّي عباده يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١].

- **سابعًا- المقاصد العقدية للإيمان بالجنة والنار وما يتعلق بهما:**

- مقصد الإنذار بعذاب يوم القيامة، وتهديد المكذبين بوقوعه. ومن الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في تبيين هذا المقصد: ذكر أوصاف يوم القيامة، وتفصيل أهواله. مما يوقع في قلب العبد رهبة ذلك اليوم. وذكر ما يترتب على الكفر بذلك اليوم من جزاء، وبيان المصير الذي يؤول إليه الكاذبين. مما يدفع بالعبد إلى الإيمان ونبذ الكفر؛ فيكون له حسن الجزاء، ونعم المصير. وذكر قصص الأمم السابقة، وما حلّ بهم من العذاب الدنيوي، وبيان مصائرهم في الآخرة؛ تهديدًا لكل من كذب بوقوع هذا اليوم من بعدهم.

٩. استنباط المقاصد العقدية للإيمان بالقضاء والقدر من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وهي:

- **أولاً- المقاصد العقدية العامة للإيمان بالقضاء والقدر:**

- مقصد الاهتداء واستقامة السلوك، فإن المؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتحقق توحيده، ويزيد إيمانه، فيسير على هدى من ربه. يعمل ويجد ويسعى ويبذل الأسباب ويفوض أمره إلى الله، ويتوكل عليه، فإن نال مناه شكر الله، وزاد في تقاه، وإن لم يتحقق مراده صبر، وآمن بما عند الله.

- مقصد تحقيق الأنس بالله وسعادة الدارين، فإن المؤمن بالقدر لأشد الناس استئناسًا بربه؛ لأنه يتقلب بين جملة من العبادات القلبية، أبرزها الرضا والتسليم، والفرح والشكر. ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

- ثانيًا- مقصد معرفة الله تعالى وتوحيده: فينقاد العبد إلى مولاه، ويسلم أمره إلى بارئه، وينقي قلبه من شوائب الشرك ومظاهره، وإن العبد ليصل إلى معرفة الله التي تقتضي عبوديته وتوحيده عن طريق معرفة

أسمائه وصفاته وهي أساس المعرفة، وكذلك عن طريق الوحي والرسل ومعجزاتهم، والتأمل والتفكر في النفس والآفاق.

- ثالثًا- مقصد التوكل على الله: فإن الإيمان بالقدر يتفق مع الأسباب، ومباشرة الأسباب والاجتهاد في الأعمال النافعة يحقق للعبد تمام الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله قدر المقادير بأسبابها وطرقها، وتلك الأسباب والطرق هي محل حكمة الله، فقضاء الله وقدره وحكمته متفقة. كل واحد منها يمد الآخر ولا يناقضه. ومن ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال. فالالتفات إلى الأسباب وحدها شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب. والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة.

رابعًا- مقصد الصبر: فإن الصبر على الابتلاء، والرضا به واليقين بأن ما عند الله من خير وأجر للصابرين هو أبقى، ليعتبر لبّ الإيمان بالقضاء والقدر. والمصائب من القدر، وعلى العبد أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما تختبر صبره وثباته.

١٠. بيان العلاقة بين مقاصد الشريعة وبين مقاصد العقيدة من خلال بيان البعد العملي لمقاصد العقيدة، فالعقائد هي محور الفهم والتفسير، ومجال التفكير والتدبر والاتعاظ، كما تتضح تلك العلاقة من خلال بيان أهمية المقاصد العقدية:

أ. معرفة المقاصد تسهم في ترسيخ العقيدة.

ب. أن معرفة المقاصد تسهم في تحقيق العبودية.

ج. أن معرفة المقاصد تسهم في الوقوف ضد الغزو الفكري والعقدي. فهذا دليل على أن العلاقة بين العقيدة والشريعة وبين مقاصدهما علاقة وطيدة لا يمكن الفصل بينهما، فالعقيدة هي الروح والشريعة هي الجسد.

١١. أن مقاصد العقيدة لا تنفك عن مقاصد الشريعة أبدًا، بل قد يشتركان في مقصد واحد، كمقصد صلاح الفرد والمجتمع، فما أمرنا بالتزام الاعتقاد الحق، واتباع الشريعة السمحة؛ إلا لتحقيق صلاح الفرد في نفسه فيصلح مجتمعه.

١٢. المنهج الذي سلكه العلماء في الكشف عن المقاصد الشرعية هو المنهج نفسه الذي سلكه ابن عاشور في تفسيره، وإن لم ينص على ذلك. وسلكته في الكشف عن مقاصد العقيدة. فهما متلازمتان لا تنفكان عن بعضهما للعلاقة الواضحة بينهما، وما يكون من اتحاد المنهج في الكشف عنهما.

١٣. الوصول إلى تعريف للمقاصد العقدية "بأنها هي الحكم والغايات والأسرار من جملة الأوامر

والنواهي، التي تبين مراد الله من خلقه؛ فيما يتعلق بالإيمان، من تقرير عبودية الله وحده؛ بما فيه من تحقيق صلاح العباد والبلاد". وهذا بعد اطّلاعي على تعريفات الأئمة السابقين في هذا الباب، رغبة المساهمة في خدمة هذا العلم، ولئلا يكون دوري النقل والجمع فقط.

١٤. المكانة التي وضعها ابن عاشور لنفسه من خلال استقامته، ومؤلفاته التي بلغت العالم، مع أنه عاش في عصر كالعصر الذي نحن فيه، فلا يحتجّ أحدٌ بأن الظروف لا توائمه ويظل مكتوف الأيدي لم يصلح نفسه ولا مجتمعه.

١٥. أن العلاقة بين أركان الإيمان هي علاقة تكاملية، فالإيمان بركن منها لا يغني عن الإيمان ببقية الأركان.

١٦. أن علم المقاصد العقدية بحر لا ساحل له، ومن ابتدأ البحث فيه لا يستطيع الانفكاك عنه، فهو علم غزير الأفكار، صعب الأغوار، مبني على الاستنباط، لا يستطيعه إلا عظيم المراس، عديم الملل، شديد الحماس، صاحب همة وثّابة، ونفسٍ تواقة لكل جديد.

التوصيات:

١. توجيه همم الباحثين إلى إبراز علم مقاصد العقائد من خلال إفراده بالتأليف.

٢. جمع مقاصد الإيمان بأركان العقيدة الإسلامية من خلال تفسير التحرير والتنوير في مؤلَّف واحد مطبوع؛ ليكون مشروعًا موقوفًا يخدم الباحثين في علم المقاصد العقدية، ويثري المكتبة الإسلامية.

٣. إضافة مادة المقاصد في الخطة الدراسية في السنة التمهيدية لمرحلة الماجستير- تخصص العقيدة؛ لترسيخ العقيدة سلوكيا، ويتكامل التكوين نظريا وعمليا.

٤. إفراد الشيخ الطاهر بن عاشور بمؤلّف خاص لترجمته، وبيان منهجه، وتعداد مؤلفاته، فيجمع في هذا المؤلَّف شتات الجهود، وأقترح أن يسمى بـ "الموسوعة العاشورية"، كون ابن عاشور شخصية إسلامية موسوعيةً فذّة، إذ أن كتابيّ الغالي، والطبّاع مع أنهما بذلا إلا أنهما لا يكفيان في هذا الباب.

٥. توجيه همم الباحثين في العقيدة الإسلامية إلى توظيف المقاصد العقدية لأركان الإيمان الستة في حل الإشكالات الواقعية والسلوكية والاجتماعية، من خلال بيان أثر تلك المقاصد على الفرد وعلى المجتمع.

٦. توجيه همم الباحثين في السنة النبوية، والمتخصصين في ذلك إلى تخريج الأحاديث والآثار الواردة في تفسير التحرير والتنوير، والحكم عليها من حيث الصحة والضعف؛ إذ أن ابن عاشور لم يتبع منهجيةً ثابتةً في إيرادها وعرضها.

٧. حثّ الآباء والأمهات على إيجاد بيئة علمية لتنشئة أطفالهم؛ إذ كان هذا من أبرز الأسباب التي دعت إلى نبوغ ابن عاشور، إذ جمع عددًا من العلوم، وأبدع في كل فنّ، ومن تميّز في نهله من العلم، تميز وتنوّع في تعليمه.

الفهارس

وتشمل:

١-فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث النبوية.

٣- فهرس الأعلام.

٤- فهرس الفرق والطوائف والقبائل.

٥- فهرس الأماكن والبلدان.

٦- فهرس الكلمات الغريبة.

٧- فهرس المصادر والمراجع.

٨- فهرس الموضوعات.

١- فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٨٦، ٢٢٧
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾	٦	٨٢
﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾	٧	٤٠
سورة البقرة		
﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾	٣	١٣٢
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾	٤	١٣٢
﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾	٧	٦١
﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾	٢٤	١٩٢
﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾	٢٨	١٦٩
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾	٣٠	٢٠٠
﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	٣٨	٨١
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾	٣٩	١٨٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾	٤٥	٢٣٨، ٢٤٨
﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾	٥٦	١٦١
﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾	١٠٦	٦٨
﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾	١٢٦	١٣٧
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾	١٤٣	١٣٦
﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾	١٤٨	١٦٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾	١٥٣	٢٣٧، ٢٤٣
﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾	١٥٥	٢٤٣
﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾	١٥٦	٢٤٣
﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾	١٥٧	٢٤٣
﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾	١٥٨	٢٤٣
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾	١٥٩	٦٦
﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ	١٧٧	١٢٢، ١٣٤ ،

الآية	رقمها	الصفحة
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ... وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾		٢٣٧
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾	١٨٣	١١٠
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾	١٨٥	١١٠
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾	١٨٦	٢٠٨
﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ ﴾	١٩٧	٤٤
﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾	٢٠٠	١٣٠، ١٩٨
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾	٢٠١	١٣٠
﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾	٢٠١	١٣٠
﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾	٢٠٥	١١٠
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾	٢١٠	٤١
﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾	٢١١	١٩١
﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾	٢١٢	١١٢

الآية	رقمها	الصفحة
فَـَٔامَنَّا ﴾		
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	٢٠٠	٢٣٧، ٢٣٩
سورة النساء		
﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾	١٧	١٤٧ ، ١٤٨
﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾	١٩	٢٤٤
: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾	٢٩	١١٠
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ﴾	٤٠	١٨٢
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾	٥٦	١٩٢
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾	٥٩	١٢٣
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾	٦٥	١٢٣

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾	٣٨	١٠٣
﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾	٦٢	١٤٨
﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾	٧٤	٧٠
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾	٨٢	٦٣
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾	٩٠	١٠٨
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾	٩٥	١٦٩
﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ ﴾	٩٦	١٦٩
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ ﴾	٩٨	١٦٧
﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾	١٠٢	٢٠٢
﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ ﴾	١٠٤	١٧٨
﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ ﴾	١٢١	٤٣
﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي	١٢٥	٢٠١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١٣	٨٢
﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾	٤٩	١٠٧
﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾	٩٢	٢٢٠
﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾	١٠١	١٠٧
﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	١٠٧	٢٠١
	١٠٨	١٨٦
﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	١١٢	٨٦
﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾	١١٣	٨٦
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾	١١٤	١٤٧، ٢٤٨
﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	١١٥	٢٤٨
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	١٢٣	٢٢٨
سورة يوسف		
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾	٣	١٠٨
﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ	٦٧	٢٣٢

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾	٩	٥٣
﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾	٤٣	١٩٢
﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾	٤٤	١٨٩، ١٩٢
﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾	٤٨	١٨٦
﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾	٤٩	١٢٩
﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾	٥٠	١٢٩
﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾	٦٦	١٩٨
سورة النحل		
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	٩	٩٢
﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾	٢٥	١٧٩
﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٢٨	٦٦
﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٣٨	١٧١، ١٧٥
﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾	٧٠	١٦٦
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾	٨٩	١٠٦، ١٠٨
﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۗ ﴾	٩٦	٢٣٨
﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾	٩٨	٢٣٣

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الحديد		
﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾	٣	٨٧
﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾	٢١	١٤٣
﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾	٢٢	٢٠٤
﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾	٢٣	٢٠٤، ٢٤٣
﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾	٢٧	٨٨
سورة المجادلة		
﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾	٨	١٨٩
﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾	٢٢	١٢٦
سورة الحشر		
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ	٢	٦٧

الآية	رقمها	الصفحة
ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾		
﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾	٧	٧٨
﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾	٢٢	٢٠٠
سورة الممتحنة		
﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ ﴾	٣	١٩١
سورة الصف		
﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾	٦	٧٠
﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ﴾	١٢	١٨٦
سورة الجمعة		
﴿ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾	٩	٩٩
سورة التغابن		
﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ ﴾	٧	١٦٢، ١٧٥

٢-فهرس الأحاديث

٣- فهرس الأعلام

٤- فهرس الفرق والطوائف والقبائل

٥- فهرس الأماكن والبلدان

٦- فهرس الكلمات الغريبة

م	الكلمة الغريبة	الصفحة
١	الاستقراء	١٠١، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢	الاستقراء التام	١٠٢
٣	الاستقراء الناقص	١٠٢
٤	أشراط الساعة	هـ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٢٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٢٥٢ ،
٥	أشراط صغرى	١٥١
٦	أشراط كبرى	١٥٢
٧	الإيمان باليوم الآخر	١٢٠
٨	البرزخ	هـ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ٢١٣ ، ٢٥١،
٩	البعث	١٤ ، ١٥، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢٥٢
١٠	التفسير بالرأي	٧١
١١	الجنة	هـ ، ١٤ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،١٧٤، ١٧٧، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ،

٧ فهرس المصادر والمراجع

١) **ابن الأثير**، مجد الدين الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢) **إسماعيل بن محمد بن أحمد**، ما هي معالم الفكر المقاصدي عند الإمام الغزالي، مقالة عن أطروحة لنيل درجة الدكتوراة في الدراسات الإسلامية، إعداد محمد عبدو، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-المغرب، ٢٠٠١-٢٠٠٢م ، موقع الملتقى الفقهي.

٣) **الأشقر**، عمر بن سليمان، الجنة والنار، دار النفائس-الأردن، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٤) **الأشقر**، عمر بن سليمان، العقيدة في الله، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٩هـ_١٩٩٩م.

٥) **الأشقر**، عمر بن سليمان، القضاء والقدر، دار النفائس- الأردن، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

٦) **الأشقر**، عمر بن سليمان، القيامة الصغرى، دار النفائس-الأردن، مكتبة الفلاح-الكويت، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٧) **الأشقر**، عمر بن سليمان، القيامة الكبرى، دار النفائس-الأردن، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٨) **آل الشيخ**، صالح بن عبد العزيز، إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، دروس مفرغة.

٩) **آل الشيخ**، صالح بن عبد العزيز، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، دار التوحيد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٠) **الألوسي**، محمود شكري، غاية الأماني في الرد على النبهاني، تحقيق: الداني بن منير آل زهوي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١١) **أميمة هموري**، مقاصد العقيدة ومقاصد الشريعة عند الإمام فخر الدين الرازي، مقالة عن أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-المغرب، ٢٠٠١-٢٠٠٢م، عنوان المقالة: موقع الملتقى الفقهي.

١٢) **إياد خالد الطبّاع**، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، دار القلم-دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م.

١٣) **أيمن بن غازي بن حسين صابر**، الاستنباطات عند العلامة محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير جمعًا ودراسة، إشراف أ.د: طه عابدين طه أحمد،١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

١٤) **ابن باديس**، عبد الحميد محمد، العقائد الإسلامية في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية: محمد الصالح رمضان، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقه بو داود وشركاؤهما، الجزائر، الطبعة الثانية.

١٥) **ابن باديس**، عبد الحميد محمد، جريدة البصائر، عدد ١٦ بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٣٦م، الموافق ٢ صفر ١٣٥٥هـ.

١٦) **البخاري**، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار السلام – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ_١٩٩٩م.

١٧) **البدر**، عبد الرزاق بن عبد المحسن، التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية، مطابع أضواء المنتدى.

١٨) **البدر**، عبد الرزاق بن عبد المحسن، عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة: السنة الحادية عشرة- العدد الرابع- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٩) **البدوي**، يوسف أحمد محمد، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ_٢٠١٢م.

٢٠) **البغدادي**، أبو بكر أحمد الخَلَّال، السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢١) **البغدادي**، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق: محمد فتحي النادي، دار السلام – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٢٢) **البغوي**، الحسين بن محمد، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٣) **البغوي**، الحسين بن محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ.

٢٤) **الترمذي**، محمد بن عيسى، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: عصام موسى هادي، دار الصدّيق- الجبيل، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢٥) **التميمي**، محمد بن عبد الوهاب، أصول الإيمان، تحقيق: باسم فيصل الجوابرة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ.

٢٦) **التويجري**، محمد بن إبراهيم، موسوعة فقه القلوب، بيت الأفكار الدولية.
٢٧) **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم، التوبة ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، تحقيق: عبد الله حجاج، مكتبة التراث الإسلامي.
٢٨) **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم، الحسنة والسيئة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
٢٩) **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم، الرد على المنطقيين، دار المعرفة بيروت__ لبنان.
٣٠) **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم، الفتوى الحموية، تحقيق: د.حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي — الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣١) **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة النبوية، ١٤١٦هـ_١٩٩٥م.
٣٢) **الثعالبي**، عبد العزيز، تونس الشهيدة، ترجمة: سامي الجندي، دار القدس، الطبعة الأولى.
٣٣) **جامي علي**، محمد أمان، الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية- المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
٣٤) **ابن جبرين**، عبدالله، شرح العقيدة الطحاوية، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net، الدرس العاشر.
٣٥) **الجربوع**، عبد الله بن عبد الرحمن، أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية — المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٣٦) **الجرجاني**، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: نصر الدين التونسي، شركة القدس المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٣٧) **جغيم**، د.نعمان، طرق الكشف عن مقاصد الشريعة، دار النفائس- الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
٣٨) **الجندي**، سميح عبد الوهاب، أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم التصور واستنباط الحكم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٣٩) **الجهني**، د.مانع، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ_٢٠٠٣م.
٤٠) **الجوزية**، محمد ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، وأحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٤١) **الجوهري**، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار، دار العلم

للملايين–بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ_١٩٨٧م.

٤٢) **الحكمي**، حافظ بن أحمد، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم — الدمام، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٤٣) **الحمد**، مُحَمَّد بن إبراهيم، التقريب لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، دار ابن خزيمة — الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ_٢٠٠٨م .

٤٤) **الحملاوي**، عمر العرباوي، كتاب التوحيد المسمى (التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد)، مطبعة الوراقة العصرية، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

٤٥) **الحموي**، أحمد بن مُحَمَّد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية — بيروت.

٤٦) **ابن حنبل**، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٤٧) **الحنفي**، صدر الدين ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة — بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٤٨) **الخادمي**، نور الدين، الاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ_١٩٩٨م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

٤٩) **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن مُحَمَّد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

٥٠) **ابن خلكان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر — بيروت.

٥١) **ابن الخوجة**، مُحَمَّد الحبيب، شيخ الإسلام الإمام الأكبر: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية_ قطر، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م.

٥٢) **الذهبي**، مُحَمَّد حسين، التفسير والمفسرون، دار الحديث _ القاهرة، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م.

٥٣) **الرازي**، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ_١٩٧٩م

٥٤) **الرازي**، فخر الدين، المحصول، تحقيق د. طه العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ_١٩٩٧م.

٥٥) **ابن رجب**، عبد الرحمن بن أحمد، التخويف من النار والتعريف بدار البوار، تحقيق: بشير مُحَمَّد عيون، مكتبة المؤيد-الطائف، دار البيان-دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٥٦) **رضا**، مُحَمَّد رشيد بن علي، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥٧) **الريس**، عبد الله، ابن عاشور ومنهجه في التفسير، جامعة الإمام، ١٤٠٨ هـ.

٥٨) **الريسوني**، أحمد عبد السلام، مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، دار الكلمة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ_٢٠١٤م.

٥٩) **الريسوني**، أحمد عبد السلام، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، مكتبة الهداية — المغرب، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٦٠) **رينهارت بيتر آن دُوزِي**، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م.

٦١) **الزحيلي**، د.وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، دار الفكر— دمشق، الطبعة:الأولى،١٤٢٢هـ.

٦٢) **الزركلي**، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان.

٦٣) **السحابي**، د.أمامة، المقاصد العقدية من خلال موطأ الإمام مالك، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد ٢٥، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ - يوليوز ٢٠٠٧م.

٦٤) **السدلان**، صالح بن غانم، التوبة إلى الله - معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها، دار بلنسية- الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ.

٦٥) **السعدي**، عبد الرحمن بن ناصر، التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، دار طيبة — الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٦٦) **السعدي**، عبد الرحمن بن ناصر، القول السديد شرح كتاب التوحيد، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٦٧) **السعدي**، عبد الرحمن بن ناصر، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ - السنة ٣٣ -١٤٢١هـ.

٦٨) **السعدي**، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٦٩) **السعدي**، عبدالرحمن بن ناصر، الفتاوى السعدية، مكتبة المعارف_الرياض، الطبعة الثانية،

١٣٨٨هـ_١٩٦٨م،.

٧٠) **سعيد حوّى**، الأساس في التفسير، دار السلام-القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ.

٧١) **السفاريني**، شمس الدين مُحَمَّد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين— دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

٧٢) **السلمان**، عبد العزيز بن مُحَمَّد، موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، الطبعة الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

٧٣) **سلوى مسعودان**، مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر وأثرها على السلوك، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسطنطينة، ١٤٣٣هـ_١٤٣٤هـ.

٧٤) **سليمان بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الوهاب**، التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، دار طيبة، المملكة العربية السعودية-الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٧٥) **ابن سودة**، عبد السلام بن عبد القادر، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: مُحَمَّد الحجّي، دار الغرب الإسلامي - تونس، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م.

٧٦) **سيد سابق**، العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي- بيروت.

٧٧) **سيد قطب**، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٧٨) **الشاطبي**، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم- المملكة العربية السعودية، دار ابن عفان — مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٧٩) **الشاطر**، خليفة ونخبة من الأساتذة الجامعيين، تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية — تونس، ٢٠٠٥ م.

٨٠) **بن شاكر**، مُحَمَّد بن شاكر بن أحمد الملقب بصلاح الدين، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر — بيروت، الطبعة الأولى.

٨١) **الشريف**، مُحَمَّد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: مُحَمَّد الشاوش.

٨٢) **شلتوت**، محمود، إلى القرآن الكريم، دار الشروق- بيروت، ١٩٨٣م.

٨٣) **الشهرستاني**، مُحَمَّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ضبطه وعلق عليه: كسرى صالح العلي، مؤسسة

الرسالة ناشرون – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

٨٤) **الشيخ،** ناصر بن علي عايض، مباحث العقيدة في سورة الزمر، مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ_١٩٩٥م.

٨٥) **صايت إلهام،** مقاصد الإيمان باليوم الآخر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ١٤٣٢هـ_١٤٣٣هـ

٨٦) **صقر،** نبيل أحمد، منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، الدار المصرية — القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٨٧) **صوان،** عبد الرؤوف تاج الدين، مقاصد العقائد عند الشيخ الطاهر بن عاشور، رسالة ماجستير من جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية — قسم العقائد والأديان، للعام الجامعي ١٤٣٧- ١٤٣٨هـ.

٨٨) **الطالبي،** عمّار، آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية – الجزائر، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ_١٩٩٧م.

٨٩) **الطبري،** محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ _ ٢٠٠٠م.

٩٠) **ابن عاشور،** محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشركة التونسية للتوزيع- تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، الطبعة الثانية.

٩١) **ابن عاشور،** محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة للنشر والتوزيع والترجمة، مؤسسة دار سحنون للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ_٢٠٠٦م.

٩٢) **ابن عاشور،** محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

٩٣) **ابن عاشور،** محمد الطاهر، حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح، مطبعة النهضة- تونس، الطبعة الأولى، ١٣٤١هـ.

٩٤) **ابن عاشور،** محمد الطاهر، مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس- الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٩٥) **ابن عاشور،** وصفي أبو زيد، المقاصد الجزئية ضوابطها، حجيتها، وظائفها، أثرها في الاستدلال الفقهي، دار المقاصد للنشر والتوزيع- جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ_٢٠١٥م.

٩٦) **عباس أرحيلة،** حركات الإصلاح في العالم الإسلامي، مجلة المنهل – السعودية، العدد ٥٢٨، العام [٢١]،شعبان ١٤١٦هـ/ ديسمبر ١٩٩٥م.

٩٧) **العثيمين،** مُحَمَّد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، محرم ١٤٢٤هـ.

٩٨) **العثيمين،** مُحَمَّد بن صالح، شرح العقيدة الواسطية، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ.

٩٩) **العجيلي،** عبد الهادي بن مُحَمَّد، تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق: حسن بن علي العواجي، مكتبة أضواء السلف، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٠٠) **العسقلاني،** أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، تصحيح: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م.

١٠١) **علال الفاسي،** مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الكلمة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١٠٢) **العمراني،** يحيى بن أبي الخير، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، المملكة العربية السعودية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

١٠٣) **الغالي،** د.بلقاسم، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم مُحَمَّد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، دار ابن بيروت__ لبنان، الطبعة الأولى.

١٠٤) **الغزالي،** أبو حامد، إحياء علوم الدين، القاهرة مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

١٠٥) **الغزالي،** أبو حامد، المستصفى، تحقيق: مُحَمَّد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ_١٩٩٣م.

١٠٦) **الغزالي،** أبو حامد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي— قبرص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م.

١٠٧) **الغزالي،** أبو حامد، جواهر القرآن، تحقيق: مُحَمَّد رشيد القباني، دار إحياء العلوم-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨م.

١٠٨) **الغزالي،** أبو حامد، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق: د.حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد — بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م.

١٠٩) **الغزالي،** أبو حامد، معيار العلم في فن المنطق، شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ _١٩٩٠م.

١١٠) **الغزالي**، شعيب بن أحمد، مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، إشراف د. عبد الحافظ إبراهيم البقري، رسالة دكتوراة- جامعة أم القرى، ١٤٣٤- ١٤٣٥هـ .

١١١) **الغنيمان**، عبدالله، شرح فتح المجيد، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

١١٢) **ابن فارس**، مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ_١٩٨٦م.

١١٣) **الفراهيدي**، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١١٤) **فُصَّة**، عبد الباقي ابن فَقِيه، العين والأثر في عقائد أهل الأثر، تحقيق: عصام رواس قلعجي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ

١١٥) **قائد**، نشوان عبده خالد، دور الاستقراء في إثبات مقاصد القرآن الكريم عند ابن عاشور، ملخص بحث دكتوراه في قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

١١٦) **القرطبي**، محمد بن شمس الدين، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: د.الصادق بن محمد إبراهيم، دار المنهاج _الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١١٧) **القرطبي**، محمد شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن_ تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية_القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ_١٩٦٤م.

١١٨) **القرني**، محمد بن سعد بن عبدالله، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير التنوير، إشراف: د. محمد ولد سيدي ولد حبيب، رسالة ماجستير جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ

١١٩) **القصّاب**، أحمد، تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١_١٩٥٦م)، تعريب: حمّادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى.

١٢٠) **القِنَّوجي**، محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٢١) **ابن القيم**، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

١٢٢) **ابن القيم**، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مطبعة المدني-القاهرة.

١٢٣) **ابن القيم**، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة-بيروت، مكتبة المنار الإسلامية-الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.

١٢٤) **ابن القيم**، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة-بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٢٥) **ابن القيم**، طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار السلفية، مصر- القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

١٢٦) **ابن القيم**، مُحَمَّد ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: مُحَمَّد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي — بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م

١٢٧) **ابن كثير**، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي مُحَمَّد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٢٨) **مجلة الوعي الإسلامي**، عدد ٢٨، أبريل ١٩٨٦، السنة الحادية عشرة.

١٢٩) **مُحَمَّد أبو بكر بن العربي**، العواصم من القواصم، تحقيق: الدكتور عمار طالبي، مكتبة دار التراث، مصر.

١٣٠) **مُحَمَّد الخضر حسين**، تونس وجامع الزيتونة، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام مُحَمَّد الخضر حسين، اعتنى به: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا- لبنان-الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ_٢٠١٠م.

١٣١) **مُحَمَّد عبدو**، مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م.

١٣٢) **مُحَمَّد قطب**، ركائز الإيمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٣٣) **مُحَمَّد قطب**، ماذا يعطي الإسلام للبشرية، دار الرعاية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م.

١٣٤) **مُحَمَّد محفوظ**، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

١٣٥) **مُحَمَّد هادي معرفة**، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلامية، ١٤٢٦هـ.

١٣٦) **المحمود، عبد الرحمن بن صالح**، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، مدار الوطن للنشر- الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ_١٩٩٧م.

١٣٧) **مخلوف**، مُحَمَّد بن مُحَمَّد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .

١٣٨) **ابن منظور**، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
١٣٩) **الميداني**، عبد الرحمن بن حسن، العقيدة الإسلامية، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
١٤٠) **الناصري**، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م.
١٤١) **النجار، عبد** المجيد، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
١٤٢) **النعيم**، عبير بنت عبد الله، قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير - دراسة تأصيلية تطبيقية، دار التدمرية- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥م.
١٤٣) **النورسي**، بديع الزمان سعيد، حقيقة التوحيد أو التوحيد الحقيقي، دار سوزلر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
١٤٤) **النيسابوري**، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٤٥) **الهندي، محمد** رحمت الله بن خليل الرحمن، إظهار الحق، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أحمد خليل ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد — السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م.
١٤٦) **الوابل**، يوسف، أشراط الساعة، دار ابن الجوزي، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ_١٩٩٥م.
١٤٧) **ابن الوزير**، محمد القاسمي، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
١٤٨) **اليوبي**، د.محمد بن سعد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة السادسة، ١٤٣٦هـ.

٨-فهرس الموضوعات

بحمد الله